IRENE ROZDOBUDKO

THE BUTTERFLY DOES NOT SCREAM

الفراشة لا تصرخ

Telegram:@mbooks90

الهشاشة أحيانًا ليست ضعفًا... بل تمويهًا.

إيرين روزدوبودكو

تحلم كل امرأة بأن تكسر روتين المشاكل اليومية الممل وتبدأ حياة جديدة ــ حياة شيقة، غنية، وغير عادية. ولكن، هل من السهل عليها أن تظل صامدة عندما يعدها أحدهم بمغامرة استثنائية وبمستقبل يفيض بالحب والرعاية؟

تشير الإحصائيات العالمية إلى أن ملايين الأشخاص يختفون سنويًا دون أثر. معظم هذه الحالات تُفسر بأسباب طبيعية تمامًا مثل: الحوادث أو الكوارث. لكن جزءًا من هؤلاء المفقودين هم أشخاص، مثل الفراشات، ينجذبون إلى النور، ليقعوا في لهيب لا يستطيعون الإفلات منه أبدًا...

منذ عشرين عامًا

لم يكن ميكا الصغير يخرج ليلهو في الشارع وحده قط.

كان يكتفي بالتحديق من النافذة، يتأمل طوله الممتد بلا نهاية.

في الشتاء، يغطيه الثلج فيبدو كقطعة حلوى شهية، يراوده حلم أن يركض فوقها ويتذوق طعمها.

وفي الصيف، يشرق الشارع بألوان زاهية تتلألأ تحت الشمس، حتى أن عينيه تبرقان من شدّة الألوان، فيخاله بطعم حلو يشبه حلوى «المونبونسييه» التي أحضرتها له عمته ليوليا ذات يوم.

Telegram:@mbooks90

لم تكن والدته تصطحبه حتى إلى المتجر، بل كانت تربطه بحبل إلى المدفأة قبل أن تغادر، مهددة برفع إصبعها وكأنها تقول:

«إياك أن تتحرك! وإن أردت قضاء حاجتك، فلا تفكر أن تفعلها وسط الغرفة.»

تضع أمامه القصرية ثم تنصرف.

كان ميكا ينهض على أطراف أصابعه لينظر من النافذة إلى أقصى ما يستطيع، لكن النافذة عالية والحبل لا يسمح له بالاقتراب منها. فلا يرى سوى شريط ضيق من الشارع الطويل الممتد إلى البركة.

يتبدل الحال عند قدوم عمته ليوليا.

فبينما تنشغل هي ووالدته بفناجين القهوة أو ذلك الشراب البني الشفاف من الزجاجة المنتفخة، يشرع ميكا بالأنين الخافت المتكرر:

«أريد أن أذهب إلى البركة... أريد أن أذهب إلى البركة...»

العمّة ليوليا ليست مشغولة كأمه، ولا متشددة مثلها. وميكا يعرف تمامًا أن إصراره ساعة كاملة كفيل بأن يلين قلبها.

أما أمه، فإن ضجرها من نحيبه سرعان ما ينفجر في صيحة:

«خذا هذا الغبي بعيدًا! لم أعد أحتمل!»

لا يفهم ميكا معنى كلمة «غبي»، لكنه يجد وقعها جميلًا، والأجمل أن الكلمة تعني أنّ ليوليا ستتنهد أخيرًا وتقول:

«حسنًا يا صغيري، هيا بنا. لكن لا أكثر من نصف ساعة!»

حينها يقفز ميكا من فرط الفرح ليجمع كنوزه الصغيرة: وعاء زجاجيًا نصف لتر، وشبكة صيد، ويرتدي سرواله القصير وصندله البالي، ثم يلوذ بالباب تكاد لهفته تحرقه.

يا لطول ما تستغرقه ليوليا في ربط حذائها الأنيق، وإعادة تلوين شفتيها الفاقعتين أصلًا! بل لا بد لها أن تدخن سيجارة مع والدته «قبل المغادرة»!

فتأمرها الأم:

«ليوليا! لا تتأخري! سأضع البطاطس على النار!»

ثم يبدأان الرحلة نحو البركة، على الدرب الطويل... الطويل، فيما يلتفت ميكا برقبته الصغير ليتأمل البيوت العالية، والموسيقى المتدفقة من النوافذ.

يؤلم ميكا الصغير صخب الأصوات وضجيجها، لكنها سرعان ما تخفت حين ينتهي الرصيف الإسفلتي، وتقوده الأعشاب الكثيفة إلى البركة.

البركة... يا لها من معجزة!

في غاباتها الملتفة، كل شيء يتحرك ويخشخش ويصرصر، كل شيء يغصّ بحياة غامضة، ليست كالحياة الصاخبة بين البيوت.

يمشي ميكا فرِحًا فوق العشب الندي، ويتخيل تحت قدميه مدنًا عظيمة لا تراها عين البشر، مأهولة بكائنات غريبة.

مدن صغيرة تضجّ بحياتها الخاصة: بيوت ومتاجر ومدارس وملاعب، لكنها لا تعرف البشر سكانًا، بل تسكنها الحشرات، تلك الكائنات العجيبة الجميلة والمقززة معًا، بأرجلها وأجنحتها الكثيرة وعيونها الجاحظة...

ويسمع ميكا بوضوح كيف تتحطم مبانيها تحت صندله، وربما كانت بحجم بنايته العالية، لكنها صغيرة جدًا جدًا! لكن آثار هذا الخراب تكاد لا ثرى، فالعشب كثيف.

الأجمل أن يراقب عش النمل؛ إذا حرّكه بغصن ظهرت الممرات

والغرف والأنفاق تحت الأرض، وتجلّت الفوضى التي تعمّ المكان.

مشهد يذكّره بأفلام الحرب التي يتلصص على مشاهدتها من فتحة باب غرفة نوم أمه. غير أنّ ما يحزنه أنه لا يسمع أصواتًا! لا بد أن هناك ضجيجًا عظيمًا، وفوضى كهذه لا بد أن تُحدث جلبة، وكلها من صنعه هو: ميكا الصغير، سيّد عالم النمل!

وبعد النمل، يأتي الدور على هواية أخرى: صيد اليعاسيب والفراشات.

لا بد أن يصطاد أكبر عدد ممكن، فالوقت محدود، وليوليا لن تنتظره أكثر من نصف ساعة.

ويفكر أيضًا أن يصطاد ضفدعًا؛ فالضفادع كثيرة هنا، جلودها الرطبة الملساء تلمع وكأنها مصنوعة من البلاستيك! مقززة، جاحظة العيون، ذات بطون بيضاء رخوة.

يقلب أحدها بعصا فينتفخ بطنه، فإذا ضغط أكثر... يا للنفور!

لكن الضفادع دومًا مشكلة، فأمه لن تسمح له أبدًا بإدخالها إلى البيت! فيقرر أن الضفادع «للزمن الآتي»، حين يتمكن من القدوم بمفرده. وسيحين ذلك اليوم يومًا ما!

يجري مبتهجًا على طول الشاطئ، يستنشق رائحة القصب الخانقة قليلًا، وتتشرب بشرته الصغيرة شمس مايو الحارقة... إنه في صيده منشغل.

أما عمته ليوليا، فمستلقية على جذع شجرة سقطت، عيناها مغمضتان ووجهها مرفوع للشمس تدعها تحرق بشرتها.

ومن خلال قماش تنورتها البيضاء الخفيفة، تبدو ركبها وردية ناعمة. يتمنى ميكا لو كانت هي والدته، رغم أن أمه أجمل منها، لكنها عصبية قاسية، لا تحبه. أما ليوليا فهي طيبة... تأخذه إلى البركة.

وها قد امتلأ وعاؤه: بضع فراشات، ثلاثة يعاسيب، وحشرة خضراء غريبة بأجنحة طويلة كاليعسوب. رائع! ما يكفيه ليصبر حتى نزهته القادمة مع عمته. سيظل منشغلًا بكنزه حتى يحين اللقاء من جديد.

«هل استمتعت باللعب يا صغيري؟» تناديه ليوليا وهي تحدق في ساعتها. «لقد حان الوقت، لم أكمل حديثي مع والدتك بعد!»

يلف ميكا شبكته متثاقلًا، يعدّل سرواله القصير، ويغلق وعاءه بغطاء بلاستيكي محكم. يتنهد، يمكنه أن يعود الآن.

لو كان الأمر بيده، لظل هنا حتى المساء، حتى الليل، حتى الصباح التالي! لتعرّف على الأولاد الذين يلعبون كرة القدم في الفناء طوال اليوم. أو لجمع حقيبة ظهره الصغيرة (هدية من ليوليا) وانطلق في رحلة.

لكنه لا يزال في السابعة من عمره فقط. وهذا قليل جداً. لا يستطيع حتى الوصول إلى ثقب قفل باب شقته! «حالما يصل إليه، ستندم أمي عليه!»

في المطبخ بالمنزل، تجلس الجارة بالفعل، وتفوح رائحة البطاطا المسلوقة والمخلل.

يبتلع ميكا ريقه. لكنه يعرف القاعدة: في البداية، تستقبل الأم الضيوف وتولي ميكا صفراً من الاهتمام، ثم يأتي وقت غدائه بما يتبقى من الطعام. إلا إذا تمكن من سرقة شيء ما من المائدة خلسة. أو إذا أحضرت له ليوليا شطيرة إلى غرفته.

«أخيراً!» تصرخ الأم من المطبخ.

«ها قد أتى بطلنا!» تقول الجارة بصوت حالِ.

ميكا لا يحبها. ذات مرة، سمعها بأذنيه وهي تقول إن لأمه «مخالب فروية». لكن مهما نظر ميكا إلى قدمي أمه، لم يجدهما فرويتين أبداً! وليستا «مخالب» بالمرة. إنها تكذب! لو كان ذلك صحيحاً، فهل كانت أمي ستظهر في الأفلام؟! فأمه ممثلة مشهورة. لقد رآها على التلفزيون!

صحيح أن هذا الفيلم لم يُعرض مجدداً لأسباب غير مفهومة - وبسبب ذلك بكت أمه. لكن هناك بعض الأفلام القصيرة التي تُعرض طوال الوقت - عن الصابون، وعن نوع من «البيدجري بال»، وعن الغسالة. وفي كل هذه الإعلانات، هي النجمة! هي أمه!

في هذه الإعلانات، لا توجد غيرها - جميلة، شابة، مبتسمة، نجمة سينمائية حقيقية! ها هي تقف تحت الدش، عارية، مغطاة بالرغوة

كأميرة بحر، تلتفت وتقول للعالم أجمع: «صابون ‹إيديال› سيجعل أمسيتك مثالية!». أو تجلس فوق الغسالة بعباءة بيضاء من الفرو، تهزّ ساقيها الرشيقتين، وتضع إصبعها على شفتيها: «ش...ش...ش... هي تعمل... وأنت ترتاح...».

والجميع يرى ذلك!

عندما تأخذه أمه معها إلى المتجر - وهذا لا يحدث كثيراً! - غالباً ما يسمع همساً في الطابور: «أليست هي؟ تلك التي تستحم عارية في الرغوة؟». هذا يزعج أمه، لكن ميكا يفتخر بها. «سأريهم جميعاً!»، تهمس أمه. ويتساءل ميكا: ماذا تخطط لتُظهره لهم أيضاً؟ أمه ملاك، لكن من غير الواضح أبداً لماذا تعتقد أنه، أي ميكا، قد أفسد حياتها؟ لقد قالت ذلك مرة لليوليا (سمعها ميكا بأذنيه وهو يتنصت): «لماذا لم أجهض في الوقت المناسب؟! صدقت ذلك الحقير الذي قال إنه لن يتركني، سيتزوجني، وسيأخذني إلى هوليوود تقريباً - فأنجبته! والآن ما الذي جنيته؟ إعلانات؟ وماذا يمكنني أن أفعل أيضاً، فليس لدي من يعتني به - لا أم ولا جدة لتجلس مع هذا المتخلف!».

وهل من السيئ أن يكون المرء ممثلاً في الإعلانات؟ تساءل ميكا، هو مثلاً، يحلم بأن يكون ممثلاً في الإعلانات! لكن أمه لن تشتري له إعلانات أبداً...

...ميكا جائع، لكن فكرة البرطمان وما فيه من كائنات تدفئ روحه، يمكنه أن يأكل لاحقاً. خاصة أنه يلمح بطرف عينه أن أمه تخبئ في

الفريزر علبة كعكة أحضرتها الجارة. في الفريزر - هذا يعني أن الكعكة مصنوعة من الآيس كريم، ومغطاة من الأعلى بالفواكه وبشرائح الشوكولاتة! ومن المؤكد أنهم لم يأكلوا كل الكعكة، طالما أن أمه تخبئها في الثلاجة.

يتسلل ميكا إلى غرفته.

اليوم، لا يريد أن يتنصت على أحاديث الكبار، فيغلق الباب بإحكام. لديه الكثير من الأنشطة الممتعة. يتفحص البرطمان، يبتسم وهو يراقب اليعاسيب تتحرك بلهفة خلف الزجاج. قلقة. كأنها مرضى في مستشفى.

لقد ظهرت هذه الهواية لدى ميكا منذ عدة أسابيع.

إنها تستهلكه بالكامل، وتساعده على التغلب على الملل، وتخفف من شعوره بالضيق لأنه لا يُسمح له بالركض في الشارع مثل الأطفال الآخرين. حتى فكرة الطعام لا تبدو ملحة إلى هذا الحد إذا كان منغمساً في شيء جديد.

يخرج ميكا أول فراشة من البرطمان بحذر. لونها أبيض ناعم، فقط جسمها أسود ونحيل كجسم الدودة. رأس صغير، وعينان لامعتان بالكاد تظهران، وصفان من الأرجل الرفيعة كخيوط.

في البداية، يقتلع ميكا الجناحين من أحد الجانبين ويراقب كيف ترفرف الفراشة بشكل مضحك، وهي تسقط على جانبها، وتنزلق على

الأرض ببطنها، وتثني طرف ذيلها إلى الأعلى. بل إن ميكا يتخيل أن الفراشة تمسك رأسها بقوائمها الأمامية: «آه... آه! ماذا حدث لي؟! «.

بعد أن رأى هذه المناورات المضحكة، يقتلع ميكا الأجنحة الأخرى. الآن، تزحف الحشرة ببساطة، وكأنها لا تهتم، مثل السكران (وهكذا يرى ميكا أمه أحياناً). تحرّك أرجُلها الخيطية بصعوبة. حان دور الأرجل! بحذر وتركيز، ينجز ميكا هذه العملية أيضاً. الآن، تتحول الفراشة إلى دودة وترقد بلا حراك.

يتمدد ميكا على الأرض، ويقرب وجهه من «الشيء» الذي يراقبه، يتفحصه عن كثب ليرى عينيه وفمه. يلاحظ شيئاً غير لائق: لا تزال قرون الاستشعار الملتوية موجودة. يصحح ميكا الخطأ على الفور، ثم يعود ليتفحص عمل يده بدقة، ويقرب أذنه من الدودة السوداء: هل سيسمع صوتاً واحداً على الأقل؟

لكن الجسم الأسود الطويل يبقى بلا حراك. فقط عيناه تلمعان. لكن لا بأس من تركهما - لكي ترى نفسها! يضع ميكا الجسم مقابل قطعة من مرآة مكسورة.

حان دور اليعسوب. انظروا إليها! عيناها ضخمتان، ورأسها المنتفخ يدور. وجسمها أطول وأكثر امتلاءً من الفراشة. دسم قليلاً.

يجب أن تكون التجربة القادمة أكثر إثارة. يخرج ميكا إبرة...

...في ذلك اليوم، لم يحصل على الآيس كريم.

«أنت لم تستحق ذلك!» قالت أمه بحزم.

يعرف ميكا أن الأولاد الكبار «يخدمون» في الجيش، ويفهم أنه للحصول على حصته من الحلوى، عليه أن «يستحقها». لكنه يريد أن يأكل الكعكة الآن! يريدها لدرجة أن بطنه يؤلمه، يريدها لدرجة الهيستيريا، لدرجة البكاء. لكن ميكا يتماسك بآخر ما لديه من قوة، لأنه يعرف: إذا بكى، فلن يحصل على شيء على الإطلاق. تقول أمه إن دموعه تجعلها تشعر بالغثيان. كأنها تذوقتها من قبل...

يخلد ميكا إلى النوم وهو غاضب، وممتعض من أمه، ومن الجارة، ومن ليوليا التي لم تحضر له شطيرة، ومن العالم كله. «عندما أكبر، سأذهب لأخدم في الجيش»، يقرر بحزم، «وسأتناول الآيس كريم كل يوم!».

في الصباح، تقع شعاع الشمس الذهبي بجانب رأسه، ككرة آيس كريم. يحاول ميكا حتى تذوقها - يلعق طرف الوسادة فقط. لا طعم حلو لها!

يزحف ميكا من السرير. يسود الشقة الصمت. ربما يكون محظوظاً اليوم - ذهبت أمه إلى مكان ما من أجل «بروفة»، وسيتمكن من التسلق إلى الفريزر بنفسه. وليصرخ في وجهه لاحقاً، وليحبسه في الظلام، وليضربه! هو مستعد لكل شيء.

لكن أمه، كعادتها، تجلس على عتبة نافذة المطبخ بقميص نوم شفاف من الدانتيل.

«لماذا لا يطير الناس؟» تسأل أو تلقي شعراً بصوتها المخملي. «أنا أقول: لماذا لا يطير الناس مثل الطيور؟! أحياناً أشعر أنني طائر... أعطني!» تخاطب ميكا، وتشير بعينيها إلى علبة السجائر والولاعة على الطاولة.

كم هي جميلة الآن!

أشعة الصباح الذهبية تخترقها من كل الجهات، وهي تتوهج كلها، كأنها جنية من الحكايات، كفراشة. وساقاها ناعمتان وطويلتان جداً، متشابكتان مثل تمثال الخزف الموجود في الخزانة. تومئ له الأم برأسها، وتشعل سيجارتها وتستمر في قول أشياء غير مفهومة:

«...عندما تقف على قمة جبل - تتمنى لو تستطيع التحليق! يبدو الأمر وكأنك ستغمض عينيك، وترفرف بيديك وستطير...».

ميكا رأى ذات مرة في فيلم امرأة تطير. لم يفهم ميكا عن ماذا كان الفيلم - كان شيئاً عن رجل يطارد جاسوساً. ثم تسلق هو وفتاة إلى السطح، لم تتمكن الفتاة من الثبات على الحافة - وطارت إلى الأسفل. طارت ببطء شديد، وبجمال لا يوصف. مثل فراشة.

تهز الأم ساقيها، وميكا يراقبها بذهول.

«ماذا تنظر؟ هذا دور!» تقول الأم بصوت باكي. «بسببك، لن أمثل أي دور جيد أبداً. ولن أطير! ولن يساعدني أحد... لا أحد...».

...سيارة الشرطة، والإسعاف، وطاقم تصوير برنامج «طارئ» وصلوا

في وقت واحد تقريباً، بعد عشرين دقيقة من إبلاغ الجيران عن سقوط امرأة من الطابق السابع لمبنى من أربعة عشر طابقاً.

خلف باب الشقة المغلق، كان صراخ الصبي، ابن المتوفاة، يدوّي عالياً. اضطروا إلى كسر الباب، فازداد الصراخ.

الجارة الرقيقة اتصلت على الفور بأقرب صديقة للمتوفاة، وقالت: «فليأتِ ليوليا ويتصرف. لا أريد فماً إضافياً لأطعمه!».

في الفناء، كان الخبراء يعملون حول الجثة المسطحة، والأطباء يهرولون، والمارة يتجمهرون. والمصور التلفزيوني، بعد أن انتهى من تصوير المشهد في الخارج، كان يدخل الشقة، وهو يعلّق على الحدث.

ممر مظلم، وغرفتان بأسرة مفروشة.

في «غرفة الأطفال»، كان هناك سرير صغير بفرش قذر نوعاً ما، وجدران مغطاة بورق حائط بالٍ ومرسوم عليه فراشات عرجاء، بينما كانت غرفة المعيشة ذات اللون الوردي الفاتح أكثر ترتيباً، وسرير كبير مغطى بقماش حريري وردي فاتح، وباقات من الزهور الاصطناعية الباهتة في المزهريات، وكل شيء مغطى بطبقة من الغبار...

تتجول الكاميرا بلا رحمة في كل الزوايا وتلتقط أدق التفاصيل: زجاجات على الطاولة، أعقاب سجائر في أواني الزهور الجافة، وأطباق غير مغسولة...

وها هي نافذة المطبخ المفتوحة التي سقطت منها منذ نصف ساعة،

والطاولة التي عليها علبة كعكة نصف مأكولة، وأخيراً، وجه الصبي المتسخ والخائف...

كان الصبي يبكي بهدوء، يلطخ وجهه بالدموع والشوكولاتة.

يخاف من الكاميرا، يغطي وجهه بيديه، يختبئ تحت الطاولة، يخدش ويعض ويصرخ.

«توقفوا فوراً!»

هكذا تقتحم العمة ليوليا الشقة.

تحتضن ميكا، وتحمله بين ذراعيها، فيهدأ الصبي، ويصمت، ولا يتبقى منه إلا شهقات خافتة وهو يدفن وجهه في شعرها. شعرها له رائحة حلوة لذيذة.

يجلس ميكا بهدوء، ملتصقاً بها طوال الوقت، بينما يستجوبه المحقق. يسأله عن أمه، عن معارفها، عن حالتها العصبية، وعن عملها، وعن آخر لقاء بينهما. تجيب ليوليا وهي تضمه إليها - يشعر ميكا بارتجافها، ويسمع دقات قلبها. يريد ميكا أن يحمي ليوليا من الشرطي الصارم، لكنه لا يعرف كيف.

هم لا يسألونه!

لو سألوه، لكان قد أوضح أن أمه أرادت فقط أن تطير قليلاً.

تقبّل ليوليا ميكا، تربّت على رأسه، وتحدثه بلطف، وهي تحاول

بصعوبة كبح دموعها:

«لا تقلق يا صغيري. سآخذك معي. أما أمك... فهي...»

«طارت؟» يقاطعها ميكا.

«نعم... نعم...» تكرر ليوليا في حيرة، وتعود لتربت على شعر الصبي المجعد. «سأفعل لك كل ما تريده. هل تريد أن نذهب إلى البركة؟»

«لا،» يهز ميكا رأسه.

«إذاً، ماذا تريد؟»

«هل يمكنني أن آكل الآيس كريم؟» يسأل الصبي بصوت خافت بالكاد يُسمع.

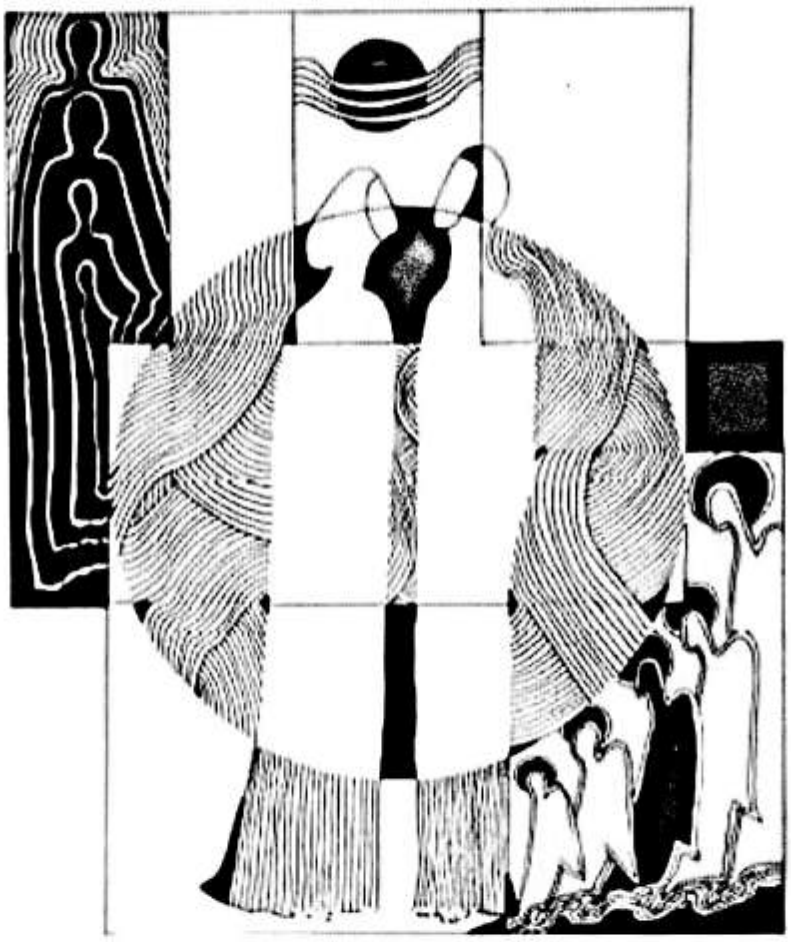

الجـــزء الأول

«اليوم، على الأرجح، هو يومي»، هكذا فكرت مارتا، وهي تمشي بثقة في وسط المدينة.

بالفعل، منذ الصباح الباكر، ومن دون أي مشاكل تظهر كل شهر تقريباً مع قسم المحاسبة، استلمت مبلغاً كبيراً من مكافأة إجازتها. وعلى الفور، اشترت حقيبة بيضاء، كانت بالضبط ما يناسب فستانها الصيفي الأبيض. كما تمكنت من دفع إيجار الشقة المتأخر لثلاثة أشهر في مكتب البريد دون أن تنتظر في الطابور.

الأكثر من ذلك، بينما كانت تسير في الحديقة، لاحظت ورقة خضراء ترفرف من تحت قدميها، وتطير في الممر، تحملها نسمة خفيفة من نسيم الظهيرة. لم تكن لتلقي عليها نظرة، لكنها، مثل فراشة كبيرة بأجنحة مفتوحة، رفرفت واستقرت بين زهور حوض النباتات. ورأت مارتا بوضوح الرقم «١٠٠» عليها. هي ليست فقيرة لدرجة أن تنحني لالتقاط منديل ورقي أو تقويم (فالورقة الخضراء كانت تشبههما)، وليست غبية لدرجة أن تقع في فخ المحتالين أو المخادعين الذين ربما يراقبونها. نظرت مارتا حولها خلسة، لكن الممر كان خالياً. أبطأت خطواتها لتنظر عن قرب دون أن تنحني. عندما دققت النظر، وجدت أن الورقة لها شكل صحيح، وعليها صورة بنجامين فرانكلين، وكانت جديدة تماماً.

نظرت مارتا حولها مرة أخرى - لم يكن أحد بالقرب. انحنت، كأنها

تعدّل شريط صندلها، وكررت ثلاث مرات: «سامحني يا رب...»، ثم التقطت الورقة، وكمشتها في كف يدها. كانت الورقة سميكة وذات صوت مميز - لم يكن هناك مجال للشك.

سارت مارتا حتى نهاية الممر بظهر مشدود، متوقعة واحدة من تلك القصص التي سمعتها من الناس: سيلاحقها أحدهم الآن، وستبدأ حول هذه «اللقطة» فوضى احتيال بعواقب غير متوقعة.

لكن لم يحدث شيء من هذا القبيل.

وقبل أن تخبئ الورقة في حقيبتها البيضاء الجديدة، كان على مارتا أن تعتذر عدة مرات لشخص مجهول وتقرأ «الصلاة الربانية» ثلاث مرات لتطهر ضميرها من الشعور المزعج بأنها كسبت من سوء حظ شخص آخر. في النهاية، فكرت أن الورقة ربما كانت تخص شخصاً «لا يعرف كم يملك من النقود»، ولذلك سقطت من محفظة أو جيب ممتلئ، فهدأت مارتا وقررت أن تنفق هذه «النقود السهلة» على شيء مفيد على الفور.

والآن، كانت تمشي وتتأمل نفسها في واجهات المحلات، تفكر بأن اليوم قد بدأ بداية جيدة، وأنه سيكون يوماً جميلاً.

لقد أحبّت انعكاسها في الواجهات. وهذا الانعكاس، الذي بدا وكأنه كيان منفصل عن مارتا، كان يلمح إليها أنه يجب عليها اتخاذ خطوة أخرى لم تجرؤ عليها مارتا نفسها: أن تزور أخيراً المتجر الصغير في الزاوية. هذا المتجر كان يجذبها منذ فترة طويلة، حيث كانت خلف

واجهته الزجاجية، على حوامل أنيقة وطويلة على طراز «الهاي تك» وموضوعة قبالة بعضها البعض، تُعرض منتجات حصرية - فساتين نسائية وبدلات رجالية من أشهر الماركات العالمية، وكما هو مذكور في الإعلانات، كل قطعة هي «نسخة وحيدة».

لطالما كانت مارتا تتجنب هذا المتجر، خجلاً من عدم قدرتها على شراء أي شيء في هذا المكان الذي كان دائماً فارغاً. لكن اليوم، قررت أن تلقي نظرة على الأقل على أسعار الفساتين باهظة الثمن - هل يمكن لمحفظتها أن تتحمل مثل هذا الشراء؟ كانت تعرف تماماً أنها لا تستطيع. لا يكفي المال حتى لشراء كم واحد، ولا حتى لوشاح من الحرير، ولا حتى لزر واحد من بدلة «أوت كوتور».

لكن في النهاية، لا بدّ من التحقق ولو لمرة واحدة - هل الأمر كذلك حقاً أم لا، حتى تهدأ، بدلاً من أن تظلّ تحدّق في الواجهة مثل قطّ ينظر إلى شريحة لحم. ستلقي نظرة، وتتصرّف بثقة، ثم تتظاهر بأن أياً من تلك الأقمشة الثمينة لم يناسب مقاسها أو لم يوافق ذوقها الرفيع.

فتحت مارتا الباب بعزم. وعلى الفور، سمعت صوت الأجراس الرنانة المعلّقة فوقه. وهذا يعني أن زيارتها لن تمرّ مرور الكرام.

وهذا ما حدث بالفعل. من الظلام المريح للمحلّ الصغير، خرجت بائعة شابة لمقابلتها.

«مساء الخير!» حيّتها بلطف. «هل يمكنني مساعدتك؟»

أدركت مارتا أن قواعد الإتيكيت تفرض هذا الأسلوب في التعامل مع الزبائن المحتملين، وأن هذا صحيح وضروري حتى، لكن هذه الخدمة المزعجة أزعجتها وكأنها تلزمها بالشراء. لطالما عرفت مارتا عن نفسها: بمجرد أن تبدأ الحديث مع أي بائع، ينتهي بها الأمر بوضع شيء لا حاجة لها به في سلتها! هذه هي طبيعتها السخيفة - لا تستطيع المقاومة، ومن الصعب عليها رفض من حيّته!

لذلك، اتخذت تعبيراً صارماً على وجهها.

«شكراً، سألقي نظرة بنفسي!»

وعلى عكس بائعي السوق اللحوحين، عادت الفتاة المهذبة فوراً إلى كرسيها خلف الصندوق.

اقتربت مارتا من الرفّ الذي يحمل ملابس النساء وبدأت تستعرض الفساتين والبدلات بسرور. كانت الملابس، حتى من مجرد لمسها، تبدو وكأنها منسوجة من بتلات الزهور أو من صوف ذهبي. لكن الأسعار! لطالما تساءلت مارتا: من يشتري هذه الأشياء؟! ربما المتغطرسون، أو عشيقات أحدهم، أو زوجات النواب، أو مجرد حمقى. يمكن ارتداء مثل هذه الملابس مرة واحدة فقط. وفي حالة مارتا، لا يمكنها ارتداؤها على الإطلاق، لأنه ببساطة ليس لديها مكان تذهب إليه مرتديةً مثل هذه الأشياء.

أزالت من الشمّاعة فستاناً واحداً لم يكن استفزازياً مثل غيره، وتوجّهت إلى المرآة، وبمظهر جاد، قارنت الفستان بنفسها. لم يكن

سيئاً! بل جيد جداً، إن لم يكن مذهلاً. تنهّدت مارتا، وانحنت لتفحص العلامة بعناية أكبر، وفركت القماش بين يديها كما كانت تفعل في السوق للتأكد من أنه لا يتجعد، وفجأة، شعرت بشيء صلب، طولي، يشبه علبة سجائر نسائية رفيعة، في جيب الفستان.

لم تكن البائعة تنظر إليها.

تسلّلت مارتا إلى الجيب خلسة وأخرجت منه... هاتفاً محمولاً نحيلاً، لونه بنفسجي، وعليه خطوط ذهبية على طول هيكله، تحفة فنية حقيقية من تصميم مبدع.

بالتأكيد، فكرت مارتا، يجب أن تتصرّف بصدق وتعيده فوراً إلى الصندوق. ألم يكفها الدولارات التي وجدتها؟! نظرت مارتا في اتجاه البائعة: كانت تظهر عليها علامات الملل بوضوح، وهي تقلب صفحات مجلة لامعة، بأظافرها الطويلة جداً، ومكياجها الصارخ، ونظرتها المتعالية تجاهها، تجاه مارتا.

لا، لا يمكن أن يكون هناك أي تضامن هنا! ولا يوجد أي ثقة في أن البائعة لن تأخذ اللعبة لنفسها. وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا تُرجعها؟ هذا مثل أن تركض في الشارع وتسأل كل شخص عن ورقة نقود مفقودة - تسعة من كل عشرة سيشكرونك ويأخذونها لأنفسهم!

بعد أن أقنعت نفسها بهذه الطريقة، وضعت الفتاة الهاتف بسرعة في جيبها، وتفحصت الفستان مرة أخرى عن كثب، وأبدت تعبيراً عن خيبة الأمل، ثم حملته ببطء إلى الرف. وعندما علقته في الداخل، لاحظت

على القماش خصلة شعر - خفيفة جداً، بلون أحمر فاتح...

مررت مارتا يدها على مجموعة الفساتين الأخرى، وتظاهرت بأنه لم يعجبها أي منها. ثم ابتعدت نحو الرف الدائري الذي يحمل الأوشحة، ولاحظت أن واحداً منها - لونه أزرق ناعم، ومنقّش بفراشات صغيرة متعددة الألوان - سعره أقل بقليل من المائة التي وجدتها، وبالتالي، فهو سبب ممتاز للتخلص من المال السهل.

أزالت مارتا الوشاح من الشماعة بعزم، وتوجهت إلى الصندوق.

«اختيار رائع، مبروك،» قالت الفتاة.

تظاهرت مارتا بأنها تعدّ النقود في محفظتها، وأخرجت منها الورقة الخضراء وكأنها عرضية.

«عذراً، هذا هو كل ما لدي...» قالت بكرامة ملكية.

في هذه المرة، نظرت الفتاة باحترام إلى فستان مارتا الصيفي وحقيبتها، اللذين من الواضح أنهما اشتريا من السوق، وابتسمت بحرج.

«لكننا لا نقبل الدولارات،» قالت بتردد. «عليك أن تصرفيها».

«لا داعي للباقي،» ابتسمت مارتا في المقابل.

تمتمت الفتاة، وبعد أن فكرت لبضع ثوان، أخذت النقود بسرعة، وأزالت الكيس المغلف من الخطاف بلطف وعلى عجل. لكن مارتا

وضعت الوشاح على كتفيها على الفور، وأومأت للبائعة، ثم خرجت بسرعة إلى الشارع، وهي قلقة من أن يكون هذا اختباراً ما. أو الأسوأ من ذلك - تصويراً بكاميرا خفية، والتي أصبحت موضة وتهدد بأن تكون عقاباً حقيقياً للمواطنين العاديين الذين لا يتمتعون بنزاهة في أيديهم وضمائرهم.

لكن لم يجرِ أحد خلفها، ولم يمسك بها أحد من ذراعيها، ولم يتهمها أحد بالاستيلاء على ممتلكات شخص آخر. على الرغم من ذلك، قررت مارتا أن تسرع في العبور إلى الجانب الآخر من الشارع لتختفي في الحشد.

كانت الساعة الثانية عشرة ظهراً، والشمس بدأت بالفعل في حرق مؤخرة عنقها، ووجنتا مارتا تشتعلان، وكأنها ارتكبت جريمة.

في الساعة الواحدة والنصف، كان من المقرر أن تلتقي الفتاة بصديقتها في مقهى بجانب النافورة القديمة، والذي كان اسمه «النافورة». وصلت مارتا مبكراً، وطلبت لنفسها كوباً من البيرة الباردة. كان المقهى مليئاً بالناس، يتحدثون بصوت عالٍ، والموسيقى تصدح من مكبرات الصوت. لم يكن أحد ينتبه لمارتا.

وهنا أخيراً تمكنت من إخراج الهاتف من جيبها وتفحصه بعناية: جهاز صغير بلون بنفسجي أنيق، قطعة جميلة وجذابة! وكلاسيكية جداً، يمكن القول إنها قديمة، ففي الوقت الحالي، يتباهى الجميع بالهواتف الذكية الضخمة التي بالكاد تتسع في اليد.

تجدر الإشارة إلى أن مارتا لم يكن لديها هاتف محمول، ووفقاً لقناعتها، لن يكون لديها أبداً. وكان هذا موقفاً مبدئياً منها!

عندما كان عمرها حوالي خمس سنوات، لاحظت أن الناس في الشارع بدأوا يتحدثون بصوت عالٍ «مع أنفسهم». وهذا أخافها كثيراً. حينها، كانت أمها تصطحبها إلى الحضانة، وأشارت إلى بعض المارة الذين كانوا يلوحون بأيديهم ويتحدثون بصوت عالٍ بأشياء لا معنى لها، وقالت بخوف: «كم من المجانين انتشروا...».

لاحقاً، عرفت مارتا أن أولئك «المجانين» يتحدثون على الهاتف - هكذا ببساطة، يكشفون أسرارهم في أي مكان يأتيهم فيه الاتصال أو الرغبة في التحدث. بدا لها هذا غير طبيعي. وبقي غير طبيعي حتى الآن، عندما تسمع: «كيف كنا نعيش من قبل؟» وكأن وجود الاتصالات المحمولة جعل الحياة حقيقية ومهمة وكاملة.

أما مارتا، فكانت مقتنعة بأن الهاتف هو «طوق كلب»، يختلف طوله باختلاف ثروة صاحبه، وفي سنها التي قاربت السابعة والعشرين، كانت تمشي بين زملائها ومعارفها «المحمّلين» بالهواتف، مثل عروس عذراء لجيش الرب. كان التحدث بصوت عالٍ في الشارع أو في السينما يبدو لها غير طبيعي وغير مقبول لطبيعتها الحساسة تجاه عجائب العلم والتكنولوجيا.

وهكذا، كانت مارتا تقلب بين يديها المستطيل البنفسجي الممتع للمس، وتتأمل في الشاشة الخضراء الوامضة، وتجد نفسها تفكر بأن

هذا ما سيفعله أي مواطن من السكان الأصليين على جزيرة مجهولة ومنسية، وهو يقلّب بين أصابعه هذه «العجيبة».

«أوه، أنتِ هنا!» سمعت صوتاً فوق رأسها.

كانت تاتيانا، كعادتها، تتحدث بصوت عالٍ، وعيناها السوداوان تتقلبان في كل اتجاه. أخيراً، استطاعت عيناها بجهد إرادي هائل أن تركزا على يدي مارتا.

«واو! هل أخيراً اشتريت لنفسك هاتفاً محمولاً؟ ولماذا هذا الطراز القديم؟»

نظرت عن كثب وفتحت فمها:

«أوه، قطعة رائعة، براقة! قطعة نادرة! لا يصنعون مثلها الآن. كم دفعتِ مقابلها؟»

«هذا من العمل،» أجابت مارتا ببرود، وهي تخبئ الهاتف في حقيبتها. لم تكن تريد أن تحكي عن مغامراتها الصباحية. «اليوم هو أول يوم في إجازتي، لكن العمل كثير، وقد يطلبونني في أي وقت...»

هزت تاتيانا كتفيها بسخرية.

«لديكِ عمل رائع، ما داموا يمنحونكم مثل هذه الهواتف.»

بالطبع لم تصدق، فكرت مارتا. فعملها لم يكن يتطلب مكالمات طارئة. كانت مارتا تعمل في مصنع للملابس بالكاد يواصل العمل تحت

ضغط التكنولوجيا الحديثة للشركات المنافسة، وكان لديها حلم أن تفتح يوماً ما ورشتها الخاصة، حيث يكون لكل قطعة قصتها الخاصة. عندئذ، لربما لن تتجنب شراء هاتف ذكي لإجراء المحادثات التجارية مع العملاء. لكن بعد طلاقها، تراجع هذا الحلم إلى أبعد زاوية في قائمة مشاكلها الملحة، والتي كان هناك الكثير منها بالفعل.

وهكذا، جلست الصديقتان في الظل تحت السماء، تشربان البيرة، وتتبادلان الكلمات بكسل. وجدت مارتا نفسها تفكر أن محادثاتها مع زميلتها السابقة في الفصل قد فقدت معناها منذ زمن طويل. لا يوجد شيء يناقشانه سوى الرجال، المواضيع المشتركة الأخرى قليلة، ولا يوجد سبب للانفصال والمغادرة في الدقائق القليلة القادمة. كانت تاتيانا تروي بصوت عالٍ مغامرة الأمس في سيارة الأجرة - تيار من الوعي يمتزج بالهواجس الجنسية. تظاهرت مارتا بأنها تستمع، وتنظر خلسة إلى ساعتها. أصوات المدينة أوحت بحالة من التخدر الرتيب، الذي كانت مارتا فيه طوال الأشهر الستة الماضية.

وسط هذا الرتابة، جاءها صوت خافت لألحان «أداجيو ألبينوني»...

موسيقى ساحرة جداً، وجذابة جداً. لقد محت جميع أصوات موسيقى البوب التي كانت تأتي من خلف الكاونتر، وهبطت على هذه الجزيرة المخصصة للبيرة مثل كرة ذهبية، وغلفتها بحنين فاتح، وتوقع لشيء حقيقي، وأزعجتها وأجبرتها على إدارة رأسها بحثاً عن المصدر الذي كانت تأتي منه هذه الأصوات الساحرة الخافتة. كانت النغمة تأتي من مكان قريب جداً. ولكن - من أين؟ نظرت مارتا إلى

تاتيانا - هل تسمع هي أيضاً هذه الأصوات، أم أن اللحن يدور فقط في خيالها.

«إنه هاتفكِ!» خمنت تاتيانا.

أخرجت مارتا الهاتف بارتجاف، والذي ملأ كفها باهتزازات ساحرة، وأخذت رشفة كبيرة من الكوب تحت نظرة صديقتها الفضولية. لا مفر - عليها أن تجيب. بحركة غير واثقة، رفعت الجهاز إلى أذنها، وضغطت ببطء على أيقونة السماعة المرسومة على الشاشة.

«ألو...»

كانت تاتيانا تراقبها بانتباه. جلست مارتا بلا حراك لعدة ثوانٍ، تضغط الهاتف على أذنها. ثم ضغطت على السماعة الحمراء على الشاشة وخبأت الهاتف في جيبها.

«هل هناك شيء مهم؟» سألت تاتيانا بفضول، عندما رأت أن وجه صديقتها قد تغير. «هل يطلبونك في العمل؟»

«نعم، يطلبونني،» أكدت مارتا بذهول، ووقفت. «لا تنزعجي، يجب أن أذهب...»

هزت تاتيانا كتفيها بضيق.

...كانت مارتا تسير تحت النظرة الدقيقة لزميلتها السابقة في الدراسة، وما يزال صوت من الهاتف يتردد في رأسها - صوت هادئ، أجش، مثل صوت القطط: «أعطيكِ بضع ساعات لتجنب إفساد

علاقتنا... عودي، يا حبيبتي...»

***

في اليوم نفسه

كان لدى مارتا العديد من الأمور العاجلة.

كان عليها أن تزور كاتب العدل، وتوثق أوراق سيارة ورثتها مؤخراً من قريب بعيد من جهة أمها، وتجلس ساعتين في محاضرة أخرى بمدرسة القيادة، وتصطحب ابن أختها من الروضة وتوصله إلى المنزل، لأن ماريا لم تستطع فعل ذلك بسبب اجتماع عاجل في العمل.

على الرغم من أنها في إجازة، شعرت مارتا بأنها امرأة أعمال مشغولة، ومثقلة بأمور جدية وعاجلة. كاتب العدل، مدرسة القيادة، الروضة... يا له من عبء.

لكن بينما كانت تسير نحو محطة المترو، فكرت مارتا فجأة أن كل هذه الأمور لا تحمل في طياتها أي شيء مثير للاهتمام، أو جديد، أو مصيري، أو روحي. لا شيء يمكن أن يرفعها فوق الروتين، ويمنحها دفعة جديدة للحياة، ومشاعر وفرصاً جديدة. ليس هناك ما يستحق العيش من أجله ولا يوجد شيء تعيش به! هذه الفكرة المزعجة سقطت عليها كقطرة مطر باردة ضخمة، واستقرت في قمة رأسها: كل «أمورها العاجلة» هي تفاهات، صخب يومي لا يحتاجه أحد، «عبث العبث». أبطأت مارتا خطواتها، مصدومة بهذه الفكرة الرهيبة. بصراحة،

وكل هذه الأمور مجتمعةً دفعت إلى أفكار مزعجة حول مدى رتابة حياتها وعبثية الوجود البشري بشكل عام. «أليس هذا مبالغاً فيه؟»

«ربما ليس الجميع يعيشون هكذا؟»

التقطت عينها جسد شاب نحيل يتأرجح فوقها، كأنه عشب بحري تحت الماء، يحمل في يده كتاباً بعنوان «معجزة الطيران»، وبخط أصغر تحته: «تاريخ الملاحة الفضائية». ابتسمت مارتا من خلال دموعها تقريباً - «لا، ليس الجميع...»

كان وجه الشاب مركزاً ومنفصلاً عن الواقع، كأنه في بُعد آخر. كان يحدّق بتمعّن وشغف في الصفحة، ويرفع عينيه من حين لآخر لينظر إلى الخارج - إلى السماء. ثم، بعد أن يستريح من خيالاته، يعود مجدداً إلى الرسومات المعقدة في الكتاب. كان وجهه رقيقاً ومُلهَماً - وجهٌ يدلّ على عالم روحي معقد. هل كانت مارتا لتكون مثيرة للاهتمام بالنسبة له؟ على الأرجح لا. تنهدت مارتا ونقلت بصرها بعيداً.

المرأة التي جلست بجانبها كانت تحدّق هي الأخرى في كتاب - رواية رومانسية، ملونة مثل غلاف الحلوى. بُعد آخر أيضاً. إنها تتخيل نفسها «ديانا» أو «أنجيليكا» أو «إيزابيلا» أو «سكارليت»، وتؤمن إيماناً راسخاً بأن غداً سيأتيها «ريت بتلر» أو «دون بيدرو» ذو الشارب الأسود الصغير، وسيقودها عبر بحر الحياة الهائج وكأنه أرض يابسة. حياتها مليئة بالأحلام والغباء، لكنها لن تفكر أبداً في اصطناعيتها. وبالتأكيد لن تعاني من أفكار حول عدم كمالها.

فكرت مارتا فجأة في صاحبة الهاتف. من المؤكد أنها ليست مثل مارتا، ما دامت لديها القدرة على اختيار فستان في محلّ فاخر، وعدم الاكتراث لنسيان شيء مهم كهذا فيه.

«يا لها من فوضوية!» سبّت مارتا المرأة المجهولة في سرها. «ربما دخلت لتقيس قطعة القماش هذه، ووضعت هاتفها في جيب الفستان عن طريق الخطأ، ثم علّقته على الرف. الآن، هي بالتأكيد نادمة، وتتجول في مكان ما، تخترع الحماقات بدلاً من أن تذهب إلى صاحب ذلك الصوت الرخيم والجميل...». يا للأسف، بسبب وجود تاتيانا، لم تستطع مارتا أن تجيب، أو تشرح الموقف، أو تعتذر. لقد أثّرت فيها الكلمات - «عودي، يا حبيبتي».

يا ليتها هي، مارتا، من تلقّت اتصالاً كهذا من «أندريه»!

لا! هذا الاسم وحده، حتى بمجرد التفكير فيه، يجعلها ترفع عينيها فوراً، لأنهما تمتلئان بالدموع. يجب ألا تسمح لهما بالفيضان، وبالتدفق على خديها كالجداول المالحة هنا، في المترو.

«متى سينتهي هذا الألم؟» تساءلت مارتا. لقد مرّ عام على انفصالهما، ومع ذلك، ما زال قلبها يتألم، كأن كل شيء حدث بالأمس. وتساورها شكوك. ربما لم يكن عليها التسرع؟ اعتقدت أنه لن يذهب إلى أي مكان. لكنه ذهب ولم يعد. والأكثر من ذلك، كما يقول أصدقاؤهما المشتركون - هو على وشك الزواج مرة أخرى.

وهي، مارتا، أدركت الآن فقط أنها لا تستطيع العيش وحيدة على

الإطلاق، وأن الوحدة تخنقها، وأن الصمت والفراغ في شقتها وفي روحها يثقلان كاهلها. ليت الأمر كان مجرد «زوج» - لم يعد حبيبها، لكنه «معتاد». مثلما لدى الجميع. في أي لحظة غبية شعرت بأنها أفضل من الآخرين؟

في مكتب كاتب العدل، أمضت مارتا حوالي نصف ساعة - تم حل كل شيء بسرعة كبيرة. اتضح أن السيارة لن تصلها قريباً، فهناك العديد من المطالبين بها - أقارب بعيدون. ضحكت مارتا مع كاتب العدل وتخلت بسهولة عن المشاركة في المنافسة على سيارة «لادا» القديمة والمسكينة، التي كان عليهم بطريقة ما تقسيمها إلى ثمانية أجزاء.

بينما كانت في طريقها إلى مدرسة القيادة، تمكنت من التوقف عند مطعم «الأطباق الأوكرانية» وتناولت بضعة سلطات خضار. الآن، على الأقل، يمكنها أن تجلس لساعتين في المحاضرات المملة وغير المفهومة، والأهم من ذلك، عديمة الفائدة تماماً في وضعها الحالي.

لقد نصحتها تاتيانا نفسها بالالتحاق بدروس القيادة. «سواء تعلمت القيادة أم لا - هذا أمر ثانوي،» لخصت لها. «لكن بالتأكيد هناك الكثير من الرجال هناك. ربما تتعرفين على أحدهم. على الأقل، تتسلين...».

في الآونة الأخيرة، حاول جميع معارفها بكل قوة أن ينظموا حياتها، وسألوها لماذا هي - الجميلة والذكية والشابة - تمشي وحيدة، كأنها ضائعة.

كان سماع هذا مزعجاً للغاية. كأن جميع الآخرين «منظمون»!

وبعضهم مقيّد بقوارب العائلة. ومارتا وحدها، في رأيهم، تنجرف مع التيار، مثل قارب فك رباطه.

تجنبت مارتا منطقة لعب الأطفال، ودخلت فناء المدرسة الثانوية، حيث توجد دروس القيادة. لقد تأخرت قليلاً، واعتذرت، وتحت نظرة المدرب المليئة باللوم، جلست بهدوء في مكانها - على مقعد الدراسة بجانب سيدة بدينة تدعى سفيتلانا سيرجيفنا.

كان المدرب يقف بجانب السبورة ويرسم مساراً ما. تنهدت مارتا، وفتحت دفترها: لقد دفعت المال - يجب أن تتعلم، ربما ستفيدها يوماً ما. أمامها وخلفها، كان يجلس سبعة أو ثمانية أشخاص، منهم رجلان فقط - «شائب وشاب». كان الشائب يغفو، والشاب يمضغ علكته. هكذا هي «التعارف»!

لم تستمع مارتا لما كان المدرب يهمس به، كانت ترسم بقلمها في الدفتر ورسمت وجهاً مضحكاً.

ثم سمعت مرة أخرى اللحن المألوف - الأداجيو.

وأزعجها مرة أخرى بتناغمه القلق - كانت تتمنى لو تستمع وتستمع...

نظر المدرب إلى القاعة بعدم رضا، وأسرعت مارتا في إخراج هاتفها المحمول، وضغطت على زر الرد بصمت.

«أين أنتِ؟ لقد نفد الوقت،» جاءها الصوت من الهاتف، «أنتِ فتاة غير مطيعة...».

استمر الصوت في قول شيء آخر، لكن مارتا أغلقت المكالمة، وهي تنظر إلى المدرب بذنب.

لماذا تحتاج إلى مشاكل إضافية، ومشاعر سلبية لا علاقة لها بها؟! سيتعين عليها أن تفعل شيئاً حتى لا يزعجها هذا الصوت مرة أخرى. لكنها لم تكن تعرف كيف. ربما ترمي هذا الهاتف أو تعيده إلى المتجر غداً.

حتى نهاية المحاضرة، لم تستطع مارتا التركيز، وكانت تخشى طوال الوقت أن يتكرر الاتصال. الآن لم يعد الصوت يبدو لها جذاباً وناعماً، بل كان عديم اللون، جافاً، كالقش.

إذا كانت قد تعاملت مع المكالمة الأولى بتفهم، بل وحسدت المرأة التي ينتظرها أحدهم ويعطيها فرصة للعودة، فإنها الآن تخيلت كيف يجلس رجل مهجور في مكان ما في الطرف الآخر من المدينة، ربما يكون مختلاً نفسياً، في بيت فارغ، ويخطط لعقوبات مروعة لزوجته أو عشيقته.

كان أندريه يتصل بها بنفس الطريقة (رفعت مارتا عينيها وغضبت مرة أخرى من عاطفيتها)، لكن ليس لفترة طويلة - وعلى هاتف المنزل.

«ماذا لو أبحث عن هذه المرأة، وأجدها وأحذرها من خطوة متهورة؟» فكرت مارتا. «ماذا لو أشاركها كيف أن الذكريات تخنقني ليلاً، وكيف أن الروائح، والموسيقى، والأماكن التي كنا نرتادها معاً، تجلب حزناً لا مفر منه؟ ربما هذه المرأة المجهولة نادمة على خطئها

ولا تعرف أن أحدهم ينتظرها، وأنه قد غفر لها؟»

في هذه الحصة، كما في الخمسة السابقة، لم تفهم مارتا شيئاً. خرجت متعبة، وتمنت لو تستطيع النوم. زميلتها التي جلست معها في نفس المقعد لم تتوقف عن الكلام، بينما كانتا تسيران معاً إلى محطة الترولي باص. كان تياراً من الوعي أيضاً، مثل تاتيانا، لكن هذه المرة كان يمزج قصصاً لا تهم مارتا عن مرض حماتها، وعن إزالة البقع بمواد كيميائية مختلفة، ومزايا إحداها على الأخرى، وعن كيفية نقل السياح الصينيين للكلاب الصغيرة في صناديق أحذية إلى ليبيا، وعن النترات في الأغذية، وعن جل مفيد للسيلوليت، وعن الكثير من الأشياء الأخرى التي كانت سفيتلانا سيرجيفنا تملأ بها حياتها.

لم تكمل مارتا الاستماع إلى رواية الحلقة رقم ١٤٠ من مسلسل «سعادة الفجر»، فاعتذرت، وودّعتها بسرعة، وعندما لاحظت حافلة صغيرة، هرولت عبر الشارع. كانت حساباتها صحيحة: سفيتلانا سيرجيفنا البدينة لم تستطع القيام بهذا الفعل وظلت واقفة على الجانب الآخر بفم مفتوح، علقت فيه الصرخة الأخيرة للبارون الفجري موريلو.

الآن، كان هناك مهمة أخرى تنتظر مارتا - الروضة، وبعدها يمكن اعتبار اليوم قد انتهى.

في الحافلة، كان لحن ألبينوني، الذي كادت مارتا أن تعتاده، يجرح أعصابها بحرارة - ففي النهاية، هذا لحن سماوي وغير بشري - كان

يمكن أن يكتب فقط بدم قلب متعب وجريح! يجب أن تبحث عن بعض الكتب وتقرأ عن الملحن...

ماذا سيحدث هذه المرة؟ لم تستعجل مارتا في إخراج الهاتف، كانت تفكر فيما إذا كان عليها أن تطرد صاحب الصوت فوراً، وتوضح له أن فتاته رمت الهاتف، وأنها، مارتا، التقطته من حاوية القمامة؟ ولكن، وهي تنظر إلى الركاب، قررت أن تصمت. كراهيتها للاعترافات العامة كانت واضحة، ولم تكن قد تكونت لدى مارتا عادة التحدث بصوت عالٍ في مكان مزدحم. لذلك، وضعت الهاتف على أذنها بصمت للمرة الثالثة.

«هل تظنين أنني لن أجدكِ؟ أعدكِ: إذا لم تعودي، ستحصلين على رأس والدتكِ في علبة كعكة! أنا أعلم أنها تعيش في ليسوفي!»

***

«مارتا جاءت!» هتف ابن أخيها بسعادة، عندما رآها وهي تسير نحو منطقة اللعب، حيث كان أطفال الروضة يلعبون تحت إشراف متدربة شابة.

ابتسمت مارتا. بفضل سلافك البالغ من العمر أربع سنوات، استقر اسم «ماتا» في العائلة. وحتى زوج أختها كان يناديها بـ»ماتا هاري الخاصة بنا». ربما كانت زوجة أخته تبدو له غامضة على خلفية حياتهما الزوجية التي تسير بدقة ووفقاً لدقائق محددة.

حملت مارتا ابن أخيها بين ذراعيها، وأومأت للمربية وخرجت

بالصبي. كان يعانقها من رقبتها، ويتحسس خصلات شعرها بأصابعه الصغيرة. كان بإمكانها أن تنزله على الأرض، لكن مارتا استمتعت الآن بدفئه ورائحته الناعمة، وبلمسة خده البارد المتسخ على جبينها الحار.

كانت مارتا تلوم نفسها بالفعل على سرقة ذلك الهاتف اللعين في الصباح.

وعلى الرغم من أنها فهمت جيداً أن التهديدات لا تخصها، إلا أنها شعرت بعدم الارتياح. «ماذا لو لم تكن مجرد مزحة؟» وحتى لو رمت الهاتف، فهل ستتمكن من نسيان أن هناك من يطارد امرأة ضعيفة - وعلى الأرجح، مختل نفسي؟!

ماذا تفعل؟ وهل يستحق الأمر أن تفعل شيئاً؟ وإذا كان الأمر يستحق ذلك - فماذا تفعل بالضبط؟ هل تذهب إلى الشرطة؟ «لا، بالتأكيد لا». في إحدى المرات، عندما تعرضت للسرقة في المصعد، كان عليها أن تذهب إلى القسم دون أي نتيجة، بل قالوا لها إنها لا يجب أن تزعجهم بأمور تافهة. نصحوها بالنسيان. وهنا، سيكون عليها أيضاً أن تشرح من أين جاءها هذا الهاتف - وهذا سيؤدي إلى سلسلة طويلة جداً من المشاكل غير المتوقعة.

إذن، ما يجب فعله بشأن هذه المكالمات غير واضح.

وكأنها في حلم، أوصلت سلافك إلى المنزل، وكما هو معتاد، تحدثت لمدة عشر دقائق مع والدة زوج أختها، التي لم تنهض من السرير، وقررت ألا تنتظر عودة ماريا من الاجتماع.

نشرت على الطاولة أقلام التحديد والورق - «فليَرسم الصغير مؤقتاً». سكبت لآنا بافلينا الشاي. «لا بأس، سأنتظره معها كيفما كان الأمر!»

كانت تتوق إلى العودة إلى منزلها (كانت تعيش على بعد مسافة قصيرة من أختها) لحل مشكلة ما بخصوص ما وجدته، والذي أضرَ بأعصابها بشكل واضح.

في المنزل، شعرت بالراحة قليلاً.

كان الهاتف صامتاً. تناولت مارتا العشاء، شغّلت التلفزيون، واستلقت على الأريكة. أمسكت بالهاتف بين يديها، وتمكنت أخيراً من فحصه عن كثب دون وجود شهود. كان صغيراً، بلون بنفسجي داكن، وعليه حبيبات ذهبية. على عكس الهواتف التي يمتلكها معارفها، كان صغيراً، ويتسع في كف اليد.

«يا ليتني أعرف كيف أوقفه عن العمل، حتى لا يغني ولا يضرب على أعصابي؟»

لماذا هي، مارتا، عاجزة إلى هذا الحد عندما يتعلق الأمر بأي نوع من الأجهزة؟

«إنه أمر بدائي!» كما يقولون. «الجميع لديه هواتف ذكية منذ زمن طويل، وهي الوحيدة التي لا تجرؤ على ربط نفسها بهذا «الطوق القصير»، كأنها آخر المتوحشين». وهذا ما يسبب نظرات الاستغراب

منذ فترة طويلة. خاصة عندما يطلب منها رجل (وهذا حدث ثلاث أو أربع مرات في العام الماضي!) رقمها، فتعطيه أرقام هاتفها المنزلي البالية.

«ماذا لو استشرت أندريه؟»

وماذا في ذلك؟ إنه سبب رائع! وجدي جداً. لم يكن لديها أي سبب قبل هذا. حتى الغسالة لم تتعطل.

ربما مغامرة اليوم مع الهاتف ليست صدفة - ربما السماء تعطيها فرصة لإصلاح العلاقة الزوجية التي كانت ودية يوماً ما، لتسمع صوته، لتخبره عن نفسها؟ لمن يمكن أن تلجأ غيره؟ لن تشرح لشخص غريب أنها سرقت شيئاً ليس لها!

نهضت مارتا من الأريكة فجأة.

«ماذا لو لم يعد لديها إحداثياته الجديدة؟» بدأت تبحث بقلق شديد في مفكرتها القديمة. «ها هو، وجدته!» مكتوب بقلم رصاص من صديق مشترك قابلته في الشارع.

لم تخف مارتا الآن من أن يلاحظ أحد دموعها. تذكرت كيف سألت ساشكو بتلقائية ومرح في ذلك الوقت: «كيف حال زوجي السابق، هل تراه؟» وطلبت منه هذا الرقم لسبب ما... ولم تجرؤ على الاتصال به ولا مرة.

حسناً، لقد مضى الوقت، يمكنها أن تستغل الفرصة. لكن إصبعها

توقف بخيانة عند الرقم الأخير.

أخيراً، تمكنت من التغلب على قلقها.

«ألو!»

في تلك اللحظة، شعرت مارتا بأن قضيتها تافهة، وسخيفة، وتشبه الكذب، وأنها لم تسمع أي رسائل مروعة، وأن كل هذا مجرد هراء ولعبة من خيالها المريض، وأن الشيء الوحيد الذي كان حقيقياً هو رغبتها في سماع كلمة «ألو» الهادئة هذه و... إنهاء المكالمة.

«ألو،» كرر أندريه.

هزت مارتا رأسها، ورسمت ابتسامة على وجهها، كأنه يستطيع رؤيتها.

«مرحباً، أنا مارتا. هل يمكنك التحدث؟» حاولت أن تتحدث بتلقائية وسرعة، حتى يفهم أن لديها أمراً مهماً وعاجلاً حقاً لا يمكن لأحد أن يحلّه سواه. «آسفة للإزعاج، لكنني بحاجة إلى نصيحتك. هل تمانع؟»

لم يكن يمانع. وشرحت مارتا بالتفصيل كل ما حدث اليوم، بدءاً من الصباح، وهي تسأل بين الحين والآخر: «هل ما زلت تستطيع التحدث؟»

أرادت مارتا أن تكون لبقة، وأن تظهر له أنها تعرف شيئاً عنه ولا تنوي إثارة غيرة صديقته الجديدة.

ومن ناحية أخرى، كانت بهذا السؤال تؤكد أنه لم يعد حراً الآن. أو بشكل أدق، ليس حراً لدرجة أنه لا يضطر إلى الإبلاغ عن هذه المحادثة الطويلة مع زوجته السابقة أمام أخرى، ربما تسير (أو تستلقي؟) بالقرب منه.

«حسناً...» فكر بعد خطبتها الطويلة. «أنتِ، كالعادة، تدهشينني. إذا كنتِ لا تختلقين شيئاً بالطبع. الأمر بسيط. أولاً، يظهر رقم المتصل على الشاشة، إذا كنتِ قد لاحظتِ ذلك - وبالتالي، يمكنكِ الاتصال به بنفسكِ وإخباره بما أخبرتني به. إذا كان هذا هو هدفكِ. ثانياً: إذا كنتِ تريدين الاحتفاظ بالهاتف - افتحي الغطاء الخلفي للجهاز واسحبي بطاقة SIM. هل تذكرتِ؟ حتى طفل في السادسة من عمره يعرف هذا الآن».

«وماذا بعد؟»

«لا شيء. يمكنكِ لاحقاً أن تشتري شريحة جديدة وتستخدميه. وبطبيعة الحال، اشتري شاحناً خاصاً لهذا الطراز. أخيراً ستخرجين من العصر الحجري. هل هذا كل ما أردتِ أن تسأليه؟»

«نعم، شكراً.»

«إذاً، وداعاً!»

سمعت صوت إنهاء المكالمة في الهاتف.

هذا كل شيء.

تخيلت مارتا كيف، بعد أن ينهي المكالمة، يشرح برفق لـ«تلك التي بجانبه» أنه كان يتحدث مع امرأة أصبحت الآن (لا تقلقي يا حبيبتي!) غير مهمة بالنسبة له، وقد نسيها منذ زمن بعيد (وكان هذا واضحاً من صوته الهادئ)، مع امرأة عاجزة وغير مستقرة («هستيرية! هي التي طردتني يوماً ما...»)، مع من لا تستحق كلمة طيبة («أنتِ الأفضل لدي!»)... وهكذا، حتى تهدأ تلك الأخرى.

وبينما كانت تفكر بهذه الطريقة، لم تلاحظ مارتا كيف ضغطت بحركة آلية على شاشة الهاتف، الذي كان يعزف منذ بضع ثوانٍ مرة أخرى لحناً جميلاً ومقلقاً. فهمت معنى الرسالة الأخيرة بعد أن أغلقت المكالمة بخوف: «لديكِ يوم واحد. وبعدها يمكنكِ الذهاب إلى جنازة والدتكِ. بالمناسبة، ألقي نظرة على الفريزر الذي اشتريناه لها - لقد وعدتها بكعكة...»

يا إلهي! قلبت مارتا الهاتف بسرعة، وفتحت الغطاء الخلفي، وأزالت الشريحة الذهبية الرقيقة بظفرها. في البداية، أرادت أن ترميها من النافذة المفتوحة، ولكن بعد تفكير لحظة، دفعتها إلى أسفل درج الطاولة بجانب السرير. وتنهدت بارتياح: «الآن هذا الجهاز اللعين لن يعزف لي الأداجيو الخاص به بعد الآن! كل شيء انتهى».

يمكنها أن تسترخي ولا تتذكر هذه الحادثة المزعجة مرة أخرى. أما بالنسبة للجهاز الصغير الجميل، فستفعل به لاحقاً ما نصحها به أندريه. على أي حال، لقد منحتها هذه المشكلة فرصة الاتصال به وسماع صوته. ندمت مارتا لأنها، عندما أخبرته عن العثور على الهاتف، لم

تخبره عن التهديدات. ربما كان سيقلق، ويريد المساعدة. لكنه، على الأرجح، كان سينصحها بالذهاب إلى الشرطة. وهذا ما تعرفه دونه. ولن تفعله. فكم من المختلين عقلياً يوجد في العالم؟

هذا لا يخصها!

***

على الرغم من أن الهاتف المحمول لم يصدر صوتاً آخر، إلا أن مارتا لم تستطع النوم في تلك الليلة.

كانت أسئلة مختلفة تخطر في بالها. من هي هذه المرأة، كم عمرها، ولماذا يبحثون عنها بإصرار؟ هل هذه المزاحات ممكنة؟ وماذا لو لم تكن مزحة أو تخويفاً من رجل مهجور، بل شيئاً أخطر بكثير؟ لو أن تلك المرأة الفوضوية لم تفقد الهاتف، لكانت قد فعلت شيئاً لحماية نفسها.

كانت مارتا متأكدة من أن صاحبة الهاتف يمكن العثور عليها بطريقة ما عبر شركة الاتصالات، لكن كيف يتم ذلك؟ هل تتصل بأندريه مرة أخرى؟ هذا سيكون أكثر من اللازم.

هل تذهب إلى الشرطة؟ هل تكتب بلاغاً، وتوضح كيف وأين ولماذا سرقت شيئاً ليس لها؟ ومن سيهتم بمثل هذه التفاهة، في حين أن هناك العديد من الجرائم الحقيقية التي لم يتم حلها؟

مرّ القمر الشاب المسنّن في السماء منذ فترة طويلة، لكن مارتا لم

تستطع أن تغمض عينيها. كانت تعيد شريط اليوم الذي مضى أمام عينيها، بدءاً من اللحظة التي فتحت فيها باب المتجر.

«يا ترى، كيف انتهى المطاف بالهاتف في الفستان الجديد؟»

ربما كانت المرأة مضطربة، منزعجة، وفقدت تركيزها؟ ولكن لماذا تذهب إلى متجر فساتين وهي في مثل هذه الحالة؟

على الرغم من أن كل شيء هنا يبدو واضحاً: لقد قررت أن تبدأ حياة جديدة. غير منطقي، لكنه تصرف أنثوي جداً. فمارتا نفسها، في أول يوم بدون أندريه، فعلت الشيء نفسه: ذهبت أولاً إلى مصفف الشعر، وقصّت شعرها قصيراً، ثم أنفقت بغباء كل أموالها تقريباً على بدلة بنطال عصرية جداً. وما زالت معلقة في خزانة ملابسها، بلا فائدة، ولم ترتدها أبداً. لم ير أندريه أبداً كم كانت مناسبة لها. لكن أندريه، على الرغم من غضبه من قرارها بالانفصال، لم يهددها، ولم يقل أشياء مروعة كهذه!

مرّ قشعريرة على جلدها. «...إذا لم تعودي، ستحصلين على رأس والدتكِ في علبة كعكة...».

هل يمكن لأحد أن يمزح هكذا؟

شعرت مارتا بأسف حاد تجاه المرأة المجهولة. ربما تكون شابة جداً، في مثل عمرها. وبحكم أنها كانت قادرة على زيارة متجر فاخر، فهي غنية. وأيضاً: خصلة الشعر الحمراء الفاتحة. كان يمكن أن تخص أي

شخص، ممن يعانون من مشاكل في الشعر بسبب التوتر، لكن مارتا كانت متأكدة تقريباً أن خصلة الشعر هذه تخص صاحبة الهاتف. وإذا حكمنا من حجم الفستان الذي كانت تقيسه - فالمرأة رقيقة، ونحيفة، وذات ذوق رفيع. أي، مثلها، مثل مارتا؟ أي، هي، مارتا، ليست قبيحة كما تعتقد!

يا للحزن: الفتاة وقعت في ورطة. وربما لا يوجد من يواسيها ويساعدها. والدتها، كما قال الصوت، تعيش في ليسوفي. مكان منعزل...

ربما هربت الفتاة من هناك إلى الحياة «الجميلة». أليس هناك الكثير مثلها في المدينة؟ المدينة تبتلع القرويات مثل «مولك»، ومثل طاحونة لا تعرف الرحمة، تطحن، وتمضغ، وتبصقهن على الطريق الدائري، حيث تتجمع البغايا ليلاً ونهاراً.

ماذا لو لم تكن كل هذه التهديدات مجرد مزحات من مختل نفسي؟

ربما، وهي تختبئ من زوج مستبد، تكون المرأة قد ذهبت إلى مكان بعيد ولا تعرف الخطر الذي يحدق بوالدتها؟

قفزت مارتا من سريرها: لقد اتخذت قرارها! غداً ستذهب إلى ليسوفي! ليس المكان بعيداً، وبالإضافة إلى ذلك، هي في إجازة - لديها وقت. القرية ليست كبيرة، ويجب أن يعرف الناس فيها من هي الفتاة التي ذهبت إلى المدينة ومن الواضح أنها استقرت بشكل جيد - فالناس يعرفون كل شيء.

«سأذهب،» قررت مارتا، «سأتحدث مع تلك المرأة، سأسألها بحذر، وأعرف أين ابنتها، ومع من هي. ربما لا يوجد شيء رهيب - مجرد صراع عائلي عادي. في النهاية، سيكون ضميري مرتاحاً...».

تذكرت الدولارات المائة التي وجدتها، والهاتف، وتنهدت: لا شيء يأتي بهذه السهولة. ولذلك، يجب أن تعوّض القدر على هداياه غير المتوقعة.

آه، يا ليتني لم أجدها.

***

في الصباح، بدا كل شيء مختلفاً، ليس بهذا القدر من السوء.

بينما كانت تصب القهوة، فكرت مارتا فيما إذا كان يستحق الأمر الذهاب إلى قرية ما في مثل هذا اليوم الحار. لقد تراجعت مشاكل الآخرين إلى المرتبة الثانية. ففي النهاية، تُرتكب جريمة كل دقيقة في العالم، ولا أحد يعلم عنها شيئاً.

«واحدة أكثر، أو واحدة أقل...»

لسعة رشفة من القهوة الساخنة أعادت أفكارها في اتجاه آخر. منذ وقت ليس ببعيد، لم تكن تتجاهل أي ظلم. الآن، قسَا قلبها، وتعلّمت «تحمل الصدمة»، ولم يعد يستجيب لأي شيء. حتى المتسولون الذين يمرون في عربات المترو أو يجلسون في الممرات، لم يعودوا يثيرون لديها سوى تعاطف معتدل. تمر بجانبهم، ممسكة بحقيبتها بخجل،

حيث توجد محفظتها، لكنها لا تخرجها أبداً - تتجنبهم، مثل الجميع.

مؤخراً، أثناء انتقالها من الحافلة إلى المترو، سمعت صوتاً رقيقاً: «اشتروا أعواد ثقاب، من فضلكم...» وكادت أن تجري، وهي تلاحظ بطرف عينها جدة صغيرة تحمل في يديها بضع علب من أعواد الثقاب. من يحتاج إلى أعواد الثقاب هذه الأيام؟ مرت مسرعة بجانب الجدة. نظرت إلى الوراء، وربتت على جيوبها... وواصلت الجري. ثم لامت نفسها طوال اليوم، وعادت بذاكرتها إلى ذلك الصوت الطفولي الرقيق...

«لا، يجب أن أذهب على أي حال! ولو لمجرد أن أثبت لنفسي أنني ما زلت قادرة على التعاطف».

وضعت مارتا بسرعة في حقيبتها الضروريات (واصطحبت معها بدلة سباحة تحسباً للطوارئ - «ربما يوجد نهر في القرية؟») وتوجهت إلى محطة الحافلات.

بحلول الساعة العاشرة صباحاً، كانت الحرارة شديدة لدرجة أن الكعب كان ينغرز في الأسفلت الساخن.

كان هناك امرأتان فقط في الطابور لشراء تذاكر إلى ليسوفي، والحافلة ستغادر بعد عشر دقائق.

وجدت مارتا المنصة وشعرت بالرعب: هل ستتحمل ساعتين من السفر في هذه الحافلة المهترئة؟ مثل هذه الحافلات لا تذهب إلا إلى

القرى المهجورة - مغبرة، ضيقة، بمقاعد ممزقة، وكتابات بذيئة على ظهر المقاعد.

في طريقها إلى الحافلة، انضم إليها اثنان أو ثلاثة ركاب آخرين. جلست مارتا في المقعد الخلفي ونظرت من النافذة، وهي تقفز مع كل حفرة، كأنها على أرجوحة.

كانت النساء يتحدثن بصوت عالٍ، ويتبادلن الحديث مع الرجال، وكانت الحافلة تهتز وتقفز مثل لعبة، والطريق يتصاعد منه الغبار الأصفر تحت العجلات.

تذكرت مارتا دون قصد كيف كان الطريق إلى الجبل الأسود في العام الماضي، حيث ذهبت مع أندريه لقضاء العطلة. «يا لها من بلدان غريبة توجد في العالم، وما أروع طرقها!» كانت الحافلة، مثل سفينة بيضاء، تسير بهدوء على الطريق السريع - الذي كان يلتف حول الجبل مثل طريق ثعباني ناعم. لن تنسى مارتا ذلك الطريق أبداً...

رائحة غابة الجبال يمكن مقارنتها فقط برائحة البحر. كانت موجات هواء الصنوبر تدخل النوافذ بشكل دوري، وتنعشها كالمخدرات.

وفي تلك الجبال، وسط جدار كثيف من أشجار الصنوبر الزرقاء والخضراء، كانت أسطح الأكواخ الحمراء النظيفة تبرز مثل الفطر. كانت منتشرة في الوديان والمرتفعات على مسافة كبيرة، وتضيء بدفء مشرق وسط الأدغال الكثيفة.

تمنت مارتا لو أنها توقفت هناك، لتعيش ولو لأسبوع واحد في تلك الجبال، في ذلك الهدوء الرائع وصمت البحر الأخضر.

يا لها من قصة خيالية! في النهار، تستمتع بالهواء، وتزور الأديرة والكنائس التي نُحتت بطريقة سحرية في الصخور، لتندمج بشكل عضوي في المناظر الطبيعية للجبال، وكأنها لم تكن من صنع أيدي البشر. وفي المساء، تخرج إلى الطريق السريع وتذهب إلى المقاهي - النظيفة، ذات التصميم العصري والمطبخ الجيد، حيث يسعد أصحابها حتى بمسافر واحد.

تشرب القهوة أو البيرة وتتأمل ما حولها - مثل هذا الجمال لا يُملَ منه أبداً! تعيش هكذا يوماً بعد يوم ولا تشعر بالملل من الرتابة، لأن الرتابة لا وجود لها في الجبال...

...لم تلاحظ مارتا أنها أصبحت وحدها في الحافلة.

كان الناس ينزلون تدريجياً في محطات قراهم، ولم يكن أحد غيرها متجهاً إلى المحطة النهائية، ليسوفي. كان السائق ينظر من حين لآخر إلى الراكبة الوحيدة، وتبرق أسنانه المعدنية، وشعرت مارتا بعدم الارتياح.

«أين أوقفكِ في ليسوفي؟» صاح بها السائق أخيراً.

«حقاً... أين؟» إلى من هي ذاهبة في الواقع؟

«بجانب متجر القرية،» طلبت مارتا بشكل عشوائي.

كلمة «متجر القرية» خرجت منها بالصدفة - شيء من طفولتها المنسية. لكن الفكرة كانت جيدة: بدلاً من الاستفسار من المنازل عن فتاة ذهبت للعمل أو الدراسة في المدينة ولم تعد، من الأفضل أن تزور المتجر وتفتح حديثاً مع البائعة - خيار مضمون!

دخلت الحافلة القرية.

كانت مارتا تتخيلها بهذا الشكل تقريباً: شرفات ذات انحناءات، منازل صغيرة مائلة، وفي الساحة أمام مكتب البريد المدمر - تمثال مقشر لزعيم ما. كان قد ظلي بطلاء «الفضة» في وقت ما، لكنه الآن يبدو كجسد شبه متعفن - منظر مرعب في الليل بالتأكيد. ولم يكن هناك أي شخص في الشارع.

توقف السائق بجانب المتجر. نزلت مارتا ونظرت حولها. المبنى يشبه السجن أكثر - النوافذ مسيجة، والأبواب المعدنية مغطاة بالصدأ، وعليها لوحتان، يبدو أن البائعة هي التي كتبتهما بنفسها: في الأعلى، بين قوسين: «ماركت»، وفي الأسفل: «مفتوح».

لحسن الحظ، كان المتجر مفتوحاً بالفعل.

أزاحت مارتا الستائر الشاش الصفراء ودخلت.

كانت المرأة الجالسة خلف المنضدة تقلب مجلة عليها قلب وردي ضخم على الغلاف، وتمضغ خيارة. عندما رأت مارتا، ألقت بالخيارة تحت الطاولة، وعدّلت قبعة قماش بيضاء تضيع في كومة شعرها،

ونظرت بفضول إلى الوافدة الجديدة.

حيّت مارتا المرأة.

«من أين أنتِ، وإلى من جئتِ؟» سألت المرأة بلطف ولكن بإصرار، وأدركت مارتا أنها تصرفت بشكل صحيح: لقد وصلت إلى مركز توزيع المعلومات.

«أنا عابرة...» أوضحت بإيجاز، وألقت نظرة على المتجر: معلبات أسماك، أكياس من الحبوب، الدقيق، والسكر، صناديق من البسكويت والحلويات، قدور، أدوات منزلية مختلفة، وفي الزاوية - دلاء، مجارف، ومجارف يدوية.

اشترت مارتا بعض البسكويت والحلويات.

«هل أنتِ من المدينة؟» سألتها البائعة مرة أخرى.

كانت تتوق إلى الحديث، والأكثر من ذلك - لمعرفة من هي هذه السيدة الشابة الجميلة التي جاءت لزيارته.

أومأت مارتا برأسها وقررت أن تبدأ اللعبة.

«لقد جئت ولا أعرف ماذا أفعل...» قالت بصوت حزين، «ربما يمكنكِ مساعدتي...»

تألقت عينا البائعة بفرح، واتكأت بصدرها على المنضدة، ومدّت رقبتها:

«تفضلي، اسمعكِ».

«أنا أبحث عن فتاة شابة، من سكان قريتكم،» بدأت مارتا.

«لم يعد لدينا شباب هنا منذ زمن طويل، لقد تفرقوا جميعاً. ماذا سيفعلون هنا؟» قاطعتها البائعة، «هل أنتِ من الشرطة بالمناسبة؟»

«أنا أعمل في مكتب المدعي العام،» كذبت مارتا فجأة.

خبر زيارة موظفة من مكتب المدعي العام من المدينة ترك انطباعاً كبيراً على البائعة.

«كيف يمكنني أن أساعدكِ؟» سألت بلطف.

«ربما تتذكرين من لديه ابنة من سكان القرية، غادرت إلى المدينة قبل حوالي سنتين أو ثلاث سنوات...»

«أوه، لدينا نصف القرية من هذا النوع!»

«بالإضافة إلى ذلك،» واصلت مارتا، «إنها تقريباً في طولي، وشعرها فاتح اللون...»

«ليونكا!» قاطعتها المرأة بفرح، «بالتأكيد: ليونكا زافاليششينا!»

«...نحيفة،» استمرت مارتا.

لا، ليست ليونكا،» شكت المرأة. «تلك بدينة...»

«وأيضاً، هذه الشابة استقرت بشكل جيد في المدينة».

«أها،» تمتمت البائعة بسخرية. «جميعهن يذهبن للدراسة. ثم يتبين أنهن يمسحن أنوف الأغنياء...»

«...لديها زوج أو خطيب...»

«جميعهن يقلن ذلك...»

عبست المرأة وبدأت تمسح المنضدة بقطعة قماش.

«إنها زويكا فالشينا!» صاح صوت امرأة أخرى فجأة فوق رأسها مباشرة.

لم تلحظ مارتا ولا البائعة دخول زبونة أخرى إلى المتجر، وقد تمكنت بالفعل من وضع ستة أرغفة خبز في سلتها، وكانت الآن تستمع بفضول إلى الحديث.

«زويكا بالتأكيد!» واصلت المرأة. «ذهبت العام الماضي لتقديم طلب للالتحاق بالمعهد. وفي الربيع، أحضرت لوالدتها ميكروويفاً، وسترة جديدة - تركية... واشترت ثلاجة جديدة. يا ترى، كم تدفع الطالبات من الأموال مقابل ذلك؟!»

«صحيح، إنها زويكا...» وافقت البائعة. «إنها جميلة ونحيفة. وقالت فالكا أيضاً إن لديها خطيباً غنياً...»

«نعم...» زمّت المرأة التي تحمل الخبز شفتيها. «كانت تواعد سيرجي الخاص بنا. بالمناسبة، هو الذي ساعدها على الاستقرار في المدينة.

والآن وجدت آخر، أغنى. حسناً، إنها شاطرة، ليست مثلنا في الماضي. أول من يحاصرك في الزاوية - وها أنتِ أصبحتِ عروساً».

«ومن هو سيرجي هذا؟» قاطعتها مارتا، وهي تشعر أنها عثرت على ما كانت تبحث عنه.

«إنه فتى من قريتنا. كان يلاحق زويكا منذ أيام الدراسة. ثم انتقل إلى المدينة. وماذا في ذلك؟ يداه من ذهب! يعمل في شركة ما تقوم بتركيب تلك النوافذ العصرية - «الزجاج المزدوج». وذهبت هي كأنها لتكون معه...»

«لكن فالكا قالت إنها ذهبت للاختبارات!» لاحظت البائعة.

«هذا ما قالته لكِ... باختصار، إنها زويكا بالتأكيد. ليس لدينا أي شخص آخر يحضر مثل هذه الهدايا. يأتون فقط من أجل البطاطس واللحم! لكن زويكا كانت دائماً ما تحضر شيئاً لوالدتها - مرة إبريق شاي كهربائي، ومرة صبغة شعر. فتاة مهذبة».

«اتركيها! مايا الخاصة بي، ربما ليست بهذه الأناقة، لكنها متزوجة على الأقل،» عبست البائعة. «أما هذه، فمن يدري ما تفعله في المدينة...»

«وهل يمكنكِ أن تخبريني بشيء آخر: لقب هذا سيرجي وأين يعمل بالضبط؟» كانت مارتا فخورة بقدراتها على البحث.

إذا علمت شيئاً عن الشاب، فربما يمكنها العثور عليه في المدينة

ومعرفة ما إذا كانت صاحبة الهاتف تختبئ منه.

أخبرتها كلتا المرأتين بكل ما تعرفان عن طيب خاطر. على الأقل، لقبه. ثم، بعد جدال قصير، تذكرتا اسم الشركة التي كان والدا سيرجي يتباهيان بها مراراً وتكراراً أمام أهل القرية.

«لقد ركّب لهم أيضاً نوافذ كهذه! ولرئيس مجلس القرية!»

«ليس للرئيس، بل لمدير المدرسة!»

«أنا أقول لكِ إنه الرئيس!»

«بل افتحي عينيكِ! إنه المدير!! وأيضاً...»

بدأتا بمناقشة الجيران بحماس، أما مارتا، بعد أن عرفت مكان سكن والدة الفتاة، خرجت من المتجر مسرعة.

كانت فالنتينا ميكولاييفنا، التي وجهت النساء مارتا إليها، تعيش في منزل صغير نظيف بالقرب من أنقاض مكتبة القرية.

لاحظت مارتا على الفور في الفناء امرأة قصيرة ونحيلة كانت واقفة على أصابع قدميها وتدهن إطار النافذة باللون الأبيض.

«هل يمكنني الدخول؟» صاحت عبر السياج، وهي تخشى أن يهاجمها كلب.

لكن لم يكن هناك أي حيوانات في الفناء. فقط بضع دجاجات تتجمع في الحديقة.

استدارت المرأة. كان وجهها ضيقاً وجميلاً، وعيناها كبيرتان وفاتحتان... ابتسمت بلطف وأسرعت لفتح البوابة المنحرفة.

«تفضلي،» قالت، وقبل أن تطرح مارتا أي سؤال، نظرت إليها بانتباه. «هل أنتِ من طرف زويا؟»

«في الواقع، أود أن أتحدث عنها بالذات،» أجابت مارتا، وهي تلاحظ كيف توتر وجه فالنتينا ميكولاييفنا.

خلعت المرأة مئزرها، ومسحت يديها به، ودعت مارتا للجلوس على طاولة موضوعة تحت شجرة كرز قديمة ممتدة.

«استريحي من الطريق،» دعتها، «سأحضر لكِ عصيراً الآن. لدي عصير رائع. منزلي. كما يقولون الآن - بدون كائنات معدلة وراثياً».

كان سطح الطاولة الخشبي مليئاً بحبات الكرز الأسود الناضجة، وكانت الحديقة ترن بزقزقة الطيور وحفيف الأوراق. من حين لآخر، كان هذا التنفس الحي للحديقة ينقطع بصوت سقوط ثمرة من شجرة ما، ويسود الصمت للحظة. كانت أشعة الشمس تخترق تيجان الأشجار مثل القش، وتنزل إلى الأرض، وتشكل شبكة ذهبية عليها. كان يمكن تذوق الهواء الحلو، بمجرد إخراج اللسان. كادت مارتا أن تفعل ذلك، وابتسمت.

«مما يهربون إلى المدن؟» فكرت. «لماذا لا يبقون في مثل هذه الحديقة؟ لماذا يسمحون للمكتبات والنوادي التي كانوا يرتادونها في

شبابهم بالاندثار، لماذا لا ينجبون الأطفال هنا - وسط الهدوء والصمت؟ يذهبون وراء الأوهام بدلاً من أن يخلقوا ظروفاً لأنفسهم هنا، في هذا النعيم المريح».

أحضرت فالنتينا وعاءً من العصير الأحمر.

وبينما كانت مارتا تستمتع بالشراب البارد، ظلت المرأة صامتة، كأنها تخشى أن تسمع شيئاً سيئاً.

أخيراً، تجرأت.

«لم تصلني أي أخبار من زويا منذ وقت طويل. كانت تتصل بي دائماً مرة واحدة في الأسبوع...» قالت فالنتينا بهدوء، ونظرت إلى مارتا باستفهام. «هل أنتِ صديقتها؟ هل حدث شيء ما؟»

«أنا شخصياً لا أعرف ابنتكِ...» تمتمت مارتا، وهي تفكر في كيفية مواصلة المحادثة.

«إذاً لماذا جئتِ؟» سألت المرأة بصراحة.

ارتبكت مارتا للحظة.

«أنا أدرس في نفس الجامعة مع ابنتكِ،» قالت مارتا بأكبر قدر ممكن من الثقة. «وقد طلبت مني مشرفة المجموعة أن أزوركِ. زويا ضرورية لها لأمر ما. لذا اعتقدت أنها في المنزل، عندكِ. أو أنكِ تعرفين أين يمكن أن تكون...»

شعرت مارتا أن كلامها البائس لا يتوافق، لكنها قررت ألا تزعج المرأة بما تعرفه، وحاولت اختلاق صورة أكثر واقعية.

«كنت أعرف ذلك!» صاحت المرأة، وصفقت يديها. «شعرت أنها ستحسد! لقد سارت الأمور على ما يرام، لدرجة أنني لم أصدق!»

هزت المرأة رأسها، وأزاحت حبات الكرز الناضجة والمهروسة عن الطاولة بحركة آلية، وتحدثت وهي تلوح بيديها بعصبية:

«لقد دخلت الجامعة العام الماضي - إنها تلميذة مجتهدة. قالت إنها تواعد سيرجي الخاص بنا، وهو يساعدها. لديه بالفعل شقة في العاصمة. وكأنهم كانوا يتحدثون عن الزواج. ثم قبل حوالي ثلاثة أشهر، جاءت سعيدة جداً، وقالت: «أمي، لا تقلقي ولا تحكمي علي - سأتزوج. ولكن ليس من سيرجي!» وقالت إنها التقت برجل لا يوجد مثله في العالم: ذكي، لطيف، لديه عمله الخاص، ويحبها لدرجة أنه لا يرى أحداً سواها. أحضرت في ذلك الوقت هدايا لم أرَ مثلها في حياتي. وكانت هي نفسها جميلة جداً - ملابسها تشبه التي في المجلات. عرضت عليّ الخاتم الذي اشتراه لها - رائع، مع ماسة حقيقية! اتصلت به أمامي. وهل تعلمين، لقد تحدثا بشكل جميل، مثل الملائكة! لم أسمع شيئاً كهذا أبداً. أنا وزوجي، رحمه الله، لم نقول مثل هذه الكلمات طوال حياتنا. في ذلك الوقت شعرت بالراحة والهدوء. إنها ابنتي الوحيدة! فتاة ذكية، مجتهدة، وطيبة. لماذا لا تُحب؟ ثم عندما غادرت، لم يأتِ منها أي خبر. اتصلت بها في السكن الجامعي، وقالت جاراتها إنها انتقلت للعيش مع خطيبها. ولم تظهر في الجامعة.

لقد كنت قلقة جداً في ذلك الوقت! ماذا عن الزفاف؟»

«وهل تعرفين أين يعيش هذا الخطيب؟»

«هذا هو مربط الفرس، لا أعرف. فكرت في الذهاب إلى كييف، إلى السكن الجامعي، لكن صديقاتها قلن إنهن لا يملكن العنوان. وأنها لا تذهب إلى الجامعة الآن، كأنها قالت إن لديها الآن هدفاً مختلفاً تماماً».

«ولم تتصلي بأي شخص؟ بالشرطة مثلاً؟» هزت مارتا كتفيها.

«أن أبحث عن العروسين بالشرطة؟! يا له من عار! قالت زويا إن خطيبها له منصب رفيع وسمعة. سأنتظر بضعة أيام أخرى، وربما أذهب،» أمسكت المرأة بيد مارتا بيأس. «وهل تعلمين؟ ماذا لو لم تسِر الأمور بينهما، وهي خجلة من أن تقول... إنها فخورة جداً. لكن... لكن يمكنها أن تقول ذلك لأمها، أليس كذلك؟»

«حسناً، كل شيء ممكن - الأوقات صعبة،» بدأت مارتا بالتهرب، وهي تتذكر بخوف التهديدات من الهاتف. «إذا كان خطيبها في منصب رفيع، ربما وقع في ورطة ما. ربما العروسان مضطران للاختباء...»

كان هذا مبالغاً فيه! لكن مارتا ببساطة لم تعرف كيف تنتقل إلى الموضوع الذي جاءت من أجله. لم تكن لديها أي مهارات، وبالتأكيد لم يكن من الممكن أن تكون لديها.

«يا إلهي!» صرخت فالنتينا ميكولاييفنا، وصفقت يديها. «كنت أعرف دائماً: المال الكثير - مشاكل كبيرة! ماذا نفعل الآن؟ لماذا لم يأتوا إلي؟»

«هذا هو بالضبط!» ابتهجت مارتا بهذا المنعطف. «لا يمكنهم القدوم إليكِ، لأنه من السهل معرفة مكان إقامة العروس. وزويا بالتأكيد لا تريد أن تشركِ في هذه الأمور. ولكن إذا كان هذا هو الحال حقاً، فعليكِ أيضاً أن تكوني حذرة».

نظرت المرأة إلى مارتا بدهشة.

«هل تقولين الحقيقة، يا صغيرتي؟ ومن أنتِ في الواقع؟»

اضطرت مارتا إلى بذل جهد كبير لتحمل نظرتها القلقة والمفحصة.

لكن لا يستحق الأمر أن تخبر المرأة عن الهاتف الذي وجدته، ولا عن التهديدات، ولا عن نفسها - فوالدة زويا ستذهب على الفور إلى الشرطة. أما قصة رجل الأعمال الذي يطارده دائنوه أو منافسوه، فستبدو لها أكثر وضوحاً وأقل رعباً. على الرغم من أنها أيضاً ليست شيئاً لطيفاً.

«أنا في الواقع لا شيء،» قالت مارتا بغضب. «قلت لكِ بالفعل إنني هنا عابرة في مهمة من إدارة الجامعة. وكما ترين، وجدتُكِ بسرعة. الآخرون أيضاً سيجدونكِ».

«حسناً، بالطبع سيجدونكِ،» فكرت مارتا، إذا اعتبرنا أن الصوت في الهاتف كان يتحدث عن ليسوفي. ولكن كيف ستشرح لماذا سيبحث عنها أولئك «الآخرون»؟ حسناً، على سبيل المثال، لقطع رأسها وإخفائه في الفريزر؟ يا لها من نكتة ذكية!

فجأة، شعرت مارتا بالملل و... بالضحك.

للمرة الألف، بدت الرحلة في هذا الحر الشديد إلى مكان مجهول وإلى شخص مجهول هراءً تاماً، والمحادثة، على ما يبدو، وصلت إلى طريق مسدود: إما أن تقول كل شيء كما هو، أو أن تغطي الزيارة السخيفة بالكذب بالكامل. أو ببساطة أن تنهض، وتشكرها على العصير، وتذهب بسلام.

نفضت مارتا ببطء نحلة نائمة وكسولة بنفس القدر عن كتفها، وشربت بقية العصير.

«ما نوع الهدايا التي كانت زويا تحضرها لكِ؟» سألت فقط لكسر الصمت. وابتسمت، وهي تتذكر التهديد من الهاتف - الغبي والسخيف.

«أشياء مختلفة،» هزت فالنتينا كتفيها. «عطور. ملابس. في المرة الأخيرة - أحضروا لي ثلاجة عن طريق البريد السريع. لقد خفت! شيء باهظ الثمن كهذا! وقيل لي إن كل شيء مدفوع. كانت زويتشكا سعيدة جداً في ذلك الوقت لأنها هي وحبيبها قدما لي هذه المفاجأة».

تنهدت فالنتينا: «لقد جمَدتُ فيها لحماً للزفاف... إنها ضخمة، ذات بابين. جاء الجيران ليروها. لقد أصابوا زويا بالحسد، أصحاب الألسنة السوداء!»

ارتعشت مارتا: إذن، قصة الثلاجة حقيقية. يجب أن تستمر في الحديث.

«يا سيدة فالنتينا، أنتِ تعيشين هنا في الطبيعة ولا تتخيلين ما يحدث في المدينة! لا يمكنكِ رؤية مثل هذا إلا في المسلسلات التلفزيونية!»

«وماذا أفعل الآن؟» سألت المرأة بخوف.

«أنصحكِ بالذهاب إلى مكان ما، لمدة أسبوع أو أسبوعين. وسأبلغ عن هذه الزيارة في الجامعة، وسأذهب لزيارة الفتيات في السكن الجامعي. سأحاول أن أكتشف كل شيء بنفسي،» قالت مارتا، «سأحاول حل المشكلة. بالمناسبة، هل لديكِ مكان تذهبين إليه؟»

«كنت أنوي الذهاب إلى أختي. لكن في وقت لاحق...» أجابت المرأة في حيرة.

«أوه، يا له من أمر جيد. اذهبي الآن. دعيني أساعدكِ في التجهيز».

«لا أعرف...» ترددت المرأة. «الأمر مفاجئ جداً...»

«كل شيء مفاجئ هذه الأيام،» قالت مارتا بأسلوب بليغ.

شعرت وكأنها تلعب «المحقق» كما كانت تفعل في طفولتها. لكن الهدف قد تحقق. أومأت والدة زويا برأسها.

«يبدو أنه سيتعين عليّ الذهاب،» قالت، «لا أعرف ما الذي تخططه زويا، لكنني لست عدوتها».

«هذا جيد إذاً،» تنهدت مارتا بارتياح. «سيكون الأمر أكثر هدوءاً.

وأعتقد أن خطيب ابنتكِ سيكون ممتناً لكِ. وامتنان صهركِ شيء مهم للعلاقات المستقبلية».

كان هذا الحجة مقنعة أيضاً.

***

عادت مارتا إلى المدينة وهي راضية.

راضية، أولاً وقبل كل شيء، لأنها تمكنت، كما بدت لها، من إجراء المحادثة بذكاء، كمحققة حقيقية.

بالإضافة إلى أنها تمكنت من انتزاع صورة الفتاة من ألبوم المدرسة من السيدة فالنتينا. لقد أصبحت صاحبة الهاتف ذات ملامح واضحة.

عندما كانت تتأمل الصورة في الحافلة، فهمت الرجل الذي هُجر: كانت الفتاة جميلة. بل وأجمل من اللازم. لكنها كانت أيضاً نمطية جداً، يمكن وصفها بكلمتين تثيران خيال الفتيات الصغيرات - «مظهر عارضة أزياء». قالب مثالي، معيار إلهي. الشيء الوحيد الذي أسعد مارتا هو أن مقاس ملابسها كان نفس مقاس الفتاة، وبالتالي... أخفت مارتا الصورة في جيبها بخجل وحدقت من النافذة. كان الطريق السريع يمتد عبر حقول عباد الشمس حتى الأفق، وكان السفر لا يزال طويلاً. لديها وقت للتفكير. لكن ليس عن الفتاة.

بتحليل محادثتها العفوية مع المرأة الغريبة، أدركت مارتا جيداً أن كل حججها كانت ضعيفة. لم تهتم المرأة حتى بطلب جواز سفرها أو

بطاقتها الجامعية. كان يكفي أن تقول إنها من المدينة، وأنها تدرس في نفس جامعة زويا، حتى تصدقها المرأة. وبالتالي، غداً (إذا لم تغادر القرية كما وعدت بالطبع)، قد يأتيها ضيف مختلف تماماً، ومن يدري ما إذا كان سيفي بتهديداته.

«الناس البسطاء يثقون»، قال لها أندريه ذات مرة. في ذلك الوقت، تمردت على هذا التعريف - «بسطاء»، لأنها اعتبرت نفسها عادية، وبالتالي - بسيطة.

وبالتالي - غير مثيرة للاهتمام بالنسبة لأندريه. «بأيدي الأشخاص البسطاء والطيبين تُرتكب معظم الأفعال الخاطئة على هذه الأرض،» أضاف حينها. «منذ أن ألقت بعض ‹الساذجة المقدسة› الحطب على محرقة جيوردانو برونو. لم يكن في هذه الحركة لا خبث ولا كراهية ولا دوافع أخرى - فقط الحطب لم يكن يحترق جيداً. وهذا كان أمراً غير لائق. والأشخاص البسطاء لا يمكنهم رؤية فوضى، لأنهم اعتادوا العيش وفقاً للقواعد...».

مرة أخرى، ظهر هذا التعريف البغيض - «مثل الجميع»!

ارتعشت مارتا.

فعلاً، كلما كان الشخص أقل تطلباً وأبسط، كان من الأسهل عليه أن يصدق الوعود التي تحمل الخير. وهذا يعني أنه يعتمد على قرارات الآخرين.

كان السائق نفسه يلمع لها مرة أخرى بصفيه من الأسنان الذهبية، ويغمز، ويلقي نظرة على ساقيها وخط عنقها. إنه أيضاً شخص بسيط: يأكل، يشرب، يكسب المال. لشراء زجاجة؟ لرحلة إلى البحر؟ لثلاجة جديدة؟ «إإإ...» لم تفهم مارتا سبب هذا الاشمئزاز. هل كان ذلك بسبب الحرارة، أو الطريق، أو مظهر القرية الفقيرة، أم بسبب استحواذها على هاتف شخص آخر.

عادت الشكوك لتعذبها: لماذا كل هذه المتاعب؟ هل يستحق الأمر الاستمرار؟ شعرت بالأسف على الفتاة. أين هي الآن؟ ما هي قصة الخطيبين - الأول والثاني؟

كانت تتوق للحصول على إجابات على هذه الأسئلة.

***

وصلت إلى المنزل في المساء وقررت أن تبدأ البحث عن سيرجي في صباح اليوم التالي. من المؤكد أنه يعرف شيئاً عن صديقته السابقة. فجأة خطرت لها فكرة: «هل هو من يتصل بها؟» إذا كان هو، فإن كل شيء منطقي. يجب أن تجده وتخبر الشرطة.

لم يكن في الثلاجة شيء سوى الحليب. سكبت مارتا كوباً كاملاً، وفتحت وعاءً من المربى، ووجدت قطعة من الخبز القديم. أكلت في صمت - حتى أنها لم تشغل التلفزيون كالعادة. رأت نفسها وكأنها من الخارج: كم هي مؤثرة. تجلس وحيدة، تمضغ الخبز بالمربى، مثل طفولتها، وتشرب حليباً بارداً...

شابة، جميلة، و... تعيسة. ربما تجلس زويا في مكان ما بنفس الطريقة، غير مدركة أن هناك فتاة أخرى في هذا العالم الكبير، تشبهها قليلاً، تفكر فيها، خاصة وأنهما أحبتا نفس الفستان.

تأثرت مارتا.

في الآونة الأخيرة، مهما حدث، كانت عيناها تغرقان في الدموع.

في الواقع، كانت دائماً ما تشعر بأسف كبير تجاه الجميع. لم تستطع النظر بهدوء إلى الجدات اللاتي يجلسن على المقاعد أمام مدخل عمارتها - جميعهن يرتدين أوشحة بيضاء متطابقة، ويحملن عصي متشابهة في أيديهن. كن يخرجن في المساء وينظرن إلى العالم بأعينهن الفاتحة، التي تشبه عيون الأطفال. كن يشعرن وكأنهن كائنات فضائية. أصبحت الحياة غير مفهومة، غريبة، معادية، وغير مبالية بمتطلباتهن وكلماتهن وذكرياتهن.

حتى الشابات اللواتي يمررن بهن وهن يحملن سلالاً ثقيلة، بدت لمارتا ككائنات فضائية - يعشن في بدلاتهن الفضائية دون أي نسمة هواء منعش: عمل - منزل. وجوههن دائماً مركزة، كأنهن يقررن مصير العالم، بينما في الواقع - هن يفكرن فقط فيما سيحضرن للعشاء.

مارتا مثلهم تماماً: تجلس في المطبخ دون إضاءة، تشرب الحليب مع المربى، ولا أحد يمسح على رأسها. الجميع يظن أنها ذكية، بالغة، مستقلة ولا تحتاج على الإطلاق إلى هذه اللفتة الدافئة والمؤثرة.

حتى والدتها لم تفعل ذلك، لأن طريقها، مثل أي شخص آخر، كان هو نفسه - «عمل-منزل».

وأفكار العشاء...

«على أي حال، يجب أن أجد زويا. ربما هي الآن في حالة أسوأ مما هي عليه مارتا. يجب أن أشرح لها أن الحياة لا تنتهي بانتهاء العلاقة، أياً كانت، وإذا كان شخص ما يستطيع أن يقول مثل هذه الكلمات الفظة لامرأة يحبها، فلا يجب أن تخاف. ولا يجب أن تهرب. من يهرب، يتوقع أن يتم القبض عليه. هذا أمر بديهي! فقط انظر إلى أي فيلم رعب: الضحايا دائماً يهربون - على الشاشة يبدو الأمر مرعباً: يركضون عبر الغابة، ويصطدمون بالأشجار، يرتجفون من الخوف، ويستمعون إلى الخطوات خلف ظهورهم. وكل شيء ينتهي بدراما دموية. لكن هذا في الأفلام. كانت مارتا دائماً تتخيل كيف تتوقف الضحية، وتلتقط عصا من الأرض، وتستدير لتواجه المهاجم و... تبدأ الهجوم بنفسها.

خدعة جيدة، والأهم من ذلك - غير متوقعة. ولحظة المفاجأة تعطي دائماً فرصة للإنقاذ. أو على الأقل للموت بكرامة.

«إذن، سأهاجم،» قررت مارتا...

***

في الصباح، اتصلت بشركة «كومفورت».

كانت محظوظة من المرة الأولى! اتضح أن سيرجي يعمل هناك

بالفعل، وأنه في مكانه ويمكنه التحدث في الهاتف.

«ألو،» سمعت من الهاتف، وشدّت أعصابها لتحاول أن تتذكر ما إذا كان هذا هو الصوت الذي سمعته على الهاتف المحمول...

ماذا الآن؟ قررت ألا تتحدث كثيراً، فقط عرفت نفسها بأنها صديقة لزويا واقترحت أن يلتقيا بعد يوم العمل في مقهى قريب من ميدان الاستقلال.

«لماذا؟» سأل المتصل بشك.

«لم أرها منذ وقت طويل وأنا قلقة...» بدأت مارتا بالشرح.

«أنا أيضاً لم أرها منذ وقت طويل. و... لست قلقاً،» أجاب سيرجي بحدة.

«هل ترفض مقابلتي؟» قررت مارتا أن تغازل قليلاً.

صمت الهاتف.

«حسناً،» وافق الشاب أخيراً. «سأكون هناك في تمام الساعة السابعة. كيف سأتعرف عليكِ؟»

«سأرتدي الأحمر،» قالت مارتا بسعادة. «وسأضع مجلة مصورة على الطاولة.»

في المساء، قبل الموعد المحدد ببضع دقائق، جلست مارتا على طاولة في مقهى «المدينة القديمة».

كانت تشرب القهوة وتراقب كل من يدخل المكان. كان مزاجها جيداً. فكرت في أن مغامرة الهاتف قد غيّرت حياتها بطريقة ما، ومنحت معنى للأمسيات الصيفية الطويلة والحارة، بل وحتى أنها سلّتها.

لولا هذه الصدفة، لكانت تجلس الآن بين أربعة جدران، تطحن الذكريات. ولو تجرأت على الجلوس في مطعم وحدها، لكانت شعرت بعدم الارتياح. لكن الآن لديها هدف، ولو كان صغيراً.

«يا ترى، كيف يبدو هذا سيرجي؟» إذا كنتُ قد بدأت ألعب دور «المحقق»، سأحاول أن أخمن،» قررت. من الشرفة المفتوحة للمقهى، كان يمكنها أن ترى بوضوح المارة الذين يمرون بجانب السياج - أي منهم سيدخل البوابة المغطاة بالخضرة الاصطناعية؟

ها هو شاب قادم، يحمل ملفاً في يده، ولا يزعجه معطفه الداكن وربطة عنقه في هذا الحر. مرّ. ليس هو.

ها هو شاب يرتدي الجينز، يسير بسرعة نحو المقهى، وينظر إلى ساعته. لا: عند الزاوية، التقى بفتاة تقول له شيئاً بوجه مستاء. ربما تأخر عن الموعد.

وها هو نوع آخر من الشباب، «أكثر قرباً»: لا يشبه «رجل الأعمال» المنشغل، وليس فيه أي من عدم يقين الشباب، يسير ببطء، مع شعور بكرامته. لكنه أيضاً يمر.

نظرت مارتا إلى ساعتها - سبع ودقائق...

«ربما أنا أضيع وقتي؟» تجلس كالعنكبوت، وتقيّم الرجال. وتجد نفسها تفكر في أنها... تختار.

«نعم، نعم، عزيزتي! لا داعي للاختباء بخجل من نفسكِ - فهناك فكرة تدور في اللاوعي: هل لن ألتقي أبداً بشخص يمكنني أن أقع في حبه بشدة؟»

لكن لا يجب أن تختاري رجلاً في مقهى!

نظرت مارتا إلى ساعتها مرة أخرى وأدارت رأسها، لترى ما إذا كان هناك مخرج آخر. وقع بصرها على نظرة منتبهة من رجل كان يجلس في الزاوية البعيدة، ويحتسي البيرة من كأس طويل. عدّلت شعرها دون قصد.

بدا أنه في السابعة والعشرين من عمره. أسود الشعر، مع عينين غريبتين - بزوايا خارجية متجهة للأسفل. وهذا أعطى وجهه سحراً خاصاً ورقّة طفولية. عيون جميلة - «عيون فرعونية».

على الأقل، إذا لم يحدث موعدها، فكرت مارتا، سيتجرأ هذا الرجل على الاقتراب، لأنه، من نظراته، من الواضح أنه يراقبها.

نظرت مارتا إلى ساعتها بعصبية مرة أخرى: «يا ليتك لا تأتي!»

في هذه الأثناء، أنهى الرجل ذو «العيون الفرعونية» البيرة واتجه نحو طاولتها بقرار حاسم.

«هل يمكنني؟» سأل، مشيراً بعينيه (يا له من جمال!) إلى الكرسي

الفارغ.

هزت مارتا كتفيها:

«في الواقع، لدي موعد هنا...»

هكذا يحدث دائماً: في البداية لا يوجد أحد، ثم يأتون في مجموعات ولا تعرف أين ستجد ما تبحث عنه، وأين ستخسره.

ابتسم الرجل، وجلس مقابلها:

«موعدكِ معي،» قال. «أنا سيرجي!»

«لماذا لم تأتِ على الفور؟»

«كنت أدرسكِ...»

«أهكذا؟ وما هي النتائج؟»

«غير مرضية لكِ: أنا لا أعرفكِ».

«وهل كنت تعرف كل معارف زويا؟»

«لم يكن لديها الكثير، لم يكن لديها وقت...»

«لكنها تمكنت من إيجاد شخص آخر، على أي حال...»

عبس.

«ماذا تريدين مني؟ وماذا أردتِ أن تعرفي؟»

لم تسر المحادثة كما أرادت مارتا. قررت ألا تخترع شيئاً، وأن تحكي كل شيء كما هو، بدءاً من اللحظة التي قررت فيها قياس الفستان.

لم يبدُ عليه أنه مندهش جداً.

«بصراحة، أود أن أنسى فشلي. أي رجل يسعده أن يتذكر مثل هذه الأشياء؟ لا أستطيع أن أقول أي شيء عن زويا. لا أعرف أين هي. وبالمناسبة، لا أريد أن أعرف! أعتقد أنه يجب ببساطة العثور على ذلك المزاح والاعتداء عليه!»

«ومن سيفعل ذلك؟ أنا؟ لم أذهب إلى دورات الكاراتيه...» ابتسمت مارتا. «وبشكل عام: أنت تدهشني. صديقتك السابقة في موقف غير سار. وليس لديك أي رغبة في المساعدة. ماذا لو كانت حقاً مطاردة؟! هل أنت غير مبالٍ؟»

«لا تبالغي. لقد اتخذت قرارها. لا أريد البحث عنها على الإطلاق. ستجد نفسها. أما فيما يتعلق بذلك المجنون... فربما أهتم به. فقط لأقوم بتمرين عضلاتي...»

«إذن أنت توافق على مساعدتي؟»

نظر إليها بانتباه.

«هل يمكنني أن أعرف - لماذا هذا مهم بالنسبة لكِ؟»

فكرت مارتا.

كيف تشرح أنها بدلاً من أن تسعد بالعثور على الهاتف واستخدامه لاحقاً، بدأت تحقيقاً هواة؟

«لا أعرف بنفسي،» اعترفت بصدق. «ربما أنا مخطئة، لكنني شعرت أن ذلك الرجل لا يمزح. هناك شيء آخر هنا. ولكن حتى لو كان مجرد صراع عائلي عادي، فأنا لست غير مبالية أيضاً. في حياتي، واجهت مشكلة العنف الأسري عدة مرات. أنا أكره الظلم بشكل عام! كان بإمكاني ببساطة مساعدة زويا، إذا كانت خائفة. مساعدتها على التغلب على الخوف».

«يجب أن نبحث، مع ذلك، ليس عنها،» قال سيرجي مرة أخرى، «بل عنه! عن الشخص الذي يمارس العدوان».

«وماذا تعرف عنه؟»

«قليل جداً».

«وماذا بالضبط؟»

ضحك.

«أنتِ ساحرة - أنا أبدأ في المساعدة دون وعي. على الرغم من أنني، بصراحة، لا أحب ألعاب التحري».

«ومع ذلك؟» حثته. «أخبرني!»

نظر إليها بسخرية:

«كان يوماً مشمساً وواضحاً. كانت الطيور تغني...»

صمت، ثم مسح الابتسامة عن وجهه على الفور، وتحدث بحدة، واصفاً الحقائق.

«كنا نتقابل. نتقابل منذ فترة طويلة، هناك، في ليسوفي. انتظرتني حتى أعود من الجيش. جئت إلى المدينة لأبدأ حياة جديدة - معاً. التحقت بالجامعة، وسكنت في السكن الجامعي. على الرغم من أنني، الغبي، كنت آمل أن نعيش في الشقة التي استأجرتها. لكنها بقيت في السكن الجامعي. ربما كان لديها خططها الخاصة. هل تفهمين، المدينة تحوّل الفتيات اللواتي لم يرين سلماً كهربائياً أبداً إلى صيّادات مجنونات للطائر الأزرق. حسناً... كان اليوم حقاً مشمساً وواضحاً، عندما قالت: «وداعاً يا عزيزي، لقد وقعت في حب شخص آخر!»

تجهم، كأن ألماً مفاجئاً في الأسنان قد أصابه.

«هل رأيته؟»

«لا. لقد جعلت من كل شيء سراً كبيراً. قالت إنها التقت به بالصدفة. دعاها إلى مقهى. وذابت الفتاة. كأنني لم آخذها أبداً إلى المقاهي! قالت عنه فقط إنه «رجل حقيقي».»

ابتسم سيرجي مرة أخرى بسخرية.

«هذه ‹الرجولة الحقيقية› تتلخص في أنه يملك عمله الخاص، ولديه سيارة، ويغمرها بالزهور يومياً. هذا هو كل شيء. ما رأيكِ في هذا

الوصف ‹للرجل الحقيقي›؟»

«بصراحة، إنه ملهم...» ابتسمت مارتا. «وهذا كل ما تعرفه عنه؟»

«أنا لست مهتماً بمعرفة المزيد عنه...» أجاب بغطرسة.

«لكنك توافق على مساعدتي؟»

نظر إليها بانتباه.

«سأفكر في الأمر...»

«سأترك لكَ رقم هاتفي،» قالت مارتا. «ربما تتذكر شيئاً - اتصل بي. ربما أخبرت زويا بشيء آخر. ما نوع سيارتها؟ إلى أين كانوا يذهبون في أغلب الأحيان؟ أين كانوا يخططون للعيش؟»

«هذا كثير جداً! هل تعتقدين أنني مازوخي لأستمع إلى مثل هذه الصراحة من امرأة تركتني؟»

«ومع ذلك، فكر في الأمر. هذه المكالمات لا تغادر رأسي،» تنهدت مارتا. «كان فيها شيء خطير، لا يشبه المزاح».

«حسناً. والآن، اسمحي لي أن أطلب لنا كأسين من النبيذ. ونتحدث عن شيء أكثر متعة».

بقيا في المقهى حتى وقت متأخر من الليل.

وكما طلب سيرجي، لم يتحدثا مرة أخرى عن حبه التعيس.

بعد ذلك، رافق سيرجي مارتا إلى المترو ووعد بالاتصال بها.

منذ ثلاث سنوات

كانت الفتاة تقف عند تقاطع طرق.

لا، لم تكن تنوي عبور الشارع - كانت فقط تقف وتنظر إلى تدفق السيارات.

كانت تقرر ما الذي ستفعله.

يمكنها أن تتجول في المدينة، تشتري آيس كريم، تجلس على مقعد في مكان ما، وتراقب المارة. يمكنها أن تذهب إلى السينما. لكن التذاكر باهظة الثمن هذه الأيام!

من الأفضل أن تتجول وتنظر إلى واجهات المحلات. إنها أنيقة جداً في وسط المدينة! يمكنها أن تتخيل أنها يوماً ما ستتمكن من دخول المتجر الذي تحلم به وشراء كل ما تريده. أما الآن، فهي لا تستطيع سوى شراء زر واحد من فستان معروض على عارضة أزياء خلف زجاج داكن.

«هل حقاً توجد نساء يمكنهن أن يزرن هذا المكان ويشترين فستاناً كهذا؟» سيكون من المثير للاهتمام رؤيتهن عن قرب، وليس فقط على التلفزيون. كيف هي حياتهن؟ ولماذا لا تستطيع هي، طالبة في كلية «العرائس» - كلية فقه اللغة - أن تدخل هنا الآن بسهولة؟ وإذا كانت صريحة، فمن العبث أن تأمل في ذلك، حتى لو عملت بجد كالجاموس.

رأت الفتاة انعكاسها في واجهة المحل وفجأة فكرت أنها ليست أسوأ

من عميلات البوتيك الفاخر. وربما تكون أفضل بكثير، وحقيقة أنها أكثر ذكاءً - هي حقيقة! ستحصل على «شهادة حمراء»، ويمكنها التحدث باللغة الإنجليزية بشكل جيد جداً. ولكن ما هي النتيجة؟ ما هي الآفاق؟ العمل في المدرسة؟

كانت تقف أمام الواجهة وتحسد العارضات. كان يبدو لها أن النساء الرقيقات المصنوعات من الورق المقوى يبتسمن لها، ويغمزن بعيونهن الجميلة المرسومة: «بقي بضع ساعات فقط حتى المساء، وسنخرج من هنا ونرقص طوال الليل، وماذا ينتظركِ؟ الجلوس في السكن الجامعي، وكتابة المحاضرات والحسابات الصعبة، كيف تنفقين الأربعين غريفنا المتبقية من منحتكِ ‹المُحسّنة›؟»

لم تلاحظ الفتاة أن الأبواب الزجاجية للمتجر انزلقت، وخرجت امرأة منها وتوقفت خلفها:

«هل يعجبكِ؟»

ارتعشت الفتاة من المفاجأة ونظرت إلى محدّثتها.

كانت امرأة يُقال عنها «بلا عمر»: تبدو في الثلاثين من عمرها، على الرغم من أنها بالتأكيد أكبر سناً. قوام لا تشوبه شائبة، مغطى ببدلة بنطال بيضاء ناصعة، حذاء بكعب عالٍ على قدميها، عطر غني ولكن غير مزعج، تسريحة شعر عصرية، مكياج خفيف. باختصار، امرأة من إعلان تجاري، «سيدة أعمال» نموذجية، تنضح بالنجاح.

«نعم،» أجابت الفتاة بإيجاز واتخذت بضع خطوات للرحيل.

لكن المرأة أوقفتها بسؤالها التالي.

«ربما تحلمين بمثل هذه الأشياء؟»

«لماذا تتشبث بي؟» فكرت الفتاة، لكن كان عليها أن تجيب.

«لدي أحلام أخرى. أنا فقط... كنت أفكر في نفسي».

ضحكت المرأة. ولم تكن الضحكة متعالية - بل كانت لطيفة، ومؤثرة.

«لا تتظاهري، يا صغيرة! أنا أفهم تماماً كم تتوقين إلى قياس الفستان ولو لمرة واحدة. لقد كنت مثلك. خاصة وأن كل ما هنا سيناسبكِ - فمظهركِ يناسب عارضة أزياء تماماً. وأنتِ بالتأكيد تعرفين ذلك».

المرأة العجيبة ألقت خصلة شعر الفتاة عن كتفها بحركة لطيفة وأضافت بمرح:

«أنا اليوم في مزاج جيد! وأريد أن أكون جنية طيبة لشخص ما. بالمناسبة، هذا البوتيك ملكي. إذا أردتِ، قيسي كل ما يعجبكِ».

«قوّادة!» خطرت في بال الفتاة.

لكنها لم تكن قد تمكنت من الرد على الدعوة، حتى ضحكت المرأة ضحكتها الرخيمة، وكأنها قرأت أفكارها.

«أوه، أعرف ما الذي فكرتِ فيه! «تقولين في نفسكِ، ‹هذه العجوز المزينة بالزيف تقف هنا وتجذب الفتيات الفقيرات إلى فخ!› لا تحمري خجلاً! كنت سأفكر بنفس الشيء. هكذا هو زمننا - نبحث عن الخدع في كل شيء. لكن الأمر بسيط: هذه العجوز في سن البلوغ تريد أن تكون جنية طيبة اليوم. إنه يوم كهذا...»

فكرت وأضافت بحزن:

«يوم الذكريات... في يوم من الأيام كنت أنا أيضاً أتأمل واجهات المحلات. صحيح، في ذلك الوقت لم تكن جذابة لهذه الدرجة. كنت أقف وأحلم بأنني سأشتري يوماً ما أغلى فستان. للانتقام من الجميع! والأهم من نفسي، تلك التي كنت عليها في ذلك الوقت - بطة قبيحة معقدة. وهل تعلمين ماذا فعلت؟ دخلت المتجر وقست كل ما كان فيه! وهل تعلمين ماذا حدث بعد ذلك؟ بعد عام، كنت أشتري بالفعل ملابسي من أغلى الماركات! لأنه هناك قانون غير مكتوب: إذا أردتِ أن تمتلكي سيارة غداً - اشتري اليوم زلاجات! بعبارة أخرى: الأحلام تتحقق إذا فعلتِ شيئاً من أجلها. في هذه الحالة، الفستان الغالي هو رمز لنجاحكِ المستقبلي. والنجاح يجب أن يتم تصميمه مسبقاً».

كانت الفتاة، وكأنها مسحورة، تستمع إلى كلماتها.

والدتها لم تخبرها أبداً بأشياء كهذه. على العكس من ذلك، في المنزل، بعيداً عن العاصمة، علمتها أن تكون مقتصدة وألا تحاول أن «تقفز فوق رأسها»، وألا تبرز عن الآخرين وأن تعمل بجد، لأن العمل

«ينبّل الإنسان» (الأم) و«حوّل القرد إلى إنسان» (الأب).

«لو كان لدي صديقة كهذه - حكيمة، أكبر سناً! لقد سئمت من محادثات الفتيات حول أين يمكن شراء مستحضرات التجميل أرخص، وأين يذهبن في المساء والمحادثات التي لا نهاية لها عن الزواج الناجح».

«ما اسمكِ؟» سألت المرأة.

«أليس...»

«أوه! إذاً، يا صغيرتي، طريقكِ المباشر إلى بلاد العجائب!» ضحكت المرأة ووقفت على عتبة المتجر - انزلقت الأبواب بهدوء. «تفضلي!»

«هذا غير مريح، لأنني لا أنوي شراء أي شيء...» شعرت أليس بالحرج.

«هذا غير مريح بالنسبة لي، يا صغيرتي،» أجابت المرأة بجدية. «أشعر بعدم الارتياح والخجل لأن فتياتنا - اللواتي يتمتعن بالاحترام والجمال - لا يدخلن هنا. يقفن فقط على العتبة وينظرن. وإذا دخلن بعد ذلك، فإنهن يصبحن أشخاصاً مختلفين تماماً، لأنهن لا يبحثن عن فرص لكسب لقمة العيش بأنفسهن، بل عن رعاة، يصبحن لهم دمى من القماش...

هذا أمر محزن».

لم تلاحظ أليس كيف وجدت نفسها في برودة لطيفة داخل البوتيك

الصغير.

«انظري، قيسي!» أومأت لها المرأة (عرفت بنفسها باسم أولينا أولكساندريفنا) وجلست في الزاوية خلف طاولة زجاجية صغيرة، كانت عليها أوراق. «ولا تعتقدي أبداً أن المال يحل كل شيء في الحياة. لن أزعجكِ...»

وانغمست في أوراقها.

استنشقت أليس رائحة الأشياء الثمينة بمتعة. بدا لها أنها أدخلت أنفها في علبة بودرة - رائحة حلوة لطيفة دغدغت خياشيمها.

حتى أن أليس عطست، وشعرت بالحرج. نظرت إلى المالكة، لكنها كانت تجلس بهدوء.

«حسناً، يمكنني الاستفادة من مزاجها وقياس الفساتين - لا يجب أن أدفع أي مال مقابل ذلك. بالإضافة إلى أن المرأة على حق: النجاح يجب أن يُصمم، حتى لو بهذه الطريقة. شعرت أليس بالثقة: يوماً ما، ستشتري فستاناً من هنا بالتأكيد! وليس واحداً فقط. إنه لأمر جيد أن كل شيء سار على هذا النحو. وهذه المرأة رائعة، جنية حقيقية!»

مررت أليس يدها على رفوف الملابس، وشعرت كيف تستجيب الفساتين الملونة للمسها، مثل المفاتيح، واختارت واحداً كان يبدو كـ «صول» ناعم:

فستان رمادي-وردي، بحمالات رفيعة، مطرز بالخرز الرمادي

والوردي...

«سأقيس هذا،» نادت إلى أولينا أولكساندريفنا، لكنها، دون أن ترفع عينيها عن الأوراق، أومأت برأسها فقط.

«جيد أنها لا تقف فوق رأسي، ولا تفرض نفسها،» فكرت أليس. «امرأة لبقة...»

في غرفة القياس، كانت هناك مرآة ضخمة مثبتة في الحائط - نظيفة، شفافة، ومظللة قليلاً، مثل زجاج الواجهة. وهذا أعطى عمقاً للانعكاس. خلعت أليس بسرعة بنطال الجينز والقميص، ووقفت هكذا لبعض الوقت، وهي تنظر إلى الغيمة الرمادية-الوردية التي كانت تحملها في يديها: «كيف يمكنني ارتداءها؟» نظرت إلى السعر... «واو!»

وفكت السحاب الخفي على الفستان بجرأة. ارتدته. وقفت بعينين مغمضتين. فتحتهما ببطء...

السيدة أولينا كانت تعرف ما تقول! بالطبع، ستعمل أليس الآن بجد كالجاموس لمجرد شراء هذا الشيء! نظرت أليس إلى نفسها في المرآة وأدركت بفزع أن للأشياء قوة هائلة لم تخطر ببالها أبداً.

لقد اعتادت على شراء أشياء عملية، لا تتسخ بسهولة وتدوم لأطول فترة ممكنة - هكذا علمها والداها. والآن رأت كيف غيّرها هذا الشيء الخفيف - الذي لا يزيد وزنه عن مائة غرام!

انعكست في المرآة امرأة ذات جمال مذهل. امرأة كهذه لن تقف أبداً

عند تقاطع طرق، لا تعرف ماذا تفعل! سيقترب منها الناس بعروض محترمة، مثلما تسمع في الأفلام فقط، وسيخاطبونها بـ «يا سيدة» ولن يجرؤوا على الإمساك بمعصمها، كما كان يفعل الشبان في الحفلات.

ترقرقت الدموع في عينيها. خلعت أليس الفستان بقرار حاسم. لكنها لم تكن ترغب في العودة إلى بنطال الجينز البالي القديم. «يا ليتني أستطيع الخروج من هنا عارية!» إذا لم يكن هذا الفستان - فلا شيء آخر! بعد ارتدائه، بدا لها الجينز والقميص كأكثر «جلود الحمير» فظاظة.

«يجب أن أسيطر على مشاعري!» غيرت أليس ملابسها بسرعة وخرجت بالفستان إلى الصالة.

«حسناً، كيف كان؟» سألتها صاحبة البوتيك، وقد انقطعت عن عملها.

«كان الأفضل ألا أفعل ذلك...» تنهدت أليس. «لكن شكراً جزيلاً لكِ! شعرت وكأنني شخص آخر».

«لا بأس، يا صغيرتي،» بدأت أولينا أولكساندريفنا بتهدئتها بلطف. «عندما تأتين لشرائه - وأنا متأكدة أن ذلك سيحدث قريباً جداً! - سأقدم لكِ خصماً كبيراً. حسناً؟»

«أنتِ حقاً جنية طيبة، شكراً لكِ».

«ألم أقل لكِ ذلك! تعالي، سأقدم لكِ بعض القهوة أيضاً - أنا أقدمها

لجميع زبائني - القدامى والمستقبليين. أوكسانا! « نادت على بائعة شابة لم تلاحظها أليس من قبل، «من فضلكِ، اعدّي لنا...»

لم تكمل حديثها - دخل زبون من الباب.

...تذكرت أليس هذه اللحظة لوقت طويل، وحاولت استعادة تسلسل الأحداث، لكن خيالها كان يخونها في كل مرة ويرسم صوراً جديدة ومذهلة. وعندما روت القصة لاحقاً لصديقاتها في السكن الجامعي، بدت كلماتها غير قابلة للتصديق على الإطلاق.

فسكتت الفتاة.

لم تصدق نفسها. فمثل هذا الشيء لا يحدث! وإذا حدث، فإنه يكون في الروايات، أو الأفلام، أو الأغاني الشعبية، مثل «أحبيني كما أنا».

باختصار، دخل الشاب إلى المتجر.

لقد دخل للتو وضيّق عينيه، ليعتاد على الظلام. فالظلام يعمي تماماً مثل الضوء، إذا دخلت إليه من وضح النهار.

وقف للحظة، ليعتاد على الإضاءة الخافتة للمتجر.

ثم التفت ولاحظ الطاولة في الزاوية التي كانت تجلس خلفها المالكة، وتقف أمامها أليس، ممسكة بفستان في يديها.

«أود شراء ربطة عنق،» خاطب الفتاة، معتقداً أنها بائعة.

تبادلت المرأتان النظرات، ولاحظت أليس في عيني أولينا

أولكساندريفنا شرارات، وكأنها تقول: «ها هي، يا فتاة، مغامرة أخرى: العبي هذه اللعبة، أظهري ما لديكِ، استمتعي!»

يا لها من امرأة رائعة! لا عجب أنهم يقولون إن نساء الأربعينيات في هذه الأيام يتفوقن على الفتيات الصغيرات - المملات، الماديات، المعقدات، الجادات بشكل مفرط، وغير القادرات على الجنون.

لكن أليس ليست كذلك! بتشجيع من نظرة صديقتها الجديدة المرحة، ألقت الفستان بجرأة على كتفها واستدارت ببطء نحو الغريب، وأظهرت ابتسامة «هوليوودية» تقريباً.

«أي واحدة تريد؟» وأشارت إلى حامل ربطات العنق الدائري.

لكنه، على ما يبدو، لم يسمع السؤال. كان ينظر إليها. على وجهه الذي يحمل طابع التعب النبيل، الذي يكون لدى الأشخاص الذين يركزون على أنفسهم وأعمالهم، بدأت تشرق ابتسامة تدريجياً. وتجعدات وجهه بدأت تختفي، وأشرق وجهه، كأن شمعة تشتعل في الداخل، تخفف من ملامحه الرجولية.

«إذن؟» حثته.

«عفواً؟» لم يستطع أن يرفع عينيه عنها.

«قلت إنك أردت شراء ربطة عنق،» ذكرت أليس، وهي تشعر بظهرها الآمن المتمثل في الجنية أولينا. «أي واحدة تريدني أن أريك؟»

«هذه...» أشار بإصبعه إلى أول ربطة عنق صادفته، دون أن يرفع

رأسه إلى الحامل.

«يا سيدي الفاضل،» تدخلت مالكة المتجر أخيراً في الحديث. «هل أنت متأكد؟ ربما تقيسها، أو على الأقل تقول ما هو لون ونوع ربطة العنق التي تحتاجها؟»

«دعها تكون هذه،» كان مصمماً على عدم الخوض في خيار معقد.

«أوكسانا!» نادت أولينا أولكساندريفنا على البائعة، وقامت بتغليف الشيء ببراعة، وفتحت آلة النقد...

وكأنها في حلم، قام الشاب بجميع الإجراءات اللازمة للمشتري، بينما كان يواصل التهام أليس بعينيه.

«هل تعملين هنا؟» تجرأ على أن يسأل أخيراً.

«لا،» أجابت أليس وبدأت تعلق الفستان على الحامل.

«الفتاة زبونتي،» أوضحت أولينا أولكساندريفنا بابتسامة. «لقد جاءت لتبحث عن فستان، وعلى ما يبدو، لم تجد شيئاً مناسباً... على الرغم من أنني أعتقد أن هذا الفستان يناسبها جداً. وبالمناسبة، ما رأيك أنت، كرجل؟»

أخذت أولينا أولكساندريفنا الحامل من الفتاة مع الفستان، ووضعته على الفتاة، وغمزت مرة أخرى بمرح، كأنها تقول: «تعلمي!»

«لا أعرف... يجب أن أراها،» قال المشتري بارتباك.

«لا مشكلة! يا أليس، يا صغيرتي، هل من الصعب عليكِ أن تغيري ملابسكِ مرة أخرى؟»

كانت اللعبة تتطور بوضوح...

شعرت أليس بالتوتر، وبالحرج: مالكة المتجر، على ما يبدو، كانت تنوي بيع الفستان - إذا لم يكن لها، فلهذا الغريب الذي ينظر إليها بإعجاب.

«ليس صعباً، لكنني لا أريد،» قالت. «خاصة أنني لا أستطيع شراءه الآن على أي حال».

«وكم يكلف هذا الشيء؟» سأل الشاب.

قالت المالكة السعر.

«هذا هو كل شيء،» فكرت أليس. «‹فستاني› يضيع...»

«لماذا لا تأخذينه؟ ليس باهظ الثمن...» خاطبها الشاب.

كانت أليس تعلق الفستان على الحامل، وهي تشعر بأنها سندريلا.

«ربما بالنسبة لك ليس باهظاً...» تمتمت.

«ماذا لو اشتريت لكِ الفستان أنا؟» قال الرجل فجأة بهدوء.

أولينا أولكساندريفنا، وقد فقدت كل وقارها، صفرت وصفقت بيديها مثل الفتاة: «برافو!».

تسمرت أليس في مكانها.

بالطبع، في الأفلام أو الروايات النسائية، تظهر أحياناً «أمراء» كهؤلاء في سيارات فارهة، يتوقفون على الطرق المتربة ليأخذوا سندريلا جميلة ويجعلوها صاحبة قصرهم الفاخر!

«هذا غير وارد!» أجابت الفتاة بصرامة. «سأشتريه بنفسي يوماً ما!»

«كنت أعتقد ذلك...» قال الشاب بارتباك. «أنتِ لستِ من النوع الذي يقبل الهدايا. على الرغم من أنني، صدقيني، هذا المبلغ ليس مهماً بالنسبة لي. من غير المحتمل أن تفهمي. لكن سيكون من دواعي سروري أن أفعل شيئاً لطيفاً لفتاة جميلة مثلكِ.»

لم تستطع أليس أن تمنع نفسها من الابتسام، ونظرت إلى أولينا أولكساندريفنا.

«أنا محظوظة بالساحرين اليوم! وكأنني حقاً دخلت بلاد العجائب! لكنني أعرف شيئاً آخر: الجبن المجاني لا يكون إلا في مصيدة الفئران! شكراً و- إلى اللقاء».

أومأت لمالكة البوتيك واتجهت نحو المخرج بقرار حاسم.

لكنه اعترض طريقها، وتحدث بحرارة وإصرار:

«أعلم أنني أبدو غريباً، لكن أرجوكِ، لا تهربي هكذا...»

انفجرت أليس بالضحك.

«هل تريد أن أترك لك حذائي؟» سألت بمرح، وهي تشير إلى حذائها الرياضي.

لم يفهم أو لم يرد أن يفهم المزحة، واستمر بجدية تامة:

«ربما لا أعرف كيف أتحدث مع النساء وقد أهنتكِ دون قصد... إذن اسمحي لي أن أقترح شيئاً آخر: سأقرضكِ المال لتشتري الفستان! تشترينه. ثم تعيدين لي الدين تدريجياً. هل تفهمينني؟! لا، لا تفهمين...»

تنهد وصمت.

لاحظت أليس بدهشة أن شيئاً يشبه الدموع لمع في أعماق بؤبؤي عينيه الكبيرتين واللتين تشبهان الفحم. ارتبكت الفتاة.

تسمرت البائعة أوكسانا خلف الصندوق بفم مفتوح من الدهشة، ويبدو أنها حتى نسيت أن تتنفس.

حاولت أليس أن تقرر ما الذي ستفعله. هل ستغادر بسرعة؟ لكن هذا الشاب الغريب أثار تعاطفها بخرقه، وبأدبه القديم نوعاً ما. وفوق كل ذلك، كان وسيماً جداً...

«ولما لا،» كانت الفكرة تدور في رأسها. «هذه الأوقات غريبة: بجانب الفظاظة، يتعايش النبل بطريقة غريبة. وهناك أيضاً صدفة الظروف... كم مرة حلمت بصدفة مماثلة. في النهاية، هو يقدم لي قرضاً.»

ترددت أليس، ونظرت نحو الغيمة الرمادية-الوردية، التي كانت

معلقة الآن بشكل يتيم بين الأشياء الأخرى. وبدا لأليس أن روحها معلقة هناك، تاركة نفسها وسط هذا البذخ.

«حسناً...» قالت بهدوء، وهي تتخيل كيف ستجلب مشترياتها إلى السكن الجامعي، وكيف سترتديها في أول حفلة. وأضافت بصرامة: «لكنه سيكون قرضاً».

«شكراً لكِ!» فرح الشاب.

أخذ الفستان من الحامل وأعطاه لأليس.

«حتى لا تغيري رأيكِ، أرجوكِ، ارتديه!»

وبدأ يخرج محفظته من جيبه.

«والحذاء؟» ابتسمت السيدة أولينا بخبث وأخرجت «حذاءً» أنيقاً من الرف...

خرجا الاثنان من المتجر تحت أنظار السيدة أولينا وأوكسانا المندهشة.

كانت أليس متحمسة جداً لدرجة أنها لم تلحق أن تودع مالكة المتجر اللطيفة بشكل لائق. كانت ترتدي فستاناً جديداً - خفيفاً، كأنه رغوة بحر. وحذاءً لامعاً بدون أي زخرفة مبتذلة.

الفتاة التي كانت تقف في حيرة عند تقاطع الطرق قبل ساعة، قد اختفت!

وفي المقابل، ظهرت أخرى - إلهة، أفروديت، ملكة، مستعدة للسير في الحياة بجرأة، تاركة خلفها نظرات الخاطبين التي تطيح بهم نظرتها.

«أريد أن نتفق على الفور متى وكيف سأعيد الدين!» قالت أليس بمجرد خروجهما من عتبة المتجر.

تجهم، وأومأ برأسه بشكل غير محدد، وكأنها بهذا السؤال قد حطمت الوهم بأنهما معاً منذ زمن طويل - زوجان شابان جميلان، أو الأفضل من ذلك - عائلة شابة يسودها الانسجام والحب. بصراحة، لم ترغب أليس أيضاً في تبديد هذا الوهم اللحظي الذي مر أمام خيالها. لكنها عبست، وهي تطرد من نفسها ما لا يمكن أن يكون حقيقة.

«أحتاج أن أعرف كيف سيتم ذلك،» قالت بإصرار.

«إذاً، لنذهب لتناول الغداء ونحل كل هذه المسائل،» اقترح. «لا يزال لدي نصف ساعة من الوقت الحر. أعدكِ: لن أغازلكِ. أرى أنكِ لستِ من النوع الذي يمكن إغواؤه بمثل هذه الأشياء. وهذا يعجبني. إذن، ما هو قراركِ؟»

أومأت أليس برأسها.

...كانا يجلسان في مطعم «ديجا فو»، على الرغم من أن أليس اقترحت الدخول إلى مقهى عادي.

لم يسبق لها أن دخلت مطاعم كهذه من قبل!

لكن رفيقها ضحك بارتياح، وكأنه يقول: «بفستان كهذا - هل تمزحين؟!»

بينما كانا ينتظران النادل، حاولت الفتاة أن تفهم سبب تصرف الغريب غير العادي. اتضح أنه لا يرى في ذلك أي شيء غير عادي. كان يتحدث بشكل مؤثر وبخجل - مما أثار تعاطفها وثقتها - عن أشياء لم تكن أليس، الفتاة من «عالم موازٍ»، تعرفها ولا يمكن أن تعرفها.

«لقد سئمت من مجرد كسب المال،» قال هذا الشاب الغريب. «في البداية كان الأمر ممتعاً، مثل المسابقات الرياضية. الآن، بعد أن فقدت أصدقائي - أعني، فقدتهم حقاً، لأن العمل لا يسمح بإضاعة الوقت في الجلسات الودية، عندما يكون منزلي فارغاً، وما أمامي هو العمل، العمل، وفقط العمل، الذي لم يعد بالإمكان التخلي عنه ولا يمكن التوقف عنه - لقد لجأت إلى الله...»

نظرت إليه أليس بدهشة، لم تتوقع مثل هذا المنعطف في الحديث.

«نعم،» أومأ برأسه. «هذه هي راحتي الوحيدة».

ابتسم وتابع.

«نحن جميعاً مبتدئون، جهلة. لم يعلمونا كيف نقرأ ونفهم الإنجيل. كيف نحب جيراننا. هل فكرتِ في هذا يوماً؟»

خافت أليس من أن تتفوه بأي شيء مبتذل، فظلت صامتة.

«من أين أبدأ في تنفيذ هذا الوصية؟» تابع. «هل أعطي خمسة

غريفنا لمتسول؟ هل أعبر عجوزاً الشارع؟»

ابتسم.

«اليوم فعلت هذا وذاك. هل شعرت بالارتياح؟ لا! وهذا الشيء الصغير، الذي أنتِ ممتنة لي من أجله، ليس أول عمل أقوم به، على الرغم من أنني لا أحصيها. كل حياة، حتى الأكثر إشراقاً، والأكثر ثراءً، لها نهاية، فلماذا لا نصنع فيها الخير لجيراننا، ما دامت الفرصة سانحة؟ فقط لأعزي نفسي بأنني سيكون لدي حجة واحدة على الأقل للدفاع عن روحي الخاطئة في يوم القيامة...»

اقترب النادل من الطاولة، وسكب النبيذ في قاع الكأس.

أخذ رشفة، أومأ برأسه، وأخذ الزجاجة وسكب لها النبيذ. كان يفعل كل شيء بثقة، بشكل جميل، كخبير وزبون دائم لمثل هذه الأماكن. أمسكت أليس بالكأس بسرعة كبيرة، وعندما لاحظت نظرته، احمرت وجوهها.

كانت تتوق لمغادرة المكان بأسرع وقت ممكن. أن تضع جدولاً لتعويض خسارته اليوم، أن تعرف رقم حسابه المصرفي وتنهض بفخر - ملابسها الجديدة شجعتها على ذلك: يجب أن تحترم نفسها. فلم تستطع أن تصدق ولو للحظة أن الرجل مهتم بها.

كان يتحدث عن نفسه، عن رغباته ومشاعره. وبنفس النجاح، في رأي أليس، كان يمكنه التبرع للكنيسة أو إعطاء المال للمتسولين الذين

يجلسون في الممرات.

ومع ذلك، كانت جالسة وكأنها مسحورة، لأن كل ما سمعته وشعرت به بدا لها معجزة، هدية من القدر، ومغامرة ستتذكرها في شيخوختها. كانت تخشى أن تقول شيئاً زائداً، ليس ما يرغب في سماعه منها. وبينما كان يتحدث، كانت في ذهنها تصوغ العبارات الصحيحة التي يمكن أن تقولها له حتى لا يخيب أمله.

وكان ينظر إليها بابتسامة حزينة بعض الشيء واستمر في الحديث وكأنه يناقش مع نفسه.

«منذ زمن بعيد، عندما كنت صغيراً، جلست في الشارع أبكي - الأولاد الكبار أخذوا مني نقودي. لم تكن النقود كثيرة، لكنها كانت آخر ما تبقى معي من المال الذي أعطاه لي والداي للسينما والآيس كريم. اقترب مني رجل - ما زلت أتذكر وجهه! - سألني، هدّأني، واشترى لي تذكرة وآيس كريم. لا أستطيع أن أصف لكِ ما شعرت به في تلك اللحظة! في ذلك الوقت، أقسمت أنه عندما أكبر وتتاح لي الفرصة - سأمنح الناس نفس المشاعر. ولكن فقط الآن، عندما أصبحت العديد من الأشياء بلا قيمة، ويعتقد البعض أنهم سيعيشون إلى الأبد، أدركت أنه لا يوجد شيء أفضل من منح الإيمان بالخير. لا أريد منكِ أن تشعري بالامتنان. على العكس من ذلك! أنا الممتن لأنكِ سمحتِ لي أن أفعل لكِ هذا الشيء الضئيل. وهو حقاً ضئيل. كنت أفضل أن أفعل شيئاً أكبر...»

«أنت شخص غريب،» قالت الفتاة بهدوء. «أود أن أصدقك. لكنني

سأعيد المال على أي حال».

«لا مشكلة!» أومأ بظلمة. «لكن وعديني أنه عندما يتجمع المبلغ بالكامل، سنقوم... معاً بإعطائه لمن يحتاجه أكثر منا».

لاحظت أنه قال «معاً»، وكأنه يخطط للمستقبل.

«كما تقول،» وافقت أليس.

عندما أحضروا الفاتورة، شعرت الفتاة بالرعب من المبلغ الذي وضعه محسنها في الصندوق - إنه مبلغ كانت تنفقه في شهرين أو حتى أربعة أشهر من حياتها كطالبة!

لاحظ نظرتها، وشعر بالحرج.

«آسف، حان وقت ذهابي. العمل...» تنهد. «الآن سأستدعي سيارة، وإذا لم تمانعي، سأوصلكِ إلى حيث تقولين. لقد أخذت الكثير من وقتكِ بالفعل».

«آه، لو كان بإمكانها أن تعطي عنوان مبنى في حي مرموق!» لكن كان عليها أن تعطي عنوان السكن الجامعي - المبنى الحقير، الذي كانت أكياس الطعام تتدلى من نوافذه، وكانت الأواني التي تحوي البصل النابت تبرز من عتبات النوافذ.

لكنه لم يندهش.

في السيارة، التي كان يقودها سائق صامت يرتدي بدلة مع قميص

أبيض (وهو ما جعل أليس تشعر بالتوتر بشكل لا يصدق أيضاً)، جلسا جنباً إلى جنب في المقعد الخلفي. شعرت بدفء جسده وارتجافها. حتى أنها وضعت يديها على ركبتيها لوقف تلك الموجات العصبية التي كانت تجعل كل خلية ترتعش، وتوسلت أن تنتهي هذه الرحلة بسرعة. كانت ترغب بالفعل في تمزيق جلدها الجديد - هذا الفستان، الذي لم يكن يتناسب مع الحي السكني المترب.

أوصلها حتى باب المبنى مباشرة. «ماذا الآن؟»

«شكراً لك،» قالت. «إلى اللقاء».

لم يصر رفيقها على لقاء آخر. لقد اتفقا ببساطة على أن أليس ستتصل به بنفسها بعد فترة، عندما تتمكن من دفع القسط الأول. أمسكت أليس بمقبض الباب، لكنه أوقفها بحركة ناعمة، وخرج من السيارة أولاً.

رأت كيف سار بخطوات خفيفة حول السيارة، وفتح لها الباب. قرأت أليس في مكان ما أن السيدات الحقيقيات يخرجن من السيارة «على أجزاء»: أي، أولاً - قدم واحدة، ثم الأخرى، ثم، بالالتفاف إلى الرفيق، يستقمن بأناقة، ويقدمن يدهن. «يا لها من علم كامل!»

لكن كل شيء سار على أفضل وجه.

النساء اللواتي يحملن عربات الأطفال، واللاتي كن يجلسن على المقاعد بالقرب من المدخل، رأين صورة «سينمائية» تماماً.

أليس لم تخطئ!

رافقها عبر صف الأمهات الصامتات، وكأنها ملكة. قبل يدها وغادر دون أن يلتفت.

غادرت السيارة.

لاحقت أليس بطرف عينها أن صديقاتها كن ينظرن إليها من غرفة في الطابق الثالث بدهشة.

من هذه النظرات، شعرت بأنها عارية...

كانت جاراتها قد نامن بالفعل، بعد أن استمعن إلى قصصها عن هذا الغريب اليوم، وكان الفستان معلقاً في الخزانة، وقد قاسته الجميع بدورها، وكانت أليس تتذكر أحداث هذا اليوم مراراً وتكراراً. كانت تندهش من نفسها، ومنه، وتغضب من نفسها لعدم ثقتها، وفي اللحظة التالية - تلوم نفسها على الثقة المفرطة. أضافت الفتيات في السكن الجامعي المزيد من الفوضى إلى أفكارها، بتقديمهن مجموعة من التفسيرات لهذا السلوك الغامض. في الواقع، كانت جميع التفسيرات تؤدي إلى شيء واحد - «للفتاة معجب ثري». كانت مثل هذه الأمور تحدث أحياناً لسكان السكن الجامعي. في تلك الأوقات، كانوا يحضرون إلى الغرف زجاجة شمبانيا، أو فواكه، أو أكياس طعام مسروقة من الطاولة.

لكن فستاناً كهذا وحذاءً كهذا! لم تستطع أليس أن تقنع صديقاتها بأن

الرجل لم يحاول فعل شيء أكثر من عمل نبيل.

ضحكت الفتيات بصوت عالٍ.

للمرة المائة في تلك الليلة، استدعت أليس في ذاكرتها كل حركة له ولم تجد فيها أي علامة على أنه «معجب ثري». حتى أنه لم يأخذ رقم هاتفها!

كانت لديه نظرة طفل ويديان جميلتان وضيقتان بأصابع «موسيقية» طويلة.

وشعره القصير المجعد قليلاً، الذي كان يشير بخبث إلى طباعه اللطيفة وخجله. كان يرتدي بدلة غالية الثمن وكان غير مهتم بربطات العنق، وهو ما اعتبرته أليس دليلاً آخر على بساطته وعفويته. كان يذكرها في الوقت نفسه بأبطال المسلسلات، الذين يتحدثون بلغة أنيقة منسية منذ زمن طويل، وببطل خارق من القصص الخيالية، قادر على القيام بالمآثر...

كانت ستفهم لو أن الأمور لم تكن هكذا! لو كانت قصصه عن الأعمال الخيرية مجرد غطاء لاهتمامه بها! كانت ستفهم وتسامح.

لكنه تصرف بلباقة وبشكل متحفظ، ولم يصر على شيء ولم يقترح لقاءً. كان هناك فقط تلك النظرة - النظرة الأولى في المتجر. لا شيء أكثر. لا تلميح لاستمرار العلاقة، ولا كلمة زائدة، ولا أي كلمات اعتادت عليها في دائرتها الاجتماعية. في الواقع، ماذا رأت؟ ما هي هذه

«الدائرة»؟ الشبان في الحفلات؟ زميلاتها من الأقاليم اللواتي يبحثن باستمرار عن عرسان من العاصمة؟ المدرسات الشابات والغير شابات المتعبات اللواتي يتحدثن عن الأمور السامية، ثم يذهبن إلى منازلهن محملات بأكياس من السوبر ماركت للحاق بإعداد العشاء؟

في الصباح، كانت أليس، التي لم تنم طوال الليل تقريباً، نائمة بعمق.

استيقظت على ضوضاء فوق أذنها. كانت الفتيات يصرخن، ويرقصن فوق السرير، ويهززنها، ويسحبن اللحاف الذي حاولت أن تختبئ تحته.

«هيا، استيقظي، يا كسولة!» كن يصرخن. «ستسقطين الآن: انظري من النافذة!»

قاومت أليس، وهي تدافع عن نفسها بأيديها وأرجلها بكسل.

«استيقظي، أقول لكِ!» غضبت إحدى الفتيات - ناتالكا - وسكبت كوباً من الماء على أليس. «استمعي!!! هناك! في الأسفل! هناك! سيارة الأمس!»

ألقت أليس اللحاف جانباً، وجلست على السرير، ونظرت إلى صديقاتها بجدية.

«هل أنتِ حمقاء؟ هل تسمعين؟!»

كانت ناتالكا ترتجف من الإثارة. قادتها الفتيات، وكأنهن حرس، إلى النافذة، وأجبرنها على فتح عينيها. في الأسفل، كانت سيارة «لكزس» بيضاء.

«رائع؟ ماذا تقولين؟!»

نظرة أليس الهادئة أدهشتها. التفتت إلى الوجوه الأربعة المحمرة.

كانت ترتدي بيجامة عليها رسومات ميكي ماوس سخيفة وشعرها غير مرتب. لكن ما أهمية ذلك؟

«سأقول... إنه لا يوجد شيء غريب في هذا...» أجابت أليس. وأضافت بهدوء: «ولا داعي للصراخ هكذا».

***

«في البحر الأبيض المتوسط، في خليج كوتور، توجد جزيرة صغيرة تسمى بيراست. لا يوجد عليها شيء سوى دير السيدة العذراء، شفيعة البحارة. يقال إنه في السابق، كان هناك صخرة واحدة فقط تبرز من البحر في ذلك المكان، وعليها وُجدت أيقونة السيدة العذراء. لا أحد يعرف كيف وصلت إلى هناك. ربما ألقتها الأمواج من قارب تحطم في مكان قريب. ومنذ أن وُجدت هناك، كانت طاقم كل سفينة تمر بالقرب من تلك الصخرة يلقي حجراً في البحر. وهكذا نشأت هذه الجزيرة. لاحقاً، بُني دير على تلك الحجارة، حيث تُحفظ تلك الأيقونة. وكما اتضح فيما بعد، قد قامت زوجة بحار غارق بتطريزها بشعرها! وعندما انتهت من العمل - فقدت بصرها...»

كان صوته هادئاً، لطيفاً. بلمسات ناعمة، بالكاد محسوسة، كان يمسح على شعرها، الذي كان ملقى كقماش بجانبه على الوسادة.

«بالمناسبة،» أضاف. «بشعركِ يمكن تطريز أكثر هالة إشراقاً...»

«أنا لست قادرة على مثل هذا العمل البطولي،» ابتسمت أليس. «وماذا بعد؟»

«وماذا بعد...» قبل طرف خصلة شعرها. «بعد ذلك، سنذهب إلى هناك، إلى ذلك الدير، ونتزوج هناك. لا يوجد مكان أفضل لمثل هذا الأمر المهم!»

«هل أنت جاد؟»

رفعت أليس رأسها عن الوسادة، واستندت على مرفقها، ونظرت إلى حبيبها بانتباه.

«جداً لدرجة أنني اشتريت التذاكر بالفعل!» ابتسم. «لكن ليس لدي الشيء الأكثر أهمية بعد: موافقتكِ. آسف، أردت أن أفعل لكِ مفاجأة. ربما لم تكن ناجحة؟»

«يا إلهي!» جلست أليس على السرير، وهي تحاول استيعاب ما سمعته. «أنا أعيش وكأنني في قصة خيالية منذ شهرين...»

«يا لكِ من حمقاء،» قبلها على جبينها. «أنا من أعيش في قصة خيالية منذ شهرين. لكنني أريد أن يكون لها اسم وذروة أخيراً. لقد سئمت من عدم الاستقرار».

«أنت تقول ما يجب أن أقوله أنا».

«إذن، هل توافقين؟»

«أنا مرتبكة. كل شيء مفاجئ جداً. كنت أعتقد أن الأمر يبدو مختلفاً: أولاً التعارف على الأهل، ثم السجل المدني، الزواج الكنسي، وجميع هذه الأمور الأخرى».

«الزواج الكنسي ليس أمراً سخيفاً، يا حبيبتي. إنه أولاً وقبل كل شيء. على الأقل، أود أن نبدأ حياتنا بهذه الطريقة، من تلك الجزيرة التي لا يوجد فيها أي شخص غريب. حيث توحدنا السيدة العذراء وتباركنا. ثم، كما تقولين بحق، ستكون هناك أمور أخرى، ضرورية في مثل هذه الحالات. سنذهب لرؤية والديكِ، ونحضرهما إلى هنا. سنقيم حفل زفاف، سآخذكِ إلى المكتب، وأعرفكِ بشركائي وأصدقائي، وأريكِ منزلي أخيراً - لم أذهب إليه منذ ستة أشهر بسبب التجديدات. لقد سئمت من غرف الفنادق! أريد أن تصبحي سيدة منزلي. وإذا أردتِ، يمكنكِ إعادة تصميمه حسب ذوقكِ...»

«... وتنتهي القصة الخيالية؟»

«لا، يا حبيبتي، لن أتركها تنتهي. لقد انتظرتكِ طويلاً. هل تتذكرين، في الأيام الأولى لحبنا، سألتِ لماذا نلتقي في الفنادق، ولماذا لا آخذكِ إلى الحفلات والعروض، ولماذا لا أعرفكِ على أصدقائي...»

«ولماذا؟»

«لا أريد أن يلمس هذا العالم، الذي يجب أن أعيش فيه - أو بالأحرى،

أعمل فيه - علاقتنا بمخالبه القذرة. حتى منزلي، مهما كان جميلاً، ليس جاهزاً لاستقبالك بشكل لائق. إنه أقل رومانسية ومفاجآت من جدران هذه الفنادق الراقية. على سبيل المثال، هل تريدين أن أطلب المزيد من الشمبانيا، مباشرة إلى السرير؟»

– أريد!

– وماذا عن السفر؟

– جداً! لكن ليس لدي جواز سفر.

– هذه مشكلتي.

– متى يجب أن نسافر؟

– قريباً. لدينا الكثير من الأمور. يجب أن نفكر جيداً في ملابسك.

«لدينا حقاً الكثير من الأمور...» همست أليس، وغطت وجهها بموجة من شعرها...

***

«حسناً، من سيتحدث مع والديها؟»

اجتمع مجلس في غرفة السكن الجامعي بكلية «العرائس»: ماليكا، وفتاتان أخريان تعيشان هنا، بالإضافة إلى ماريا وليزافيتا، أقرب صديقات أليس من كلية «الكيمياء».

لم يتمكنوا من اتخاذ قرار بشأن من سيتحدث مع والدي الفتاة، التي لم تعد تنام في سريرها ولم تحضر المحاضرات للشهر الثالث على التوالي. بناءً على حقيقة أن والديها اتصلا بمدخل السكن الجامعي، فإن الفتاة لم تتصل بهما أيضاً.

«لقد ضاعت أليس بشكل لا يصدق! كان بإمكانها أن تشتري هواتف محمولة لوالديها إذا أصبحت غنية جداً،» هزت مارينا كتفيها. «على الأقل كان من الممكن أن تتصل بنا، أيتها الخنزيرة! كنا مثل العائلة».

«عائلة!» قاطعتها ناستيا. «في الواقع، ماذا نعرف عنها؟»

«حسناً، ماذا؟» بدأت ناتالكا بالتفكير. «نعرف أنها انجرفت مع ‹أميرها›. لقد تركت كل شيء. وهي لا تهتم بوالديها».

«أنا أيضاً لم أكن لأهتم،» قالت ناستيا. «ماذا رأيت منهم؟ وهنا - ‹لكزس›، سائق، زهور، ملابس. أعتقد أنها ببساطة تشعر بالحرج من أخذه إلى قريتها.»

«لا أصدق أن أليس ستفعل ذلك. لقد وعدت بدعوتنا جميعاً إلى حفل الزفاف،» قالت سفيتلانا. «بالإضافة إلى ذلك، بقيت جميع أغراضها تقريباً هنا!»

«ولماذا تحتاج إلى هذه الأغراض القديمة؟ من المؤكد أنه اشترى لها كل شيء جديداً...»

«لكن ليس الصور العائلية! كانت ستأتي لأخذها بالتأكيد!»

نظرت الفتيات إلى الحائط بجانب سرير أليس - وبالفعل، كانت الصورة لا تزال معلقة هناك: هي في سن الخامسة محاطة بوالديها.

«حسناً، اهدأن. إذن، ماذا سنقول لهما؟» ذكرت ناتالكا الهدف من الاجتماع.

صمت الجميع في حيرة.

«اسمعن، يا فتيات،» قالت مارينا. «تذكرن: أليس أخبرتنا إلى أين ستذهب، حتى أنها ذكرت اسم الفندق. ماذا لو اتصلنا بهم؟»

«وبأي لغة ستتحدثين؟» سألت ناتالكا بسخرية.

«لا مشكلة! حبيبي، كما تعلمين، يعمل في شركة سياحية، سيساعدني».

«حسناً. متى تم تحديد موعد الحديث مع والديها؟»

«في الساعة الثانية عشرة.»

«هل ستتمكنين من معرفة شيء قبل ذلك الوقت؟» وجهت ناتالكا حديثها إلى مارينا.

«سأحاول...»

بعد ساعتين، تجمع الستة جميعاً بالقرب من هاتف حارس السكن الجامعي، يتجادلون بشدة حول من سيتحدث. وماذا سيقولون بالضبط؟!

عندما رن الهاتف، وضعوه بالإجماع في يدي ناتالكا.

«اتصلنا بكوتورا» صرخت في الهاتف، وهي تروي قصة زواج أليس بأكملها. «أجابوا أن اسم أليس ليس مسجلاً. ربما غيرت اسمها بالفعل. ألو! هل تسمعني؟!»

أبعدت ناتالكا سماعة الهاتف عن أذنها في حيرة ونظرت إلى الفتيات.

«يبدو أن والدتها أغمي عليها...»

قبل عشر سنوات

ميكا يدرس في الصف العاشر.

إنه أفضل طالب، فائز في أولمبياد الرياضيات والفيزياء، رياضي، ويعتبره جميع من في المدرسة أجمل شاب بين جميع طلاب المرحلة الثانوية. يطلقون عليه أيضاً اسماً حنوناً، ولكن الآن ينطقونه على الطريقة الأمريكية - «ميكي» - «ميكي رورك».

لديه مكانة خاصة في المدرسة، وتدور حوله الشائعات والثرثرة والأساطير: تلك المرأة، الجميلة والشابة، التي تحضر دائماً اجتماعات أولياء الأمور بجد - ليست والدته الحقيقية! ووالدته الحقيقية فنانة، انتحرت بالقفز من النافذة قبل سنوات عديدة.

تقول الفتيات إن ميكي تفاخر بأن لديه شقة خاصة به، لا يعيش فيها حالياً.

آنوك، فتاة مولاتو من الصف الموازي، حكت أن ميكي دعاها يوماً إلى تلك الشقة، لكنه غير رأيه في اللحظة الأخيرة لسبب ما. وصل بها تقريباً إلى المدخل، ثم قال: «اهربي من هنا!» - ودخل هو وحده. إنه غامض، هذا ميكي. من ستقوم بترويضه أولاً؟

اقترح زملاؤه في الصف مراراً أن يجتمعوا في «المنزل» لإقامة حفلة - بيرة، نبيذ، سجائر، وما إلى ذلك. لكن ميكي كان ينظر إليهم بازدراء، وهو يهز كتفيه: «بيرة مع البذور؟ محادثات عن كرة القدم؟ ممل، يا

صغار...».

هل لا يفهمون مدى صغر واهتمام اهتماماتهم الطفولية؟ الشيء الوحيد المهم الآن هو الدراسة الجيدة، والالتحاق بالجامعة. هكذا تعتقد ليوليا. وسيفعل كل ما بوسعه حتى لا يحزنها. لأنها فتحت له عالماً كاملاً! لا يمكن تجاهل ذلك. كم فعلت وتفعل من أجله!

بعد ذلك الحادث المؤسف مع والدته، أخذته إلى منزلها. في الليلة الأولى، نام معها في السرير المزدوج الكبير، وكانت الملاءة الحريرية تدغدغ جسده بلطف. كان يسمع بجانبه أنفاسها الخفيفة. اقترب بخوف، مثل الجرو، ليستنشقها. كانت أنفاس ليوليا حلوة جداً، وتجرأ على مد يده ليلمس شعرها...

في الصباح، كانت ليوليا، وهي لا تزال تمسح أنفها، تطعمه بالجبن مع الكريمة الحامضة. وكان ألذ من الآيس كريم.

ثم بدأت قصة خيالية! كان بإمكانه الركض في الفناء طوال اليوم، وتسلق أسطح المرائب، والقفز من الأرجوحة إلى صندوق الرمل. كانت ليوليا تتركه في الفناء طوال اليوم، وتعطيه المال لشراء خبز مع نقانق، وفي المساء، عندما كانت تعود من العمل، كانا يعدان العشاء معاً. لقد علمته ليوليا كيف يقشر البطاطا!

ثم كانا يتناولان العشاء معاً، على طاولة واحدة. حتى أنها سمحت له بلعق الطبق بلسانه وكانت تضحك بصوت عالٍ.

بالطبع، كانت هناك أيام يبقى فيها وحيداً. أحياناً - طوال الليل. أو تستقبل ليوليا ضيوفاً ولا تهتم به كثيراً. لكنه اعتاد على ذلك وكان ينتظر الصباح بصبر.

شعر بالقلق مرة واحدة فقط، عندما خرجت من فم ليوليا كلمات غير مفهومة عن «مجلس الوصاية». في ذلك الوقت، كانت متوترة، ومستاءة، وتتحدث مع شخص ما على الهاتف عن أنه يجب إعطاء شخص ما «رشوة». «رشوة» مرة أخرى، فكر ميكا في ذلك الوقت. «عندما أكبر، سأجدها وأدمرها - مرة واحدة وإلى الأبد.»

اصطحبته ليوليا إلى الصف الأول للمرة الأولى.

الآن هو في الصف العاشر. أفضل طالب. فخر المدرسة. يفعل كل شيء أفضل من أي شخص آخر. حتى عندما يرتب السرير. حتى عندما يغسل يديه - يفعل كل شيء بشكل صحيح: لا توجد أي تجعيدة زائدة على السرير، ويفرك يديه بالصابون حتى مرفقيه!

تفتخر به ليوليا، لأن ميكا لديه هدف في الحياة - أن يصبح طبيباً. على رف كتبه، توجد العديد من الجرار التي تحتوي على حيوانات محفوظة بالكحول، والتي يدرسها بدقة عالم تشريح حقيقي. يحب كثيراً عندما تعرض ليوليا المجموعة على الضيوف، ويفتخر بصيحاتهم. خاصة عندما تصرخ النساء - إنه يجد ذلك مضحكاً.

ماذا يوجد هناك! عبر زجاج الجرار، تنظر السحالي الخضراء، والسمندر، والأسماك بعيون جاحظة. في الأوعية الأكبر، تعرض

الضفادع المحنطة لأعين المتفرجين المذهولين أحشاءها المغسولة والمرتبة بدقة: القلب، الأمعاء، الطحال. تعلم هذا في نادي العلوم الطبيعية.

كل قطعة معروضة مرقمة، ووصف كل منها مدون في دفتر سميك مكتوب عليه «ملاحظات». يحب ميكي أن يعيد قراءة الملاحظات، ويضيف معلومات جديدة: «ضفدع أبيض. التجربة: حُفظ حياً في الكحول. قام بعشر حركات تشنجية. المدة - عشرون ثانية» أو: «فأر حقل. شق البطن. مدة التشنجات - دقيقتان وأربعون ثانية».

«لقد أصبحت رجلاً بالغاً تماماً،» تكرر ليوليا من وقت لآخر بحب. «يجب أن أشتري لك سريراً قابلاً للطي.»

هذا هو الشيء الوحيد الذي يجعل قلب ميكا ينقبض. عندها يحاول أن يشتت انتباه ليوليا، ويصرفها بمناورات لفظية. لقد اعتاد على النوم بجانبها.

وعندما تغادر للعمل في وقت مبكر - ينتقل إلى مكانها، إلى الحفرة الدافئة، ويشعر بالراحة الشديدة والهدوء.

الرغبة في البحث والعطش لدفئها ورائحتها - هاتان هما القوتان الدافعتان اللتان تمنحانه القوة ليكون الأفضل. الأفضل. الأول!

يزعجه الاهتمام المفرط من الفتيات، هؤلاء «بنات الأمهات» المرتبات. ينجذب إلى شيء آخر. رغبته في البحث تدفعه إلى الشارع،

إلى أقذر زوايا المدينة، حيث يمكنه اصطياد الضفادع.

تعلم ليوليا أنه على الرغم من هذا «الصيد» المسائي، فإنه لن يتغيب عن أي درس في المدرسة. هي راضية عن نجاحه، لذلك لا يشعر بأي رقابة على نفسه. ولحسن الحظ، لا توجد رقابة!

بداية الصيف في الفناء.

قرر ميكي اليوم أن يصطاد شيئاً أكبر من ضفدع أو فأر - لديه ما يكفي منها بالفعل، ولم يعد لديه مكان لوضع الجرار. ربما سيجد فأر مسك أو جرذ...

يستعد ميكي للتنزه. يرتدي بنطال جينز جديداً، وقميصاً أبيض، ويسرح شعره الكثيف بعناية إلى الخلف، ويضع عليه القليل من جل ليوليا.

طريقه إلى تلك البركة التي كان يركض حولها عندما كان طفلاً. يعرفها مثل كف يده! هذه البركة هي ملكه، مملكته، أبرشيته. هناك، تحت شجرة البتولا القديمة، التي تتمسك جذورها بحافة الضفة الطينية، هو مكانه المعتاد حيث يجلس لساعات وحتى يغفو، وهو يستمع إلى همس القصب الهادئ...

لكن يا له من شيء شنيع!

من بعيد، يلاحظ ميكي أن شيئاً ما قد استقر تحت شجرة البتولا. يبدو أنه أنثى. يقترب ميكي أكثر. هذا صحيح! تجلس فتاة قذرة

جداً على حجر وتبصق في الماء، وتراقب كيف تتجمع مجموعة من الأسماك الصغيرة الحمقاء حول البصاق.

كانت ترتدي تنورة متسخة، وسترة بلون الصدأ. تحت أظافرها سواد من الأوساخ، وشعرها يتدلى على كتفيها في خصلات غير مغسولة من نفس لون الصدأ مثل السترة.

لا توجد فتيات مثلها في دائرته. يدرك ميكي أن هذه الفتاة «من الضفة الأخرى»، أي إما من سكان القرية التي تقع مباشرة خلف البركة، أو أنها «مشردة». أو عاهرة شابة. هناك الكثير منهن هذه الأيام. يختبئ ميكي خلف شجيرة، ويراقب.

ها هي أخرجت علبة «بريما» من جيبها، وتحاول أن تشعل سيجارة، وهي تغطي عود الثقاب براحة يدها. «مؤكد - عاهرة!»

ينظر ميكي إلى الفتاة بصراحة. مرفقاها وركبتاها بحاجة إلى الصابون منذ فترة طويلة، وشعرها - إلى مشط، ويداها قذرتان. وكلها قذرة، شاحبة وخضراء بعض الشيء، وكأنها مغطاة بالزنجار.

لكن ميكي لا يشعر بالاشمئزاز. على العكس من ذلك. تبدو الفتاة له حقيقية، أكثر واقعية بكثير من زميلاته المزينات والمرتبات. إنها طبيعية، مثل... يفكر ميكي... مثل الضفدع، مثل الفأر، مثل الحلزون الزلق. ربما لها رائحتها الخاصة، بدون إضافات عطور، بدون كل هذا القناع.

استدارت الفتاة أخيراً، ولاحظت ميكي.

«هل لديك ولاعة؟» سألت بلهجة غير مبالية.

«أنا لا أدخن،» أجاب الشاب بلطف.

«بالتأكيد...» الفتاة تفحصه بملابسه بازدراء.

عيناها جاحظتان، خاليتان من أي تعابير. لكن حتى هذه النظرة تربك ميكي لسبب ما، فهو لم يعتد على أن تنظر الفتيات إليه بهذه الطريقة.

أخيراً، نجحت في إشعال عود الثقاب، وأضاءت السيجارة وأطلقت سحابة كاملة من الدخان الكريه في الهواء.

«هل لديك شيء للأكل؟» سألت بنفس الطريقة المتعجرفة التي تنظر بها.

«بالتأكيد!» هو بالنسبة لها «ابن أمه»، «عديم الفائدة منزلياً».

ينظر ميكي بإعجاب إلى أظافرها ذات الحافة السوداء ويشعر أن رغبة الباحث وصلت إلى ذروتها: يجب أن يغسلها فوراً، ليرى ما يختبئ تحت القشور وطبقة الأوساخ.

«لا يوجد هنا،» قال، لكن عقله يعمل بالفعل كآلة. «لكن يمكنني أن أقدم لكِ وجبة إفطار. أنا أعيش هنا، بالقرب. لدي شقة خاصة بي. كل ما علي فعله هو الركض لإحضار المفاتيح.»

تنظر الفتاة إليه باهتمام.

«وهل لديك مال؟»

يتذكر ميكي أن هناك نقوداً في مكتب ليوليا، يمكنه أن يأخذ قليلاً. ولكن - قليلاً فقط! سيعيدها لاحقاً.

«يمكنني أن أجمع نصف مائة!» أجاب.

«جيد،» قالت الفتاة. «سنشتري شيئاً للشرب، حسناً؟ هيا بنا!»

«لكن بشرط،» يوجه ميكي. «أنا أذهب لإحضار المفاتيح، وأنتِ تنتظرين هنا.» لا يريد أن يأخذها معه. «أو الأفضل من ذلك، لنلتقي هنا عند هذا المبنى بعد نصف ساعة.»

«هل ستخدعني، يا صغيري؟» ابتسمت.

«أنا لا أكذب أبداً. تذكري ذلك. وأنا لست صغيراً. عمري ثمانية عشر عاماً،» يكذب ميكي.

ثم يسرع إلى منزل ليوليا.

إنه بعيد عن منزل والدته، محطتان للحافلات. لكن هذا لا يخيف ميكي، فليس من فراغ أنه أفضل عداء في المدرسة!

لا يوجد أحد في المنزل. ليوليا في العمل. يضع ميكي منشفة نظيفة في حقيبة الظهر، ويرمي فيها قطعة خبز، وسكيناً، وعلبة طعام معلب، ويدس المال في جيبه. ثم، بعد التفكير، يضع في حقيبة الظهر قفازات،

وصابوناً، وزجاجة من كولونيا «ساشا» الثلاثية.

كانت الفتاة تنتظره حيث أمرها بالانتظار.

ركبا المصعد.

«أنتَ لست سيئاً،» تقول الفتاة وتلتصق به بسترتها الصدئة، التي لا يوجد تحتها ملابس داخلية. «لم تخدعني.»

كانت تفوح منها رائحة الثوم البري - ربما أكلت هذا العشب في الصباح.

«لا بأس، رائحة طبيعية، حيوانية...»

***

كانت مغنية شابة بعيون متباعدة بشكل مرضي وتسريحة شعر لطفلة في الثالثة من عمرها، تتحرك في الحمام، وتغني بصوت قطة أغنية عن «الحركات البسيطة». على الشاشة، كانت تتغير لقطات الأفلام القديمة بسرعة، حيث كان الناس من مختلف الأعمار والجنسين يؤدون «هذه الحركات البسيطة» - يقطعون الحطب أو يقلبون الشاي في الكوب. الفتاة في الحمام كانت ترش الماء، وتتمايل، وتفقد الوعي، وتغني، وهي تبتلع الرغوة ونصف الكلمات غير المفهومة.

كانت مارتا مستلقية على الأريكة، تضغط على جهاز التحكم عن بعد للتلفزيون من وقت لآخر.

لم تكن تعرف ما الذي تبحث عنه. كانت فقط مستلقية، تشاهد مقاطع الفيديو الغبية، ورأسها فارغ، لا تعرف ماذا تفعل. لم تكن من النوع الذي يمكنه ملء الفراغ في روحه بنفسه. ولم تكن تعرف كيف تكون بمفردها. ربما كان بإمكانها، مثل بينيلوبي، أن تعيش في الانتظار. لكنها كانت تفكر، ليس لديها من تنتظره.

في هذه المدينة الضخمة التي يزيد عدد سكانها عن ثلاثة ملايين نسمة، لم يكن هناك شخص واحد يمكنها التحدث معه. ربما كانت حمقاء عندما حظرت هدية القدر هذه - الهاتف؟ ربما قصة المرأة الضائعة في متاهات هذه المدينة هي قصتها؟ وشخص مجهول يتحدث إليها تحديداً - ولكن بطريقة مختلفة: «عودي إلي، يا فتاة. أنتِ لستِ وحيدة. أنا أفتقدكِ».

نقرت مارتا على جهاز التحكم عن بعد مرة أخرى.

«... يتم نقلهم بواسطة البدو عبر الصحاري العربية الحارة، ويتم تهريبهم بواسطة قوارب الصيد إلى سواحل تركيا وإسرائيل الحارة، ويتم تمريرهم سراً عبر حدود هولندا وألمانيا وإيطاليا واليونان. يتم شراؤهم، وبيعهم، وإعادة بيعهم، طالما أنهم يتمتعون بـ ‹مظهر جيد›. وبعد ذلك يستقرون في بيوت الدعارة في الأقاليم، ويدركون أنه لا عودة إلى الوراء. بالنسبة للكثيرين، لا توجد عودة بالمعنى الحرفي: يظلون إلى الأبد مستلقين في أرض غريبة، كأنهم مواد مستهلكة، كقمامة، ألقت بها بلادهم...»

نظرت مارتا باهتمام إلى الشاشة. كان هناك فيلم وثائقي. صور لشوارع أجنبية صاخبة، وحانات، وشوارع مضاءة بأضواء النيون، تتغير إلى صور صحاري، وبحار، ومناظر جبلية.

على خلفية لقطات من حياة بلدان أخرى، روى المذيع أنه لو تم جمع جميع الذين اختفوا في الآونة الأخيرة، لتكون جيش ضخم - بلد بأكمله! - معظمه من النساء والأطفال. ثم ظهرت صور للمختفين على الشاشة - معظمهم من الشابات، الفتيات. ربما كان معظمهم يهربون من العنف هنا، ليقعوا في عنف آخر؟ ولكن العمل مقابل المال، والطعام، والأشياء الثمينة، وفرصة لرؤية العالم، مع الأمل في كسب المال وبدء حياة جديدة - أليس هذا اختياراً شخصياً لهؤلاء الفتيات؟

وهل من الأفضل أن تعاني من العنف الذي، على الأرجح، عانت منه المسكينة زويا؟ لو عُرض عليها، هي مارتا، الآن أن تغسل المراحيض في بلد بعيد وجميل - مع مقاهي ومتاحف وحمامات سباحة كهذه، هل كانت ستتمكن من الرفض بثقة؟ أما عن «البدو» و«قوارب القراصنة» - فهذا كان من عالم الخيال.

تجربة مثيرة للاهتمام... قاطع أفكارها رنين الهاتف.

أمسكت مارتا بالسماعة وفجأة بدا لها أنها ستسمع نفس الصوت من الهاتف المحمول. «يا له من هراء؟!»

كان صديقها الجديد، سيرجي، هو من يتصل:

«لقد فكرت في كل شيء،» قال. «وتذكرت شيئاً. أعتذر لأنني لم أصدقك على الفور. كان لدي أسبابي الخاصة لذلك. أقترح أن نلتقي اليوم في نفس المكان. هل يمكنك أن تكوني هناك في غضون ساعة على الأقل؟»

«بالتأكيد! سأجهز نفسي الآن.»

«جيد. سأنتظرك في المقهى في الرابعة. هل هذا يناسبك؟»

ناسب مارتا ذلك.

قفزت من الأريكة وبدأت في ارتداء ملابسها بسرعة. لسبب ما، شعرت برغبة في ارتداء شيء جذاب، على سبيل المثال، البدلة الجديدة التي لم ترتديها منذ انفصالها.

بعد نصف ساعة، كانت تجلس على نفس الطاولة وشعرت بخيبة أمل قليلاً لأن سيرجي كان ينظر إليها بنظرة غير مبالية وعملية. على الرغم من ذلك، لماذا يجب عليه أن يمدحها؟

تنهدت مارتا واستمعت إلى ما كان يقوله. حكى سيرجي ما تمكن من تذكره: صديقته السابقة تعرفت على خطيبها في متجر لملابس حصرية في وسط المدينة.

«أعتقد أن هذا كان نفس المتجر الذي وجدت فيه الهاتف المحمول.»

«وهل أخبرت زويا شيئاً عن خطيبها؟ أين يعمل، وأين يعيش، وما اسمه؟»

«لا.»

«كيف يمكن أن يحدث هذا؟ ألم تسأل ما هو نوع الشخص؟ وفي النهاية، ما هو اسم العائلة الذي ستحمله بعد الزواج؟»

«أولاً، أنا لم أهتم بهذا...» عبس سيرجي. «كان ينقصني فقط أن أسأل! وثانياً، يبدو لي أن كل هذا كان ثانوياً بالنسبة لها. يحدث هذا عندما...»

ابتسم الشاب بمرارة، ونظر إليها مباشرة، وتناول رشفة من البيرة. لوح بيده أمام وجهه، وكأنه يطرد ذكرى غير سارة.

«باختصار، كانت تعتقد دائماً أن ‹الرجل الحقيقي› يجب أن يكون غامضاً. لقد ظهر في حياتها كحقيقة: جاء، رأى، انتصر! وهذا كان كافياً لها.»

«إذن، ما الذي قررناه؟»

«أقترح أن نلقي نظرة على زبائن المتجر. هذا أسهل بالنسبة لكِ. اذهبي إلى هناك، وتحدثي مع البائعة. ربما تتذكر الموقف. ليس كل يوم يحدث تعارف سعيد هناك...» ابتسم بسخرية مرة أخرى. «أعتقد أن عدد الزبائن هناك ليس كبيراً.»

«بالتأكيد، ليس كبيراً. الأسعار مرتفعة للغاية،» وافقت مارتا.

«لذلك، قد تكون البائعة أو المديرة قد تذكرت الزوجين اللذين تعارفا

أمام عينيها. هؤلاء الفتيات عادة ما يشعرن بالملل خلف الطاولة. لذلك، أي حدث بسيط يثير اهتمامهن. هل توافقينني الرأي؟»

«لا أعرف...» هزت مارتا كتفيها. «لا أستطيع الذهاب إلى المتجر كل يوم! يجب أن يكون هناك سبب على الأقل. أو... أو المال.»

«بالتأكيد، ليس عليكِ الذهاب كل يوم. لكن بضع مرات ممكن. ماذا لو حالفكِ الحظ؟ على الأقل، لن تخسري شيئاً...»

«هذا صحيح بالتأكيد،» تنهدت مارتا، متذكرة الأسعار على الملصقات.

كأن سيرجي التقط أفكارها، ابتسم بخجل ومد يده إلى جيبه. أخرج محفظته. هزت مارتا رأسها بغضب، وقامت بحركة رافضة.

«اشتري لي زوجاً من الجوارب،» قال بشكل قاطع، وهو يخرج المال. «واطلبي لنفسكِ فستاناً خاصاً... دعيهم يحضرونه. وستقومين بزيارتهم.»

«جوارب؟» تساءلت مارتا. «حتى الجوارب هناك تكلف...»

أخرج سيرجي ثلاث أوراق نقدية أخرى:

«هل هذا يكفي؟»

هزت مارتا كتفيها، وأومأت برأسها.

«وماذا لو لم يحضروا الفستان؟» ابتسمت.

«إذن ستشترين جوارب!» ضحك. «ألم تشتري جوارب رجالية من قبل؟»

ابتسمت مارتا داخلياً، وهي تحاول الحفاظ على تعبير جاد على وجهها.

«كان من الممكن أن يكون السؤال أبسط،» قالت بنظرة شيرلوك هولمز. «إذا كنت تريد أن تعرف ما إذا كان لدي من أشتري له الجوارب، فالإجابة هي: الآن - لا. ولكن من أجلك، سأقوم بهذه الخدمة بكل سرور.»

نظر إليها بخبث.

«هل أنت معجبة بقصة زويا هذه، أليس كذلك؟»

«لماذا قررت ذلك؟» شعرت بالحرج.

«على الأرجح، أنت تبحثين عن مغامرة.»

«مغامرة مثل مغامرة زويا. لا أعتقد ذلك...»

«أولاً، هي لم تعد ‹ملكي› منذ زمن. وثانياً، لا يمكنك أن تعرفي أين هي الآن. ربما وجدت سعادتها وهي مستلقية على كرسي استرخاء على شاطئ المحيط الهادئ. وأنت هنا تستمتعين بالبحث عنها، لأنك تشعرين بالملل...»

كانت هناك بعض الحقيقة في كلماته. لكن هذا أغضب مارتا.

«هذا ليس صحيحاً. أنا لست بلا عمل!» قالت، ولكي تثبت ذلك، نظرت إلى ساعتها.

«الرابعة والنصف،» ذكرها.

فكرت مارتا، إذا نهضت وغادرت الآن أولاً - سينظر خلفها، وربما يلاحظ كيف يناسبها الفستان. ولكن بالنظر إلى عينيه الساخرتين - منخفضتين عند الزوايا - قررت أنه أحمق بلا قلب، ممل وغير مثير للاهتمام. لا عجب أن زويا وجدت شخصاً أفضل.

«يجب أن أذهب. إلى اللقاء،» قالت ونهضت من الكرسي.

«حسناً، إذا كنتِ لا ترغبين في أي شيء آخر...» قال بابتسامة.

ياله من رجل - لا يزال يتظاهر بأنه رجل جذاب وذكي - «لا ترغبين في أي شيء آخر».

«يا له من ابتذال!»

هزت رأسها بصمت وذهبت، دون أن تلتفت.

قبل عشر سنوات

ميكي ينام دائماً فقط عند الفجر.

بجانبه، تتنفس ليوليا بهدوء.

لأول مرة اليوم، لم يمسك بخصلة من شعرها. وابتعد قدر الإمكان عن هذا التنفس، وعن رائحة جسدها.

كان يشعر بالغثيان طوال الليل تقريباً، لكنه يخاف أن يتحرك، يبتلع فقط لعابه المر المقزز. اليوم حدث أهم حدث في حياته. الحدث الذي طالما حلم به. الذي تخيله، وكرر في ذهنه آلاف المرات كل حركة يجب أن يقوم بها، عندما تقترب الحقيقة وتتطلب هذه الحركة دقة جراحية. ولم يخطئ!

لكنه في يوم واحد فقط نضج وتقريباً... شاخ.

حتى ليوليا لاحظت!

«هناك شيء ما ليس على ما يرام معك...» قالت عندما عادت من العمل.

بالتأكيد! لو علمت كم دقيقة وقف ميكي أمام مرآة الحمام، وهو يفحص وجهه.

لقد أصبح مختلفاً. خطان من التجاعيد ظهرا عند زاوية فمه، تماماً مثل الرجال الكبار. ويداه أصبحتا مختلفتين تماماً، أقوى. ونظرته...

ستكون الآن دائماً هكذا - ثاقبة، تقييمية.

لكن يا له من إرهاق هذا النضج. يشعر ميكي وكأنه كان يفرغ عربات قطار طوال اليوم. ويا له من نبيذ رخيص مقززا! كان عليه أن يتناول بضع رشفات.

«جيد أن الضفدعة (لم تمانع في هذا اللقب) شربته كله بنفسها من الزجاجة، ولم تقنعه بالانضمام إليها. وبشكل عام، كانت غير مبالية به - كانت فقط تأكل بجنون، وتلوح بفمها المليء، وتنفخ خديها، وتصدر أصوات الضفادع بسعادة.

ضفدعة حقيقية!

يعيد ميكي في ذهنه صور اليوم الماضي مراراً وتكراراً.

إنه مقاتل! الآن يعرف بالضبط ما يحتاجه حتى لا يشعر بأنه «ابن أمه» وأحمق. هذا الشعور المقرف - ألمه، خجله، وصمته، على الرغم من أن والدته رحلت منذ فترة طويلة.

هناك ليوليا. ليوليا الجميلة، الرائعة، الطيبة، الدافئة. تتنفس بجانبه، وتمنحه عطرها، مثل الزهرة.

بمجرد التفكير في أنها ستشتري له سريراً منفصلاً، يشعر ميكي بالدوار، والعالم ينهار. إنه يبتكر حججاً جديدة و جديدة باستمرار: لا يريد النوم على سرير قابل للطي، والأرائك أو الأسرة باهظة الثمن. يتحايل بالقول إن رأسه يؤلمه، ويقول إنه يخاف من الظلام وإنه

قد يموت في لحظة إذا بقي وحيداً. يتحدث عن عادة الطفولة التي يصعب التخلص منها. لا يستطيع أن يكون بعيداً عنها لفترة طويلة. مثلما كان في طفولته. سيصبح سيئاً في الدراسة. سيبدأ في الشرب. سينحرف. سيذهب إلى أي مكان!

لا يستطيع أن يتحمل العيش بدون شعرها، الذي يمسك بخصلة منه سراً حتى الصباح، بدون رؤية دانتيل قميص نومها، بدون حفرتها الدافئة في السرير، التي يتسلل إليها عندما تذهب إلى العمل. لا، لن ينجو من ذلك.

... ميكي ينام.

وفي الصباح، يفاجئ ليوليا بفعله: يخرج «غرفة العجائب» الخاصة به ويوزعها على الصغار الذين يتسكعون في الفناء.

لقد تحرر. لم يعد بحاجة إلى هذه الألعاب الطفولية.

«كنت متحمساً جداً لهذا!» تقلق ليوليا. «هل غيرت رأيك في الالتحاق بالكلية الطبية؟»

«لم أغير رأيي،» يجيب ميكي. «على العكس. لا تقلقي. كل هذا مجرد شيء للأطفال.»

«هل كبرت بالفعل؟» تبتسم، وهي تمرر يدها على شعره الكثيف المجعد، ولأول مرة يبتعد عنها، ولأول مرة ينظر إليها بنظرة جادة، طويلة وغريبة نوعاً ما.

«على الأقل، فهمت شيئاً ما...»

«جيد،» تقول ليوليا بدهشة. «لكن على أي حال سأرسلك إلى المخيم الصيفي. لقد حجزت لك مكاناً في أغسطس.»

إذن بقي شهران! شهران من الحرية، يفكر ميكي، والشيء الأكثر إثارة للاهتمام قد بدأ للتو! ثم سيأتي الخريف، وستبدأ المدرسة، ولن يكون لديه وقت فراغ تقريباً. حسناً، لا يمكنه أن يسترخي، وينام حتى الثانية عشرة، ويتجول بلا هدف. يجب أن يتحرك.

في الصباح، يغسل جينزه وقميصه اللذين تركهما تحت الحمام.

يرتدي كل شيء آخر، ويجهز حقيبة الظهر، ويضع المفاتيح في جيبه على الفور.

يأخذ دفتراً جديداً. يكتب عليه بعناية العنوان «ملاحظات-٢». يكتب العنوان الفرعي - «التجربة الأولى».

وقبل أن يغادر الشقة، يقوم بتدوين ملاحظة لا يفهمها إلا هو:

«ضفدعة. المدة - ٤ ساعات؛ ٥ لترات؛ استخراج ٥ وحدات».

أبرز الملاحظة بقلم تحديد أخضر.

باللون الأحمر، يكتب عنواناً جديداً: «التجربة الثانية».

يستمتع بنظافة الصفحة الجديدة.

غداً سيظهر عليها شيء جديد.

الجـــزء الثانـــي

كانت مارتا واقفة على العتبة، عندما قررت فجأة أن تغير ملابسها: تغير الطقس الحار إلى مطر خفيف غير متوقع وبدا فستانها الصيفي غير مناسب. بالإضافة إلى ذلك، كانت قد دخلت البوتيك بهذه الملابس بالضبط.

لكن ماذا ترتدي؟ من الأفضل أن ترتدي بنطال جينز متعدد الاستخدامات، وهو أكثر الملابس ديمقراطية، والذي يصعب من خلاله فهم وضعك الاجتماعي. لقد مرت عشرة أيام منذ أن زارت المتجر الأنيق لأول مرة. بالطبع، من غير المحتمل أن تتعرف عليها البائعة. ومع ذلك، قامت مارتا، للتأكد، بتسريح شعرها بسلاسة، ووضعت «خطوط» طويلة على جفونها.

ركبت الحافلة، ثم انتقلت إلى المترو، ووصلت إلى وسط المدينة.

ها هو التقاطع، وها هو البوتيك. لاحظت مارتا أن الواجهة قد تغيرت. الآن، كانت هناك فساتين أخرى على العارضات، وأشياء ثمينة أخرى متناثرة حولها.

توقفت مارتا، وهي تنظر إلى حقيبة يد ضخمة وعصرية، والتي ربما كانت مصنوعة من جلد التمساح، وكانت الصنادل على العارضة من نفس النوع. جميل، لا يمكنك أن تقول شيئاً!

فجأة لاحظت أن صورتها، التي انعكست في الزجاج الملون، تطابقت

مع صورة العارضة، وكأن الملابس الأنيقة «ظهرت» عليها مثل فيلم فوتوغرافي. هذه هي التجربة!

لم تلاحظ كيف وجدت هذه المرأة نفسها خلفها.

«هذا من أحدث مجموعة،» قالت.

استدارت مارتا.

كان للمرأة مظهر لطيف، ووجه جذاب و«أصيل» مع عظام خد عالية وشفاه محددة بوضوح - وجه نجمة سينمائية.

«أرى،» كذبت مارتا. «جميل، لكنه مبالغ فيه.»

«لدينا أشياء أخرى. تفضلي!» قالت المرأة، مشيرة بيدها إلى باب المتجر. «ربما يعجبكِ شيء آخر. لديكِ ذوق جيد.»

خمّنت مارتا أن هذه المرأة إما بائعة أو مديرة.

شكرت على الدعوة ودخلت إلى الداخل.

«هل يمكنني مساعدتك؟» سألت المرأة.

هذه المرة، لم ترفض مارتا المساعدة، وبدأت المرأة في تقليب الفساتين، وتحدثت عن كل واحد منها، وكأنه كائن حي ذو أصل نبيل.

شعرت مارتا ببعض الاشمئزاز من هذه الملابس، التي بدت أغلى من حياتها.

لتمضية الوقت، لاحظت أن الأسعار على الملصقات لا تتوافق مع القيم الحقيقية التي لا يمكن شراؤها بالمال. نظرت السيدة البائعة إلى مارتا باهتمام.

«كل شيء يباع، وكل شيء يشترى، يا عزيزتي،» قالت بتنهيدة خفيفة. «للأسف. للأسف...»

هزت مارتا رأسها برفض. ابتسمت المرأة.

«في إنجلترا القديمة، أثبت أحد وزراء الملكة فيكتوريا لجلالتها نفسها أن هذا صحيح. وفعل ذلك ببساطة. هل تعرفين كيف؟»

أصدرت مارتا صوتاً غير محدد، لم تتوقع من البائعة أن تكون على دراية بنشاطات الملكة فيكتوريا. لكنها أومأت برأسها باهتمام، مشيرة إلى أنها تود أن تعرف - فكلما بقيت في المتجر أكثر، كان ذلك أفضل.

«حسناً، عندما قال الوزير إن كل شيء يمكن شراؤه، قالت الملكة: ‹هذا ليس صحيحاً. أنا، على سبيل المثال، لا يمكن شراؤي!› - ابتسمت المرأة بخبث: - أعتقد أنكِ أو أي شخص آخر سيجيب بهذا الشكل إذا كان السؤال مباشراً. ابتسم الوزير وقال: ‹هذا يعتمد على السعر، يا جلالة الملكة!› و... ذكر لها سعر كعكة الشعير. عبست الملكة بغضب: ‹لكن هذا قليل جداً!›. قال الوزير: ‹ها، أيتها الملكة، أنتِ تتفاوضين بالفعل!›»

ضحكت مارتا. كانت تحب المرأة. وخاصة ضحكتها، التي جاءت رداً

على ضحكة مارتا - بسيطة، وقاسية قليلاً، وصريحة.

«لكنكِ على حق. في هذا العالم، هناك شيئان لا يقدران بثمن فقط - الصحة والحب،» قالت المرأة بجدية، متوقفة عن الضحك. «وربما الموهبة، هبة من الله. على الرغم من أن هذا يمكن أن يكون موضع جدال في عصرنا، لأن كل شيء يشترى - من الأعضاء للزراعة إلى دبلوم من جامعة مرموقة. ولكن، هل سيكون كل هذا حقيقياً...»

تنهدت المرأة ومررت يدها على الفساتين.

«على الأقل، هذه الأشياء حقيقية. أنا، يا عزيزتي، ليس لدي أي تقليد. هذا مبدأ عندي.»

أزالت أحد الفساتين من الشماعة.

«أعتقد أن هذا سيناسبكِ. اسمحي لي أن أرافقكِ إلى غرفة القياس!»

لم يكن هناك مهرب، ذهبت مارتا بإذعان إلى الكابينة، وهي تفكر في كيفية بدء الحديث عن ما يهمها. هذه المرأة، وكانت مارتا متأكدة من ذلك تقريباً، ملاحظة وذكية، ولن تفوتها أي حالة غير عادية.

خلعت مارتا ملابسها بحركات ميكانيكية، وارتدت الفستان.

وقفت لبضع ثوانٍ أمام المرآة الكبيرة، واستدارت، ثم أزاحت الستائر المخملية.

كانت المرأة جالسة بالفعل في عمق الصالة، منشغلة بأمورها

الخاصة.

تراجعت مارتا بضع خطوات، وسارت أمام المرآة على السجادة.

تنهدت: هل هي مستعدة للتخلي عن نصف حياتها مقابل هذه الملابس؟ نظرت بحزن إلى الرف الذي كانت عليه بنطالها الجينز المطوي - زي مريح وعملي...

ماذا بعد؟

«إنه يناسبكِ جداً!» نادت عليها المرأة. «هل ستأخذينه؟»

«لم أقرر بعد...» كانت مارتا تدور أمام المرآة وتندم لأنها لم تتحدث عن الموضوع مباشرة، كما فعلت في القرية. لماذا بدأت بقياس الفستان؟

كيف تبدأ الحديث؟ وخاصة مع مثل هذه المرأة؟ ما الذي يمكن أن تقوله يليق بثقافتها؟

كانت مارتا لا تزال تسير ذهاباً وإياباً أمام المرآة، عندما أعلنت الأجراس على باب المتجر بقدوم زبون جديد.

«الآن لن تتمكن من التحدث!» - دخل رجل إلى المتجر. وانتقل اهتمام المرأة إليه.

كان يختار أزرار الأكمام، وكانت المرأة تساعده، دون أن تولي اهتماماً لمارتا. من مكان ما، ظهرت فتاة تحمل صينية - كان عليها أكواب.

وضعت الفتاة الصينية على الطاولة الزجاجية المستديرة.

أخيراً، قام الرجل بالشراء. بدأت الفتاة في تعبئتها. جلس الرجل على الأريكة الجلدية بجانب الطاولة.

اقتربت المرأة بخطوات خفيفة من مارتا المرتبكة:

«أرى أنكِ لستِ راضية تماماً؟ ربما أنتِ على حق، الفستان مبالغ فيه بالنسبة لجسدكِ النحيل، ذوقكِ رفيع. أنصحكِ بالقدوم في الأسبوع القادم. نتوقع وصول شحنات جديدة - مجموعة الخريف...»

تنهدت مارتا بارتياح.

«شكراً. الفستان جميل حقاً، لكنني أريد شيئاً مختلفاً قليلاً...»

عادت إلى غرفة القياس، وغيرت ملابسها بسرعة. لاحظت بطرف عينها أن الرجل كان يراقب حركاتها باهتمام، وتوقفت أمام مرآة غرفة القياس، وهي تعدل شعرها.

عندما خرجت، كانت المرأة والزبون يجلسان على الطاولة، ويشربان القهوة.

«تفضلي!» دعتها المرأة، مشيرة إلى الكوب الثالث. «جميع زبائننا - أصدقاء. آمل أن تكوني راضية عن التشكيلة في المرة القادمة.»

سمعت مارتا أن كوب القهوة للزبائن الدائمين هو أمر طبيعي تماماً في صالون محترم. من الغريب مدى سرعة انتشار هذه العادات

الأجنبية. ابتسمت مارتا دون وعي، وهي تتخيل جارتها من الطابق السفلي، التي يطلقون عليها في الفناء اسم «المتسولة»، تُقدم لها القهوة في متجر للأدوات المنزلية. «يا لها من أحاديث ستنتشر في الفناء - لمدة أسبوعين!»

جلست مارتا، وهي تشعر بالحرج، على حافة الأريكة. في الواقع، كان بإمكانها أن ترفض، لأنها لم تشترِ شيئاً، لكنها لم تأتِ لهذا الغرض.

بدأ حديث خفيف.

راقبت مارتا بانبهار كيف أن المرأة تقود المحادثة ببراعة مع الغرباء.

وكم كان قليلاً فيها من الغزل المصطنع، وبأي بساطة وعفوية فنية تشارك أفكارها، دون خوف من أنها قد لا تعجب أحداً. مع مثل هذه المرأة، ترغب في شراء كل شيء دفعة واحدة! هل يمكن حقاً تعلم كل هذا؟

«إذن تعلمي،» قالت مارتا لنفسها، وهي تستوعب نغمات الحديث الاجتماعي.

«قالت أجمل امرأة في العالم مارلين مونرو ذات مرة: ‹أعطوا المرأة زوجاً من الأحذية الجميلة وستغزو العالم!›» كانت المرأة تقول، وهي تتغزل بالزبون وتغمز لمارتا بنظرة متواطئة. «اتفقوا معي، هناك شيء في هذا. على سبيل المثال، الرجل، ليغزو العالم، لا يكفيه زوج من الأحذية. إنه يحتاج إلى ‹مجموعة رجل نبيل› كاملة - من دبلوم

التعليم الذي يؤكد ذكاءه إلى... مم... السلاح الذي سيغزو به هذا العالم.»

ضحكت مارتا والزبون. هز الرجل رأسه:

«اسمحوا لي أن أضيف: إذا لم تكن هناك امرأة بجانبه ترتدي تلك الأحذية الجميلة - فماذا سيفعل بالعالم كله؟ يمكنه أن يكتفي تماماً بأريكة، وتلفزيون، وعلبة بيرة.»

الآن ضحكت مارتا مع المرأة. وهي، وهي تضحك، التقطت فكرة المحاور:

«لكن هذا حتى تظهر هي - تلك التي بجانب زوج الأحذية هذا سترغب في شراء إكسسوارات أخرى، بما في ذلك المملكة! وعندها سينهض من الأريكة ويبدأ في العمل! أليس هذا ما تتحدث عنه جميع قصص الكلاسيكيات العالمية - من مآسي سوفوكليس وشكسبير إلى ‹الليالي في مزرعة بالقرب من ديكونكا'!»

صفقت مارتا يديها وصرخت بحماس:

«إذن، زوج من أحذية النساء يحكم العالم؟»

الآن ضحك الثلاثة جميعاً. شعرت مارتا بالراحة. لم تجلس من قبل في مثل هذه الصحبة. شعرت بالأسف لأن الوقت يمر وعليها أن تودع هذه الشركة اللطيفة والعرضية. لكن صاحبة الصالون صبت المزيد من القهوة، وفكرت مارتا أن هذا سيكون وقاحة من جانبها. علاوة على

ذلك، استمر الرجل في تطوير الفكرة، وهو يرفع يديه بشكل مضحك:

«النساء العظيمات دائماً على حق! كما قالت مارغريت تاتشر: ‹الديك يصيح جيداً، لكن الدجاجة هي من تضع البيض›! النساء يحكمن العالم.»

عبست المرأة بمرح.

«لا أريد أن تتم مقارنتي بالدجاجة! وأنتِ؟» سألتها، موجهة السؤال إلى مارتا. هزت مارتا رأسها بشكل قاطع. على الرغم من أنها في أعماقها اضطرت أن تعترف بحزن أنها لم تبتعد كثيراً عن «الدجاجة»، القادرة فقط على النقيق كل صباح بشأن الطقس السيئ، أو نقص المال، أو ذلك «الديك» نفسه، الذي تركها من أجل حظيرة دجاج أكثر جاذبية.

«الحب... هو من يحكم العالم،» قالت مارتا بهدوء وخافتت من جرأتها.

«برافو!» صفق الرجل بيديه، وأخذ يدها، وقلب راحة يدها إلى الأعلى وقبل معصمها بأناقة. كادت مارتا أن تسحب يدها، لأن القبلة بدت حميمية جداً، وشفتاه - ساخنة جداً.

لتدارك حرجها، حولت الحديث إلى مستوى يومي عادي، وبدا أنها لم تعد تولي اهتماماً للرجل، وسألت صديقتها الجديدة عما إذا كانت تستقبل جميع الزوار بهذه الطريقة، وهل تعرفهم جميعاً بالاسم. أجابت

المرأة أن المشاهير هم من يرتدون من هنا، ومن السهل التعرف عليهم. وذكرت بفخر بعض أسماء نجوم الشو وممثلي البرلمان.

«الآن سأعرفكِ أيضاً،» أضافت بابتسامة ودية. «وعديني أنكِ ستزورينا أكثر!»

وعدت مارتا. انتهت طقوس القهوة.

نظر الرجل إلى ساعته، ونهض، ومد يده إلى مارتا بلطف...

***

«لقد عرفت، وآمنت، وأملت، وحلمت، وتخيلت أن الأمر سيكون هكذا بالضبط!

يوم عادي - بسيط، ومضحك في سخافته - ثم، كما يقول الشعراء، «ضربة صاعقة» وكل شيء يتغير. هل حدث هذا أخيراً؟

ربما كان على شخص موجود في كل مكان أن يمررني عبر أيام طويلة من اليأس، والوحدة، والهذيان، والأمور البسيطة، ليقوم بحركة واحدة من يده ويمحو كل هذا؟ مثل المسرح، أن يغلق الستائر بإحكام ويعزلني عن الخوف، والملل، والحياة اليومية. منذ البداية، شعرت: أن شيئاً ما سيحدث. لكنني لم أتخيل ماذا بالضبط. أردت فعلاً، وتغييراً، وتجارب جديدة. لكن ليس هكذا...».

كانت الغرفة غارقة في رائحة الورود.

انعكس شكل باقة ضخمة، مضاءة بالقمر، على الجدار المقابل، وكانت الظلال المتجمعة للورود تشبه حشداً من الملائكة. ربما كانوا بالفعل ملائكة-جان يعيشون في الزهور.

إذا كان للوردة اسم - فهو اسمه...

شعرت مارتا برغبة في وضع أكبر وردة أرجوانية-سوداء بجانبها على الوسادة. وهذا ما فعلته.

ونامت، وهي تغمر أنفها في البتلات المخملية.

... حدث هذا قبل يومين فقط!

يومان - وانقلبت الحياة، وتحولت إلى رحلة مستمرة بين النجوم والزهور.

«لنذهب، لنتناول القهوة في مكان ما،» عرض عليها الغريب، بمجرد خروجهما من المتجر.

«وهل تلك التي شربناها الآن في المتجر لا تناسبك؟» سألت مارتا.

«أكواب صغيرة جداً!» ابتسم.

«هذا ليس سبباً.»

«عفواً؟» نظر إليها بانتباه، وكأن حدقتي عينيه السوداوين امتصتاها، سحبتاها، كما لو كانت في نفق.

«لا عليك...» هزت مارتا رأسها.

«إذن، هل نضرب على القهوة؟» عرض بأسلوب مبهج وبسيط.

«أنت دائماً هكذا...» لم تستطع أن تجد الكلمات، فالشاب لم يبدِ وقحاً. على العكس، على الرغم من مظهره الخارجي (لاحظت مارتا على الفور أنه يرتدي ملابس باهظة وساعة لا تقل قيمة)، بدا بسيطاً ومنفتحاً.

«... وقحاً؟» اقترح وابتسم. «بصراحة - لم أكن كذلك أبداً.»

«إذن، أنا أول فأرة تجارب لك؟»

شعر بالحرج وفجأة قال بطريقة طفولية تماماً:

«عفواً، لم أفهم... هل ترفضين؟ هل أنتِ مشغولة؟»

«أنا لست مشغولة بأي شيء،» فكرت مارتا، «ولم يدعوني أحد لتناول القهوة منذ فترة طويلة...».

«حسناً،» قالت. «لنذهب لشرب القهوة.»

لم تشعر أبداً من قبل بمثل هذه السهولة في التواصل مع رجل غريب. اتضح أنهما قرآ نفس الكتب، وكان لديهما نفس الاهتمامات الموسيقية. في عدة مناسبات، كان يكمل أفكارها باقتباس دقيق كانت تنساها في منتصف الكلمة. كانت مارتا تتوقف عن الكلام عمداً، لتختبر ما إذا كان الصمت سيكون ثقيلاً في المحادثة. لم يكن كذلك!

ديمتري (هكذا عرف صديقها الجديد عن نفسه) كان يروي قصصاً مثيرة للاهتمام عن البلدان التي زارها. كانت مارتا تستمع بسعادة لقصصه عن كرنفال البندقية، وأبراج فيينا، ومهرجان كان السينمائي.

أعجبها أيضاً أنه عندما كان يتحدث عن أشياء بعيدة المنال بالنسبة لها، لم يظهر أي تفوق. مثل الصبي، كان يضع على الطاولة ولاعة وكوباً لشرح تركيبة معقدة في الملاكمة بشكل أفضل، أو كان يعبس بشكل مضحك، محاكياً وجوه سيدات المجتمع في أوبرا فيينا.

في لحظة ما، شعرت مارتا برغبة في تمرير يدها على شعره، كما كانت تفعل مع ابن أخيها البالغ من العمر أربع سنوات.

«هل أبدو كالمجنون؟» سأل ديمتري، بعد أن لاحظ نظرتها. «أنتِ تنظرين إلي بشكل غريب جداً. هل أفعل شيئاً خاطئاً؟»

«لا،» طمأنته. «ببساطة لم أتخيل أن الرجال الذين يشترون أزرار أكمام ذهبية في متاجر الأزياء يمكن أن يكونوا مثلك...»

«أفهم،» أصبح جاداً. «لقد تشكل لديك انطباع معين بأن جميع رجال الأعمال الذين يشترون أزرار أكمام ذهبية يجب أن يكونوا، كما يقولون، ‹مربعين›. بالمناسبة، اشتريت هذه الأزرار لوالدي. عيد ميلاده غداً. وأنا لست من محبي كل هذه الملحقات. وأكره ارتداء البدل. لو كان بإمكاني تحمل ذلك، لكنت ارتديت بكل سرور بنطال جينز بالية مثلك...»

احمر وجه مارتا، فقد سمعت في كلماته الأخيرة سخرية خفية.

«نعم، يمكنني أن أتحمل ذلك!» قالت بتحدي.

«يا إلهي! أنا فيل في متجر للخزف!» ضرب رأسه. «لم تفهميني. على الأرجح، لا أعرف كيف أتصرف مع نساء مثلكِ.»

«بماذا أختلف عن نساء دائرتك؟»

«يا إلهي، أي ‹دائرة› هذه!» قال بحرارة. «في تلك الدائرة، كما تسمينها، لا يوجد أناس أحياء! هناك ‹محافظ› و‹أشياء›. المحافظ السمينة بأزرار الأكمام الذهبية تشتري أي شيء - بغض النظر عما إذا كان، ربما، ‹مستعملاً›!» كم أكره هذا المجتمع المشوه! العزاء الوحيد هو أنه، ربما، سيقرأ أطفالهم تلك الكتب التي يشتريها آباؤهم لخلق صورة أو ديكور.»

صمت. ثم أضاف بشكل حاسم:

«اسمعي يا مارتا، أهديني هذا المساء!»

... بعد ذلك، تجولوا في الشوارع، وكان يشتري لها في كل خطوة باقة من الورود ذات السيقان الطويلة. وعندما وصلوا إلى الواجهة المضاءة بالأضواء، وبناءً على نزوة من مارتا، أعطوا نصف الباقات للنساء اللواتي صادفوهن في طريقهم.

في المساء، بدأ المطر يتساقط، وتلألأت المباني، والتلال، والكنائس، والمقاهي على الرصيف في ضباب أزرق، كأنها ممالك تحت الماء.

«الآن ستكون هناك عاصفة. لننقذ أنفسنا!» أمسك ديمتري بيد مارتا ولم تلاحظ كيف كانا يجلسان بالفعل على طاولة مزينة بأناقة في قمرة أحد المطاعم العائمة على الماء.

ثم أوصلها إلى المنزل. جلسا في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة وصمتا طوال الطريق. انتهى اليوم الطويل. كان لا بد من وضع النقطة الأخيرة. أو على من؟

كانت مارتا تنظر من النافذة، وأضواء الشوارع تمر أمام الزجاج مثل الشهب.

«لا أعرف ماذا يجب أن أقول عندما أريد أن أرى امرأة مرة أخرى،» كسر الصمت أخيراً. «هل ستساعدينني؟»

«سأقول إنني لا أمانع...» ابتسمت مارتا.

«حقاً؟» فرح.

«حقاً.»

«إذن سأنتظرك غداً، فقط قولي لي أين...»

أوصلها إلى مدخل المبنى، وقبّل يدها.

هذه المرة ليس على المعصم، بل قلب كف يدها بعناية، وقبّلها بلا وزن وبحذر، مثل طائر ينقر حبات القمح.

ضحكت مارتا من الدغدغة والمفاجأة.

في المصعد، ضغطت كف يدها على شفتيها، وبدا لها أن قبلته تفوح منها رائحة الورود.

«مارتا؟ أين اختفيتِ؟»

صوت سيرجي في سماعة الهاتف جعل مارتا تعبس بانزعاج، كما لو كانت تعاني من ألم في الأسنان.

«كيف هي... أي، كيف هي أمورنا؟ هل عرفتِ شيئاً؟»

«سيرجي، انظر إلى الساعة! السابعة صباحاً! أنا ما زلت نائمة.»

«لكنني حاولت الاتصال بكِ قبل يومين، وأمس،» بدأ يبرر. «لم تكوني موجودة. قلقلت. هل عرفتِ شيئاً عن زويا؟»

«أي زويا؟...» بدأت مارتا تشعر بالانزعاج. «فكر، لماذا يجب أن أهتم بأمر صديقتك؟»

ساد صمت طويل في السماعة.

«أنا لا أفهمكِ،» قال أخيراً. «في البداية أنتِ من بدأتِ هذه الفوضى، والآن تقولين إنك لا تعرفين أي زويا.»

«أنا حقاً لا أعرفها ولم أرها أبداً! أعتقد أن البحث عن خطيبتك السابقة هو شأنك. وبشكل عام، لقد سئمت من كل هذا. لماذا أنتم أيها الرجال تحبون إلقاء مشاكلكم على أكتافنا الهشة؟ ألا يبدو لك هذا

غريباً؟»

«ما يبدو لي غريباً هو أنكِ أصبحتِ باردة جداً. تذكري، أنتِ من وجدتني...»

«وماذا في ذلك؟ لقد لفت انتباهك إلى الموقف. إذا كان يقلقك بنفس القدر الذي يقلقني، فاستمر في البحث، افعل شيئاً، اتصل بالشرطة. أما أنا فقد سئمت من لعب دور المحققة، أنا لست في العاشرة من عمري. وفي النهاية، لدي أمور أخرى لأفعلها. هل تفهمني؟»

«بصراحة، ليس كثيراً. ولكن بشكل أساسي، كل شيء واضح لي. لقد لعبتِ واللعبة أصبحت مملة لكِ. أرجو أن تعذريني. وداعاً.»

ترددت أصوات متقطعة قصيرة في السماعة.

غطت مارتا رأسها باللحاف، لكنها لم تستطع النوم مرة أخرى.

اليوم، مثل الأمس، كان من المفترض أن تلتقي بديمتري. ولذلك، كان عليها أن تستعد جيداً، وتقرر ماذا سترتدي، وكيف ستصفف شعرها.

الآن لن تتجول بملابس عادية! الفترة الصعبة انتهت. لقد عاشت لمدة عام تقريباً مثل يرقة قبيحة. يجب أن تضع حداً لذلك، وتنظر إلى العالم بعيون مختلفة، وتخرج من شرنقتها.

بالأمس، عندما علم ديمتري أنها في إجازة، لمح إلى رحلة سياحية معاً. بالطبع، رفضت، قائلة إنها لن توافق أبداً على السفر على حساب شخص آخر. كلمة «آخر» أهانته. طوال المساء، كان يسأل من وقت

لآخر عما يجب أن يفعله من أجلها حتى لا تشعر بأنه «آخر». ابتسمت مارتا: «الوقت سيكشف!»

«الوقت؟ كم من الوقت؟ بالنسبة لي، الوقت مضغوط جداً،» قال، «حتى أن يوماً واحداً يبدو وكأنه أسبوع! لقد عشت في هذا الإيقاع الجنوني منذ فترة طويلة. ولا يوجد علاج لذلك! إذا تزوجت، فسيكون ذلك بسرعة البرق.»

ضحكت، لكن الجملة الأخيرة اخترقت جرحاً لم يلتئم بعد.

«نعم، نعم، لا تضحكي،» أومأ برأسه بجدية. «الأمر مثل القصة الخيالية: جرب الحذاء، ناسبه، وتزوجا. أنا لا أعترف بشيء آخر. الوقت يقتل كل شيء. كم تحتاجين من الوقت لـ ‹اختبار المشاعر›؟ نصف عام؟ عام؟ عامين؟ أما أنا، فأعتقد أن كل شيء يقرر هناك،» رفع إصبعه إلى الأعلى. «وفي لحظة واحدة. لا يمكن أن يكون الأمر مختلفاً! وإلا - لا يوجد أي متعة. عندما رأيتك، انقلب كل شيء رأساً على عقب بداخلي. وأنا أثق بحدسي. تعلمين، يحدث هذا عندما تقرأ كتاباً جيداً أو تنظر إلى لوحة عبقرية لفنان قديم: في لحظة ما، تصبح كل مشاعرك ذات حساسية حيوانية، ويتم فهم كل شيء على مستوى الغريزة. لقد أصبحنا عمليين جداً. وأعتقد أن هذا هو السبب في أننا نرتكب الأخطاء، لأننا لا نستمع إلى أنفسنا. قولي لي، ألم تشعري بأي شيء عندما رأيتني لأول مرة؟»

لم تعرف مارتا ماذا تقول.

بالتأكيد، كانت تتذكر جيداً الانطباع الأول لعينيه السوداوين الشبيهتين بالنفق، ولكن هل يجب أن تعترف بذلك على الفور؟

«لم أفهم شيئاً،» أجابت بابتسامة. «هل أنت تتقدم لي؟ أنت لا تعرفني جيداً! ماذا لو كنت محتالة عادية، خططت خصيصاً لاصطيادك - شاب ثري، جاء واشترى بسهولة أزرار أكمام باهظة في متجر باهظ الثمن؟ هل يمكن أن تكون واثقاً إلى هذا الحد؟»

أعجبتها حيرته الأصيلة. لاحظت منذ فترة طويلة أن بعض الأسئلة الحياتية العادية تربكه. انعزاله عن الحياة، التي عاشتها هي والملايين مثلها، كان في نفس الوقت مخيفاً وجذاباً. كان بإمكانها بالفعل أن تلمس شعره المجعد، وفعلت ذلك بسرور.

أمسك بيدها. ومثلما فعل في الليلة الأولى، قبّلها، بعد أن قلب كف يدها، وجلس لبضع ثوان، وهو يغمر وجهه فيها.

«يدكِ تفوح منها رائحة البحر... إذا قلتُ إنني أحبك - هل سيكون ذلك مبكراً جداً؟»

«نعم،» ابتسمت بلطف. «لكنني سعيدة جداً بذلك على أي حال.»

منذ تسع سنوات

اليوم عيد ميلاد ليوليا الخامس والثلاثين!

التاريخ ليس مميزاً، لكن ميكي يقرر لأول مرة أن يشتري لها هدية «للكبار». بعد كل شيء، من أجل ذلك، عمل في محطة وقود لمدة نصف شهر. كان يغسل ويملأ سيارات الآخرين، ويقبل الإكراميات بانحناءات وبقدر من الاشمئزاز. أخبر ليوليا أنه يذهب لممارسة الكيمياء مع والد صديقه: فقد عرض عليه دروساً مجانية، لأنه يدرس مع ابنه على أي حال. كانت ليوليا سعيدة: سينهي ميكي الصف الحادي عشر هذا العام، وعليه أن يلتحق بالجامعة. وقراره لا يتغير: الطب.

ميكي يحصي النقود - خمسون دولاراً! لقد اهتم بالفعل بالهدية التي يجب أن تكون. هو يعرف ما تحتاجه! ستكون ليوليا سعيدة.

الآن، كما كان في طفولته، لم يعد يناديها «يا عمة».

كيف يمكن أن تكون «عمة»؟ إنها جميلة جداً، ورشيقة، وذات ساقين طويلتين يناسبهما الشورت الجينز. تبدو أصغر سناً بعشر سنوات!

ميكي أطول منها برأس كامل، وكل الأعمال المنزلية على عاتقه.

ليوليا... هذه هي من لا تتناسب أبداً مع كتاب ملاحظاته. ليوليا بالنسبة لميكي هي أداة متكاملة، إنها مثل عين كبيرة - موجودة في كل مكان. كان هذا دائماً، لكنه لم يستطع أن يفهم ذلك من قبل، لأنه كان صغيراً جداً.

الآن كل شيء تغير.

تعيش ليوليا في رأسه، كما يقول الغرباء، وهو ذكي جداً بالنسبة لسنه. العين-ليوليا تراقبه عندما يتجول في المدينة ويشعر بجلده كم هي قبيحة، وزلقة، مثل الأحشاء، مشبعة بأوساخ الهالات الغريبة، ومليئة بالحشرات، مثل القصب. في مثل هذه الساعات، يختبئ في الأزقة، مثل كلب يهرب من حذاء شخص ما!

وعين واحدة كبيرة في الأعلى - عين ليوليا! - تمنحه الأمل، وتجلب الهدوء، والإنقاذ، والعزاء، والغفران...

هو مستعد لفعل أي شيء من أجل هذه العين. لكن، يشعر ميكي بالارتباك، من هو بالنسبة لها؟ ولو علمت كل شيء، هل كانت ستستطيع أن تنظر إليه هكذا، في أكثر اللحظات قدسية؟ ألن تحوّل نظرها؟ هذا هو السؤال...

إنه بالنسبة لها مجرد لعبة حتى الآن.

يشعر ميكي بالحمى. العين-ليوليا تنظر إليه دائماً، وتراقبه، كما لو كان ذلك الصبي الصغير السابق. هي المحاوِلة، وهو الفأر التجريبي. ولا يوجد علاج لذلك.

عندما يعانقها، لا يستطيع أن يوقف الارتعاش، ويفقد إيقاعه، ويلهث - وهي تضحك. وتمسح على رأسه، مثل طفل تبول في السرير! هذا لا يطاق.

لو رأته بشكل مختلف - بمفرده مع الآخرين! كانت ستفهم بالتأكيد أنه لم يعد صغيراً منذ فترة طويلة، وليس لعبة. يا ليت ذلك يحدث! لكن لكل شيء وقته، يفكر ميكي.

ليوليا تحب المشاعر الحادة، هذا ما يعرفه ميكي على وجه اليقين.

يغادر الشقة، ويتجه إلى المدينة. هناك، في شارع هادئ، يوجد متجر في قبو. دائماً ما يكون عدد الزبائن قليلاً هناك. يغير ميكي المال، ثم يختار الهدية بعناية: طوق جلدي وعلبة شموع معطرة.

يعرف أن ليوليا ستتفاجأ، لكنها ستكون سعيدة.

وسيقيم حفلة لشخصين في منزله! سيذهبان إلى هناك معاً لأول مرة. سيشتري ميكي زجاجة شمبانيا، وحلويات، وفواكه. ليوليا كانت تلمح منذ فترة طويلة إلى أنه يجب التفكير في بيع شقة والدته، ودمج الشقتين في شقة واحدة كبيرة وواسعة، حيث سيكون لكل منهما غرفة نوم خاصة به. هذه الفكرة لم تعد تخيف ميكي، فهو يعرف أن العين-ليوليا أصبحت ملكه الآن. لماذا إذن طردت جميع خاطبيها - هؤلاء البغيضين، ذوي البطون الكبيرة، الذين كانوا أحياناً يجلبون الحلوى والكونياك، ويضايقونها بالمكالمات، وأحياناً يأخذونها إلى البحر. وفي تلك الأوقات، كان ميكي يعوي على الأبواب المغلقة، مثل كلب، ويستلقي تحت العتبة، مثل كلب. لم يذهب إلى المدرسة، ولم يأكل، ولم ينم. الآن كل هذا وراء ظهره. هو متأكد من ذلك.

«بالطبع، لا يمكنني الإصرار على ذلك،» تقول ليوليا بشأن الشقة.

«هذه الشقة هي ملكك، ميراثك. ستتزوج يوماً ما...»

يعرف ميكي أنها تتظاهر، وأن فكرة الانفصال لا تطاق بالنسبة لها أيضاً.

العين-ليوليا ربته لنفسها. خلال هذه السنوات، لم تكن في تلك الشقة إلا بضع مرات. لا يمكنها أن تتحمل رؤية الأرضيات المغبرة وتلك النافذة الملعونة...

يعرف ميكي أنه من الصعب عليها أن تتنفس هناك.

لكن اليوم سيقوم بتنظيف شامل، ويجهز المائدة. وخلال العشاء، سيتحدثان عن البيع، لقد وجد بالفعل بعض الخيارات الجيدة. ومن أجل مصالحه الخاصة، يمكنه استئجار شقق - ليوم أو يومين - في أجزاء مختلفة من المدينة.

إنه يريد أن تعيش العين-ليوليا مثل الملكة.

وهذه أيضاً هدية.

***

المساء والليل. ليوليا الرائعة، المذهلة...

يشعر ميكي أنه في كل مرة يقتلها وفي كل مرة تولد من جديد - أجمل، وأكثر جمالاً.

ليوليا خالدة. تصرخ وتموت.

لكن عيناها تظلان مفتوحتين دائماً، تنظران إليه.

أحياناً، تغوص الحدقتان تحت الجفون، وتتقلبان، كما لو كانت ميتة. لكن هذا يستمر للحظة فقط. هو يحب هذه اللحظة، هذا الموت السريع والبعث، وسلطته القصيرة على العين.

ليوليا هادئة، حتى إنها غير مبالية قليلاً في الصباح الباكر.

هذا يثيره. ويشعر مرة أخرى برغبة في قتلها، لرؤية الاحتضار اللحظي والعودة السعيدة.

ليوليا لا تئن أبداً، لا تصدر أي صوت مقزز، كما يظهرون في الأفلام. صمتها، كصمت أيقونة.

ميكي يكره الأفلام الرخيصة، إنها بعيدة جداً عن الحياة! وحياته الحقيقية هي هذه الساعات الليلية، عندما يقتل العين-ليوليا لفترة طويلة وبحلاوة ولن يقتلها أبداً.

في الصباح الباكر، يصعب عليه الاستيقاظ، إنه يهذي، يتذكر كل دقيقة من المتعة.

ليوليا تصنع القهوة، وتدهن الخبز بالزبدة...

«لماذا لم نذهب إلى المنزل؟» يسمع صوتها الغاضب عبر نومه الصباحي. «هنا الكثير من الغبار! يجب تنظيفه إذا كان المشترون سيأتون...»

يتظاهر ميكي بأنه نائم، يسمعها وهي تتحرك في الحمام، تصدر صوتاً بالدلو. تملأ الماء. تبحث عن قطعة قماش. قلب ميكي ينبض ويتوقف.

للحظة، يسود الهدوء كل شيء. يخمّن ميكي لماذا...

يفتح عينيه. يرى شكلها فوقه.

ليوليا تمسك بقطعة من الخرق في يديها، التي سحبتها من تحت الحمام - سروال داخلي شبه متحلل، قطع قماش ملونة لا تشبه الملابس، جوارب صدئة من الرطوبة، جوارب نسائية ممزقة مقززة...

إنها صامتة. إنها تتقلب هذه الخرق بين يديها بذهول.

ينظر إليها ميكي بابتسامة.

إنه سعيد. أخيراً ستفهم أنه ليس لعبة!

في عينيها، يرى رعباً أصيلاً. تتطاير حزمة مقززة من القمامة النتنة شبه المتحللة في وجهه.

«ما هذا؟» تصرخ ليوليا وتجلس على السرير، مثل دمية خرقة. «يا صغيري، ما هذا...؟» تهمس.

ثم تضربه ليوليا بكل قوتها على خديه.

لم تعد غير مبالية.

إنها حية! يشعر ميكي بجلده كله كيف يرتعش كل خلية في جسدها.

أخيراً! ميكي، بحركة جديدة وغير مألوفة بالنسبة لها، يخرج سيجارة من علبتها. إنها لا تعلم أنه يدخن! دعها تعلم.

وبعد ذلك، تبكي العين-ليوليا، كما فعل هو في ذلك الوقت. وفي هذا المكان بالذات، حيث كان يرغب ذات مرة في إنهاء الآيس كريم.

«لا شيء،» تهمس ليوليا بحرارة فيما بعد، وهي تعانقه بنفس الطريقة التي كان هو يعانقها - في ذلك الوقت، «سنجد حلاً... لا شيء، يا وسيم...»

يرى ميكي بسعادة كيف تغمض عينيها، ويشعر بارتعاشها.

أخيراً! هو يحب عندما تكون عيناها مغلقتين ولا شيء يزعجه.

يرمي السيجارة.

«لا تنظري إلي...» يأمر، وهو يعلم أنه الآن ليس عليه أن «يصنع وجهاً»، وأن وجهه الآن هو ما يجب أن يكون عليه - قاسياً، بملامح حادة، رجولياً حقاً. يجب أن تشعر العين-ليوليا بذلك من خلال لمساته - التي هي أيضاً رجولية.

وهو لا يريد أن ترى ليوليا له بهذه الطريقة عن طريق الخطأ وتخاف.

***

«هؤلاء الأشخاص، كما قد تظنين، من ‹دائرتي›. لكنك ستفهمين

بنفسك كم أنتِ مخطئة،» قال ديمتري لمارتا، وهما في طريقهما إلى المطعم. «لا أفهم لماذا هم يثيرون اهتمامكِ بهذا الشكل. لكن رغبتكِ هي قانون. سأتحمل هذه الحفلة من أجل شرفكِ. أنا متأكد من أنكِ أيضاً ستشعرين بالملل.»

«أنت لا تفهم،» أمسكت الفتاة بيده وضغطت على كتفه، وهي تستنشق رائحة عطره بسعادة. «أريد أن أعرف عنكِ أكبر قدر ممكن! لا تغضب لأنني طلبت حضور هذا العشاء. يبدو لي أنك لا تعرف كم أنت حساس. من السهل جداً إهانتك أو خداعك. بمجرد التفكير في ذلك، أشعر بالرعب. أريد أن أعرف من يحيط بكِ لأكون مرتاحة، أو...»

«أو ماذا؟» ابتسم بلطف.

«أو سأقتلهم جميعاً!» زفرت مارتا بحرارة.

ضغط على يدها، وشعرت في هذه الحركة بالامتنان.

في المطعم، على طاولة معدة، كان هناك شخصان في انتظارهما.

عندما نظرت إليهما، ابتسمت مارتا في ذهنها بسخرية: بالطبع! قمصان بيضاء، ربطات عنق أنيقة، مربوطة بشكل مثالي تحت الياقات، وسترات كأنها على عارضات.

رجال بالزي الأسود! كل ما ينقصهم هو النظارات. على الرغم من أن النظارات والهواتف المحمولة كانت موضوعة بجانب الأطباق على الطاولة.

بينما كانت تسير في القاعة تحت أنظار كثيرة، شعرت مارتا وكأنها دوقة، وكأن زيارة أفخم مطعم فرنسي في المدينة لم تكن الأولى لها.

كانت ترتدي فستاناً جديداً - هدية من حبيبها - نفس الفستان من المتجر.

كان للفستان فتحة عميقة - ولكن ليس من الأمام، بل من الخلف - حتى أسفل منتصف الظهر. قبل أسبوعين، لم تكن لتجرؤ أبداً على ارتداء شيء كهذا! والآن، كان من دواعي سرورها أن تشعر بهذه التغييرات الغامضة، والتي بدت لها لا رجعة فيها.

«لقد حدث تجسيد جديد! أنتِ تشبهين مدام ريكاميه،» همس ديمتري، وهو يرمقها بنظرة قبل دخول القاعة.

الآن، كان الرجال الذين يجلسون على الطاولة ينظرون إليها بنفس الانبهار.

«'هؤلاء هم ‹المحافظ›،» تذكرت مارتا التعريف الذي سمعته من ديمتري. «ينظرون كما لو كانوا مشترين في السوق. لكنني لا أريد أن أبدو لهم كشيء. لن يحصلوا على ذلك!».

مدت مارتا يدها بعفوية، أولاً لأحدهم، ثم للآخر - وبنفس الطريقة، كما لو كانت تقوم بهذه الحركة يومياً. سلمت عليهم، وقالت اسمها، وتحملت القبلات على يدها، وجلست مقابلهم وشعرت على الفور تقريباً أن ديمتري كان على حق: ستشعر بالملل.

تفرس الحاضرون في القائمة، المصممة على شكل مخطوطة قديمة، وهم يصدرون أصواتاً بالملل. استمر هذا لمدة عشر دقائق. كان النادل يقف بإذعان فوق رؤوسهم. في طلبات الرجال، شعرت مارتا بقدر كبير من التباهي. ما قيمة الحلزون في قوقعته على كومة من الملح!

شعرت مارتا بالرعب في ذهنها وأرادت أن تفعل شيئاً يجبرهم على خلع أقنعتهم.

سكب النادل النبيذ ببطء.

رفع أحد الأصدقاء، الذي بدا أنه يُدعى ألكسندر، كأسه:

«لقد مرت شركتنا أربعة عشر عاماً تقريباً. ومرت سبع سنوات منذ انضمام السيد ديمتري إلينا، ومنذ ذلك الحين، تحول عملنا إلى فن! أقترح أن نشرب للنجاح، وبالطبع، لأولئك الذين يزينون عملنا ويجعلونه ممكناً!»

نظر إلى مارتا بانتباه وصرخ:

«من أجل فن أن تكوني امرأة! وبشكل خاص، من أجل السيدة الساحرة الحاضرة هنا...»

ضحك الرجل الثاني - الذي قدم نفسه باسم نيكيتا - ورفع كأسه نحو كأس مارتا، وشعرت هي بيد ديمتري الدافئة تلمس ركبتها بطريقة مطمئنة.

«لدي اقتراح مضاد،» قالت بشكل غير متوقع. «لنرفع نخب تحقيق

أعمق رغباتنا!»

«حسناً، هذا تقريباً نفس الشيء!» ضحك نيكيتا. «الرغبات الخفية للرجال دائماً مرتبطة بالنساء! أقبل اقتراحكِ! من أجل الرغبات الخفية!»

ارتطمت الكؤوس وحدث صمت مرة أخرى.

شعرت مارتا بالخجل فجأة - لماذا أصرت على هذا اللقاء؟ نعم، ديمتري لطيف جداً ولم يستطع أن يرفضها، ولكن في المستقبل، يجب أن تحذره ليخبرها دائماً كما هي الأمور، بدلاً من أن ينفذ رغباتها بلا تردد. لأنه أصبح واضحاً: الرجال اجتمعوا للحديث عن الأعمال، وهي زائدة هنا.

ربما تكون مجرد زينة للطاولة. مثل هذا الحلزون الغريب على جبل من الملح البلوري.

احمر وجه مارتا وشعرت بالارتباك: أي امرأة أخرى من «دائرتهم»، تعرف قواعد الإتيكيت وتفهم النوايا الخفية، لم تكن لتأتي إلى هنا أبداً، ناهيك عن ارتداء ملابس وكأنها في احتفال.

لم تعرف كيف تصلح الموقف.

ربما تختلق أمراً عاجلاً وتغادر؟ لكن ديمتري لن يفهم وسيغضب - لقد بذل جهداً كبيراً في إعدادها لهذا المكان، وفحصها، ووضع اللؤلؤ حول رقبتها، واختار الأحذية لتتناسب مع لون اللؤلؤ. توسل إليها أن

تسير أمامه عشر مرات. أرادها أن تبدو في أفضل حال. وقد فعلت ذلك بسرور كبير. ولكن لماذا، لماذا لم تفهم تلميحه بأنها ستشعر بالملل؟ بسبب حساسيته، لم يستطع أن يقول إن هذا اجتماع عمل. بدون نساء أو مرح.

«هل هناك خطأ ما؟» قال لها ديمتري بهدوء.

«كل شيء على ما يرام،» أجابت هامسة. «آسف، أدرك أنني أفسدت عليك اجتماع عمل.»

لمس ديمتري ركبتها مرة أخرى بلطف، وكأنه يقول: «كل شيء على ما يرام، لا تقلقي.»

تنهدت مارتا وقررت أن تتحمل.

على الأرجح، شعر الرجال أيضاً بالحرج. لكسر الصمت، سألت مارتا بتهذيب، وهي توبخ نفسها على السخف، في أي مجال يعملون. كانت تستمع بنصف أذن إلى نيكيتا، الذي بدأ يتحدث بإسهاب عن «الموارد البشرية»، وكانت مارتا تبحث بشكل محموم عما يمكنها التحدث عنه بعد ذلك - عن الطقس، أو الأفلام، أو الموسيقى؟

آه، لماذا، لماذا جاءت إلى هنا؟!

شعر ديمتري بمزاجها على الفور ورفض طلب «طبق رئيسي».

«علينا أن نغادر قريباً...» قال.

«حسناً، أهم شيء فهمناه،» وافق ألكسندر وأضاف، وهو ينظر إلى مارتا: «امرأة ساحرة! عندما أرى مثل هؤلاء النساء، أرغب في أن يعشن هنا فقط...»

أظهر كف يده وأغلق أصابعه ببطء.

«... وليس أن يمشين في شوارعنا الإجرامية. التزمي بهذا الأحمق،» ربت على كتف ديمتري. «إنه موثوق به!»

«أنا أعرف...» قالت مارتا بفخر.

«'موثوق به'...» تمتم نيكيتا، الذي كان يصب الكأس الرابع لنفسه. «لنأمل ذلك.»

«اترك الأمر يا ميك!» قاطعه ألكسندر. «يبدو أنك تناولت ما يكفي.»

أومأ برأسه مرة أخرى بود لمارتا.

«كل شيء سيكون على ما يرام، أليس كذلك؟»

وأومأت برأسها بثقة.

«بالتأكيد.»

«بالتأكيد'...» ردد نيكيتا.

شعرت مارتا بالغضب: كان يسخر منها على الأرجح. من الواضح أن لديه بعض الأعمال مع حبيبها، وقد أفسدت المحادثة. حسناً، فليكن!

عندما يغادرون من هنا، ستخبر ديمتري بالتأكيد أن هذا النيكيتا لا يثير ثقتها - دعيه يعرف الحقيقة.

تنهدت مارتا بارتياح عندما جاء النادل بالوجبة الثانية، وهذا سمح لديمتري بالنهوض.

مد يده لمارتا.

«حان وقت الذهاب...»

«حسناً!» أومأ ألكسندر.

«أمامك أسبوع،» تمتم نيكيتا، والتفت إلى مارتا، انحنى بلطف مصطنع: «اعذريني، أيتها الساحرة، العمل لا يحتمل الانتظار!»

عندما كانا يسيران إلى المخرج، لم تعد مارتا تشعر بأنها دوقة. على العكس: كانت تشعر بأنها غبية، أفسدت على الرجال محادثة لا علاقة لها بها.

«لم يعجبوني. خاصة هذا ‹ميك›،» قالت لديمتري. «لقد تصرفوا معك بطريقة... متعجرفة.»

تنهد بشدة:

«في الوقت الحالي، لا يمكن أن يكون الأمر مختلفاً: أنا مدين لهم.»

«بماذا؟ بالكثير؟» قلقلت مارتا. «ربما يمكنني المساعدة في شيء ما؟»

«لا تقلقي، يا حبيبتي،» تنهد مرة أخرى. «سأحل كل شيء قريباً. و...»

عانقها بلطف من خصرها

«وبالطبع، لا يمكنني الاستغناء عن مساعدتك! أين سأذهب بدونكِ!»

ابتسم ولمس طرف أنفها بإصبعه، كما لو كانت طفلة صغيرة.

كانت لفتة أمومية حلوة ومنسية. دمعت عينا مارتا.

في سيارة الأجرة، فركت مارتا خدها بلطف على كتفه وهمست:

«أنا غبية... هناك الكثير من الأشياء التي لا أفهمها - أخبرني دائماً بكل شيء مباشرة. لم أكن لأذهب إلى هناك أبداً. أنا آسفة.»

«كل شيء على ما يرام،» قال وهو يضع يده حول خصرها. «لقد رأيتِ ببساطة أنه لا يوجد شيء مثير للاهتمام في هذا الجزء من حياتي. وأنتِ - كل شيء بالنسبة لي...»

***

كانت مستلقية على ظهرها وتنظر إلى السقف، إلى الظلال الزرقاء التي تنعكس عليه.

كانت تلك ظلال الأشجار التي تحيط بالنافذة. من الرياح التي هبت في الشارع، كانت الأشجار تتأرجح، وكانت الظلال على الجدران

تتشابك في أنماط. كان الحفيف المسموع عبر النافذة المفتوحة يشبه خشخشة الأمواج. أول يوم بارد منذ منتصف الصيف. الأغطية الباردة، رائحة العطر، عبير الأنفاس بجانبها على الوسادة.

بدا لمارتا أنهما يستلقيان في قارب وسط البحر - وحدهما في العالم كله. والأمواج تحملهما إلى شاطئ ذهبي، إلى حياة أخرى لن يكون فيها مكان للروتين، واليأس، والهذيان.

الآن نادراً ما كانت تستطيع النوم على الفور - كانت تفكر، تفكر، وهي مندهشة من كيف تغيرت حياتها. في غضون أسبوعين فقط، تحولت إلى قصة خيالية - تلك التي كانت تحلم بها في ليالي طفولتها، بينما كانت تستمع إلى والديها يتشاجران بوقاحة، وإلى والدتها تبكي وتلعن ليس فقط والدها، بل معه كل العائلة، التي «استنزفت منها كل عصارتها».

ربما لهذا السبب أرادت أن تترك المنزل في أسرع وقت ممكن، وتزوجت مبكراً جداً.

في الواقع، فكرت مارتا، من جانبها، كانت هذه خطوة نحو الحرية والاستقلالية، التي تحولت لاحقاً إلى تبعية عادية. اعتادت على الانصياع، واعتادت على التصرف بنفس طريقة والدتها: الوقوف كل مساء بجانب الموقد أو الانحناء على الغسيل (فقد رفض أندريه رفضاً قاطعاً التوفير لشراء غسالة، لأنه أراد شراء سيارة) وفي إحدى المرات، وجدت نفسها تفكر في نفس الفكرة - أن هذا يستنزف منها كل

عصارتها. والرعب لم يكن في الفكرة نفسها، بل في حقيقة أن حياتها تسير في نفس الدائرة.

المهنة التي حصلت عليها في كلية الصناعات الخفيفة لم تكن تجذبها، لأنها لم تتمكن أبداً من أن تصبح مصممة أزياء، ومنصبها الصغير في مصنع الخياطة بدا لها طريقاً مسدوداً، أكثر ضيقاً من الوقوف بجانب الموقد كل مساء. كانت المشكلة أيضاً تكمن في أن مارتا كانت تعرف تماماً: أنه يجب أن تكون هناك حياة أخرى في مكان ما، وأناس آخرون، ومحادثات أخرى غير تلك التي كانت تسمعها بين زميلاتها.

ولكن من أجل العثور عليها، هذه الحياة، تلك نقطة الانطلاق التي يجب أن تبدأ منها، كان عليها أولاً أن تغير ما هو موجود. أن تغيره بشكل جذري وجريء. لكن هذه الجرأة كانت كافية فقط للطلاق ودورات القيادة، التي التحقت بها من أجل هذا التغيير.

تذكرت مارتا كيف كانت تنظر إلى نفسها في المرآة، وهي تستعد للعمل أو لتلك الدورات، وتفكر بأسف في أنها - الشابة، الجميلة، النحيلة، و، كما كانت صديقاتها يؤكدن، المثيرة، لا تزال وحيدة. ولا أحد يثير اهتمامها. والاعتماد على الروتين اليومي كان متجذراً لدرجة أنه لا يمكن إزالته إلا بالزرادية! هي أيضاً تتردد في شراء غسالة بالتقسيط، وتخاف من قول شيء خاطئ في الشركة وتعود إلى المنزل مثل فأرة في جحرها، وتأكل قطعة الجبن الخاصة بها، وهي تبتلع دموع الغضب.

لكن المغامرة مع الهاتف غيرت الحياة بشكل جذري، ومنحتها نقطة الانطلاق التي كانت تبحث عنها. إنه أمر غريب ومخيف قليلاً: هل كل شيء يعتمد على الصدفة، على تزامن الظروف، على تفصيل تافه يمكن ببساطة تجاهله. وعدم معرفة أبداً أن هذا التفصيل كان «نقطة انطلاقك» لرحلة عظيمة.

ارتعشت مارتا من هذه الفكرة.

كانت الظلال الزرقاء على السقف تتأرجح - لقد أبحر القارب ومضى بعيداً جداً في البحر، تاركاً وراءه كل الشكوك. لقد وجدت القوة والذكاء للاستجابة لدق جرس القدر!

نظرت مارتا بحنان إلى الرجل النائم بجانبها. بالتأكيد لن يكون هناك روتين منزلي معه. كل ما فعله أو قاله كان يفوح بالثقة والجدة، التي لم تعتد عليها مارتا، لكنها ستعتاد عليها بالتأكيد، لأنها خلقت خصيصاً لمثل هذه الحياة، التي تمر في السفر، وفي معرفة الجديد، وفي الإعجاب والأفكار السامية، وفي النهاية - في الحب. فقد تبين أن ديمتري كان على دراية بالعديد من الأشياء المجهولة وغير المفهومة بالنسبة لها، أو تلك التي كانت تفكر فيها أحياناً بنفسها، لكنها لم تستطع أن تجد الكلمات المناسبة للتعبير عنها.

استمتعت مارتا بتذكر محادثتها اليوم - بعد عودتهما من المطعم إلى شقتها. وهي تتذكر ذلك العشاء الممل، تحدث ديمتري بإسهاب وذكاء عن الخير والشر - بطريقة لم تخطر على بال مارتا أبداً، لأنها اعتادت

استخدام مبادئ غُرست في رؤوسهم منذ المدرسة. مثل أن «الخير ينتصر دائماً على الشر».

في الواقع، بدأت المحادثة عندما قالت هذه الجملة عرضاً بخصوص لقاء اليوم. لكن ديمتري عارضها بحماس وبحجج قوية. وفعل ذلك ببراعة وحكمة لدرجة أنها شعرت بالدهشة من هذا الاكتشاف الجديد لهذه البديهية، التي تبدو صحيحة للوهلة الأولى، ومتناقضة من ناحية أخرى.

«خلق الله العالم متناغماً،» قال ديمتري. «كل شيء فيه يجب أن يكون متوازناً. وفقاً لقانون الأواني المستطرقة. هل تفهمين؟ لذلك، يجب ألا تطغى كفة على الأخرى أبداً - يجب أن يكون كل شيء على نفس المستوى! في العالم يوجد قدر من الحب بقدر ما يوجد من الكراهية، وقدر من الألم بقدر ما يوجد من السعادة، وقدر من الدموع بقدر ما يوجد من الضحك. الشر لن يتفوق أبداً على الخير، تماماً كما لن يحدث العكس أبداً. هل تتخيلين ما الذي سيتحول إليه الخير إذا انتصر؟ من أجل الخير الذي تحملينه للناس، قد يُصلبون. ولكن بهذه الطريقة - كل شيء متوازن. إذا أضاف شخص ما قطرة على كفة الشر - في مكان آخر، ربما في الطرف الآخر من الأرض، يضع شخص ما ريشة نعمة على الكفة المقابلة. ويعود كل شيء إلى التوازن مرة أخرى. المشكلة الوحيدة هي أنه في لحظة هذا الاختلال المؤقت، تُرتكب الأفعال غير العادلة. ولكن في لحظة أخرى، عندما توضع ريشة الخير على الميزان - تُكتب القصائد، وتُؤلف الأشعار، ويأتي الإلهام

للعلماء والفنانين، ويولد العباقرة و... يلتقي أولئك الذين قدر لهم أن يلتقوا.»

«أي أنه خلال لقائنا، قام شخص مجهول بتوازن الكفتين بفعل صالح؟» ابتسمت.

«هذا صحيح، يا صغيرة،» أجاب بجدية وأضاف بتفكير: «وبعد ذلك، جاءت لحظة الظلام مرة أخرى. هذا يجب أن يحدث. التناغم هو أرجوحة، محرك أبدي، بدونه سيسود العالم الفوضى...»

تحركت مارتا ووضع ديمتري يده عليها في نومه.

هذه اللفتة الطفولية ملأتها بالحنان.

وفكرت فجأة أن تلك الشابة، التي كانت مهددة عبر الهاتف الذي عثرت عليه، لم تكن على الأرجح سعيدة أبداً - تلك الغبية الريفية المسكينة التي وقعت في أيدي رجل غيور. من الجيد أنها وجدت القوة للهرب منه. ربما كانت «نقطة انطلاقها» تقع عند تقاطع مع نقطة انطلاق مارتا.

أي، في تناغم وتوازن: شخص ما فقد شيئاً (لحظة تفوق الشر!) - شخص ما وجده (لحظة العدالة!). ولكن في كلتا الحالتين، سار كل شيء نحو الأفضل، فكرت مارتا، وهي تغفو في الوميض المهدئ وخشخشة الأمواج الزرقاء...

***

عندما أيقظها الهاتف، كانت الساعة حوالي الحادية عشرة صباحاً. لم تنم أبداً كل هذا الوقت!

قفزت مارتا، وهي لا تدرك بعد لماذا الغرفة مضاءة جداً، ولمست الوسادة الأخرى بحركة ميكانيكية - كانت باردة، ولكن تحت يدها كانت هناك ورقة: «أنا ذاهب للعمل. نامي، نامي طويلاً وبحلاوة. حتى أعود. ثم سنذهب لتناول العشاء - نحن الاثنان فقط. أحبك. د.» - ورسم عليها: ابتسامة عريضة مضحكة بأذنين.

قبلت مارتا الورقة ومدت يدها بتردد إلى الهاتف، الذي استمر في الرنين بإصرار.

«الحمد لله!» سمعت على الفور صوتاً متسرعاً من السماعة.

«من هذا؟» سألت بكسل، على الرغم من أنها تعرفت على صوت سيرجي.

عرف عن نفسه وأضاف في حيرة:

«آمل أنني لم أوقظك؟»

«لقد أيقظتني،» تمتمت مارتا.

«يا إلهي! مرة أخرى؟! الآن أنتِ تنامين حتى الحادية عشرة. ما الذي حدث؟» قال بسخرية.

«أعتقد أنني لم أعطِكِ سبباً للتدخل في حياتي!» قالت مارتا بغضب.

«نعم، بالتأكيد. ولكن، تذكري، أنتِ من فعلتِ ذلك أولاً!» رد سيرجي.

كانت هذه حجة بالفعل. وقررت مارتا ألا تغلق الخط.

«حسناً،» تابع سيرجي. «أنتِ من أدرتِ هذه العجلة! كنت هادئاً تماماً، وعادت حياتي تقريباً إلى مسارها الطبيعي - وهنا أنتِ.»

«أنا لا أفهم شيئاً،» تمتمت مارتا. «ما علاقتي أنا؟ وماذا تريد مني؟»

«أريد أن أخبركِ بشيء، وهناك سنقرر ماذا نفعل.»

«تخبرني - بماذا؟» لم تفهم. «لم يعد لدي ما أتحدث به معك، لا تغضب. اهتم بأمورك بنفسك، واتركني وشأني. لدي خطط مختلفة تماماً للأسبوع القادم - بالمناسبة، إنه الأسبوع الأخير من إجازتي. لا أريد أن أفسده.»

«يا إلهي؟! حسناً، كل شيء واضح، ولكن...» تردد في الطرف الآخر من الخط، ولكن بعد لحظة، اكتسب صوت سيرجي ثقة. «لكن يجب أن أخبركِ بشيء وأطلب منكِ شيئاً.»

«مثلاً؟»

«هذه ليست محادثة هاتفية.»

«أنا لن أخرج في هذا الحر لمجرد كوب قهوة مع شخص مزعج مثلك!» رفضت مارتا بشكل قاطع، وكانت على وشك أن تضيف «إلى اللقاء»، لكن سيرجي سبقها بمعلومة جعلتها توافق على اللقاء.

«كنت في ذلك المتجر، حيث حل الحظ على زويا! إنه مكان بشع جداً...»

«يتحدث من خلالك ‹الحقد الطبقي›،» ابتسمت مارتا وأضافت، وهي تنظر إلى ساعتها: «لعنة عليك، دعنا نلتقي. لكن، أحذرك، ليس لدي الكثير من الوقت.»

حددت مارتا اللقاء في نفس المقهى، حيث التقيا لأول مرة. لم تكن ترغب في الذهاب. وكانت تخشى أيضاً ألا تعود قبل وصول ديمتري، على الرغم من أنه كان يمتلك المفاتيح. لكنها لم ترغب في أن ينتظر، أو ما هو أسوأ - أن يعتقد أن لديها أموراً أهم من العشاء معه.

فكرت مارتا بأسف أنها حتى الآن ليس لديها أي وسيلة اتصال بحبيبها - ولا حتى رقم هاتفه. ربما لأنهم كانوا يلتقون يومياً ولم تكن هناك حاجة لمثل هذه الاتصالات: لقد اشترى لها هاتفاً وكان يتصل بها دائماً، لكن رقمه لم يكن يظهر على هاتفها.

كانت مارتا في الحافلة الكهربائية ووجدت نفسها تفكر أنها بالفعل الآن، وهي في طريقها إلى المدينة، تحلم باللحظة التي ستعود فيها وتنتظر رنين الجرس. ليس حتى الرنين، بل أولاً على مستوى حيواني ستسمع خطوات على الدرج، ثم - حفيفاً خفيفاً خلف الباب (إنه يزيل السيلوفان من الباقة!)، وبعد ذلك - الجرس.

لكن هذا سيحدث لاحقاً، بعد هذا الطريق الحار، والجلوس الممل في المقهى، والمحادثة غير الضرورية مع شخص لم يعد يثير اهتمامها.

تأخرت مارتا.

كان سيرجي جالساً على نفس الطاولة التي تحدثا عليها في المرة الأخيرة.

أمامه كان هناك كأس من البيرة، وفي المكان الذي كان من المفترض أن تجلس فيه - كان آيس كريم بالفراولة يذوب في كأس واسع.

جلست مارتا مقابله، شكرته، أبعدت الآيس كريم ونظرت باهتمام إلى محاورها.

«لقد تغيرتِ...» لاحظ.

«حقاً؟» تفاجأت مارتا. «كيف بالضبط؟»

«لا أعرف... لكن شيئاً ما قد تغير. أنتِ كلها تشرقين...»

«دعنا من هذا،» أجابت مارتا بلا شعور بالرضا، وهي تفكر بتهكم أنه تأخر في المجاملات. «إذن، ماذا أردت أن تقول لي؟»

صمت، وهو يدرسها. تنهد.

«الآن أنا متأكد تماماً أن كل هذا لن يكون مثيراً للاهتمام بالنسبة لك. أنتِ تنظرين إلي كأنني حشرة مزعجة. على أي حال، أنتِ من بدأتِ هذه الفوضى. وأنا أصبحت مهتماً بـ ‹إنهاء طبخها›.»

«أليس من الأسهل اللجوء إلى الشرطة؟»

«هل سبق لكِ أن تعاملتِ مع الشرطة؟ في أحسن الأحوال، سيضيفون زويا إلى قائمة ‹المطلوبين›. وماذا لو ذهبت ببساطة في إجازة، على سبيل المثال؟ كيف تثبت أن شيئاً ما يهددها؟»

«والهاتف؟» بدأت مارتا تتحدث ثم صمتت.

«أخيراً!» فرح سيرجي لسبب ما. «فكرة جيدة. الهاتف مع رقم المكالمة الواردة! في الواقع، من أجله طلبت اللقاء! هل هو معك؟ آمل أن تكوني قد احتفظتِ ببطاقة الذاكرة؟»

لاحظت مارتا كيف أصبح متحمساً، وهذا أثار قلقها. وبشكل عام، كانت الآن تنظر إليه بعيون مختلفة - من حياتها الحالية. ابتسمت وهي تتذكر كيف كانت حتى وقت قريب تنظر بأمل إلى الرجال، على أمل أن يكون أي لقاء غير عرضي. لاحظت باشمئزاز شعر محاورها المشعث، والجوارب الملونة التي لم تتناسب مع الجينز، والسلسلة المبالغ فيها على رقبته...

«هذا الهاتف - من الآن فصاعداً هو تعويذتي،» قالت. «لن أعطيه إلا لصاحبته - ولكن شخصياً. أما البطاقة فـ...» فكرت مارتا وكذبت: «... لقد رميتها. ولماذا تسأل؟»

«لماذا - لماذا؟ أليس من الواضح؟!» صرخ، «من خلال المكالمة الواردة، يمكننا تحديد من كان يتصل!»

«أنا لا أفهم في هذه الأمور،» قالت مارتا ببطء. «أما أنت، فيمكنك

لعب هذه الألعاب بطريقة أخرى: اذهب إلى الأماكن التي كنتم فيها معاً، وفي النهاية، لديك بالتأكيد الكثير من الأصدقاء المشتركين الذين قد يعرفون شيئاً. أنا آسفة على فعلي الطائش. أعتقد أن هناك الكثير من النساء المشابهات لزويا حولنا - وكل واحدة تحتاج إن لم تكن للحماية، فعلى الأقل للتفهم. في وقتها، على الأرجح، لم تمنحها ذلك، ولهذا السبب تحولت إلى شخص آخر. الآن أثبت لها أنك قادر على حمايتها. ابحث عنها، وليس عن أي مجنون. على الأرجح، لقد هدأ الآن...»

«لقد بحثت!» صرخ بعصبية. «ألم أقل إنني كنت في ذلك المتجر الملعون!»

«وماذا في ذلك؟»

«قالت البائعة إنها كانت هناك مرة أخرى قبل اختفائها.»

«لماذا؟»

«لإعادة الفستان!»

«مع الهاتف؟ لماذا؟» ردت مارتا مرة أخرى كصدى.

«هل تتخيلين في أي حالة يجب أن تكون لترك هاتفها المحمول في جيبها؟ وسلمت الفستان لتحصل على المال. فمنحتها الدراسية لا شيء.»

«حسناً، إذن هي فتاة عملية جداً...» ابتسمت مارتا.

«الأمر ليس كذلك!» عاد سيرجي ليشتعل. «أعتقد أنها كانت بحاجة إلى المال للاختباء في مكان ما. ربما للمغادرة. أو لاستئجار غرفة.»

«إذن هي ستدبر أمرها بنفسها،» قالت مارتا ونظرت إلى ساعتها. «حان وقت الذهاب.»

بصراحة، بدأت المحادثة تضايقها، وكان سيرجي يزعجها أكثر فأكثر.

«أعطني الهاتف،» قال بصراحة وكآبة.

«سأعطيه لمالكته فقط. قلت لك. ابحث عنها.»

تبادلا النظرات بتركيز للحظة.

وفجأة، خطرت لمارتا فكرة مجنونة:

«هل كنت أنت من اتصلت؟»

أمسك سيرجي رأسه، واتسعت عيناه، ودخلت أصابعه في شعره المشعث أصلاً، وزفر بصوت عالٍ:

«لو لم تكوني امرأة، لكنت...»

دون أن ينهي الجملة، صفع كف يده على ركبته.

نهضت مارتا بسرعة، مظهرة أنه لم يعد هناك ما يمكن التحدث عنه.

غادرت، وهي تشعر بنظراته الغاضبة عليها.

وانتشر قشعريرة على جلدها.

منذ ثلاث سنوات

أطلق عليها اسم «إليس ديدون» بمجرد هبوطهما في ميناء «قرطاج» واقتحم الهواء الساخن والجاف المقصورة الباردة للطائرة.

كانت مرتبكة قليلاً، مضطربة، لكنها - سعيدة.

قبل أربع ساعات، في المطار، أعلن وهو يلوح بجوازات سفرهما في يده وبنظرة غامضة، أن الرحلة إلى «كوتور»... قد ألغيت. ومسروراً بخيبة أملها، وهو يكاد لا يستطيع كبح فرحته، أبلغها أنه أعد لها مفاجأة أكثر غرابة. وببساطة أكثر - حقق حلمها القديم: إنهما يتجهان إلى تونس!

قفزت، ودارت على قدم واحدة، وعلى الرغم من الحشد، علقت حول عنقه.

وها هي - قرطاج، أو بالأحرى - قرطاج القديمة التي طالما حلمت بها! المكان المفضل لقضاء العطلات لموباسان، وإكزوبيري، ووايلد، وفرانسواز ساغان...

مهد الحضارة القديمة، الوطن الحار للفينيقيين، أرض «ملكة المتشردين» - إليس ديدون.

بينما كانا في السيارة الباردة التي استأجرها بالقرب من المطار، وهما يمران عبر بساتين الزيتون الشاسعة، كانت تستمع بانبهار لقصصه عن تلك الأوقات القديمة، عندما قرر الجيش الفينيقي بقيادة سميتها إليس

البقاء على هذه التلال الخصبة.

«وفقاً للأسطورة، سمح الملك المحلي للوافدين الجدد بأخذ قطعة من الأرض هنا للاستيطان بحجم جلد ثور،» كان يروي، وهو يمسك عجلة القيادة بيد واحدة بطريقة أنيقة.

ضحكت، قائلة إن قطعة أرض بهذا الحجم يمكن أن تستوعب ملكة واحدة فقط.

«أوه، كانت إليس حكيمة!» ابتسم رداً على ذلك. «لقد وافقت على العرض بسعادة، على الرغم من سخط أتباعها. قبلت الجلد بكرامة واعتزلت في تل مرتفع. هناك، حتى الصباح، قطعت من الجلد السميك شريطاً رفيعاً وطويلاً جداً. كان طويلاً جداً لدرجة أن المحاربين أحاطوا به أغنى وأخصب مساحة من الأرض. وهكذا، في عام ثمانمائة وأربعة عشر قبل الميلاد، نشأت هنا ‹قرطاج›، والتي تعني - ‹العاصمة الجديدة›. وأصبحت إليس ديدون الحكيمة والقوية، ملكة المتشردين، أول حاكمة لها.»

كان يوقف السيارة فجأة أمام الأسواق الشرقية الخلابة التي تظهر على الطريق - وكانا، وهما يضحكان ويفرحان مثل الأطفال، يشتريان من الباعة الذين كانوا يقفون تحت خيام النخيل على الطريق مباشرة، حلويات شرقية لا تصدق، وزيتوناً أسود، وقطعاً من اللحم المقلي، ويشربان معها مشروب «النخيل» الغريب.

في السيارة، كان يلعق أصابعها الحلوة من العصير والدبس. كانت

تضحك، وهي تتملص بمرح من شفتيه التي تدغدغها.

«هذه أرض أناس فخورين،» قال عند المنعطف التالي، حيث انفتح أمام عينيها سهل ذهبي حار، وراءه، مثل سراب، كانت تظهر بستان زيتون. «على الأقل، كانت كذلك، حتى دمر الرومان قرطاج. تخيلي فقط: عندما ركع القائد الفينيقي أمام جيش المنتصرين، صعدت زوجته إلى البرج مع أطفالها، وقطعت رؤوسهم ثم ألقت بنفسها إلى الأسفل...»

«يا له من رعب!» صرخت أليسا. «لا تحدثني عن الحزن...»

«هل هذا حزن؟ هذا فعل امرأة فخورة!» ابتسم واحتضنها بلطف. «حسناً، سأخبرك بشيء مبهج - عن مستقبلنا القريب. الآن سنصل إلى مكان رائع اخترته بعناية لنا في وكالة السفر. لا يوجد هناك ضجيج ولا سياح متعرّقون. فقط البحر والجبال وبنغلو صغير. غداً، عندما ترتاحين من السفر، سنذهب إلى كنيسة - هناك معابد أرثوذكسية هنا - وسنتزوج. وبعد ذلك، سنأكل الفواكه، ونسبح، ونصطاد... ونحب بعضنا البعض بجنون!»

ضحكت بسعادة.

لم تتغير المناظر الطبيعية من نافذة السيارة كثيراً - امتدت بساتين الزيتون لكيلومترات عديدة. كانوا يمرون بقرى وكانت أليسا تنظر بدهشة إلى المنازل ذات الأشكال غير المعتادة التي لا تحتوي على أبواب، وتشبه أعشاش السنونو، والشوارع والأزقة التي لا يوجد فيها

شجرة واحدة، والعديد من المقاهي الصغيرة في الشوارع، حيث كان يجلس رجال سمر في أرواب طويلة، يدخنون النرجيلة ويتحدثون. بالقرب من المتاجر، كانت تتدلى على خطاطيف ضخمة جثث أبقار أو ماعز، تلتصق بها ذباب أخضر كبير. وفي نفس المكان، كانت تتجول حشود من الأطفال السمر شبه العراة.

كانوا يتباطؤون، فبدأوا يلحقون بالسيارة، مشيرين بأيديهم أنهم يريدون الطعام.

«لا تهتمي،» قال. «هذه بلد التناقضات. بعد بضعة أيام، عندما نرتاح ونستمتع بالسباحة، سنسافر معك إلى تونس - هذا هو اسم عاصمتهم، وسترين أنها - باريس صغيرة.»

لم تلاحظ كيف، في لحظة واحدة، حوالي الساعة الثامنة، سقط الغسق على الأرض - فجأة وعلى الفور. وغفت، متعبة من الرحلة ومهدهدة بهدير المحرك.

وصلوا إلى المكان الذي كان من المفترض أن يقيموا فيه في ظلام دامس. استيقظت من أنه كان يوقظها بلطف، ويدغدغ خديها وأنفها بعود من العشب.

توقفت السيارة أمام منزل صغير. في الظلام البنفسجي بجانبه، كما لو كانت في بطاقة بريدية غريبة، كانت تظهر أشجار نخيل طويلة، محددة بضوء القمر.

«استيقظي، أيتها النائمة! لقد وصلنا!» قال. «حتى أنني تمكنت من الحصول على المفتاح. كان من المؤسف إيقاظك.»

خرجت من السيارة، واستنشقت الهواء بارتياح - لم يعد حاراً كما كان في النهار. برودة لطيفة دغدغت جلدها.

«وأين البحر؟» سألت.

«هناك،» أشار بيده خلف المنزل. «قريب جداً. في الصباح سنغوص. والآن - النوم، النوم، النوم... دعيني أحملك!»

أمسكها بين ذراعيه، وهي، مثل طفل، أمسكت بعنقه بقوة.

بينما كانت نائمة ومسترخية، تجلس في كرسي من الخيزران، حمل هو الأمتعة، وأشعل الشموع، وسرعان ما وضع الطعام على الطاولة - لقد فكر حتى في هذا.

«فات الأوان للذهاب إلى المطعم. وقد أغلق بالفعل حتى الصباح،» قال. «والفطور يبدأ قبل شروق الشمس، لن نشعر بالجوع. الآن فقط سنأكل شيئاً خفيفاً.»

«وأين المطعم؟» سألت.

«كل شيء هنا بعيد - وهذا أكثر ما يعجبني في هذا الفندق! بالمناسبة، هل تعرفين ماذا يسمون الفندق؟ بندق! أليس هذا مضحكاً؟ حسناً، كلي، كلي - وإلى السرير!»

كانوا يدهنون الخبز بالمربى، ويشربون الكوكاكولا، ويضحكون.

«هل تسمعين؟» سأل همساً.

«ماذا؟»

«البحر...»

أصغت، ولم تسمع إلا الريح وحفيف الحصى، لكنها أومأت.

«لن نشعل الأنوار - هكذا أكثر رومانسية،» همس.

بعد ذلك، عندما كانا مستلقيين على الحصائر المنسوجة على الأرض مباشرة، قالت إنها لطالما حلمت بالغرابة، وصرخت: على الحائط الأبيض، الذي كان يضيئه القمر، كانت هناك سحلية تزحف. ضحك:

«هذه هي الغرابة. اعتدي عليها! إنها غير مؤذية...»

وبعد نصف ساعة أخرى، عندما تدفق النوم إليها مثل خيط من العسل، وهي تغرق في كتلة الليل العطرة الحارة، سمعت أصواتاً غريبة وغير أرضية تأتي من السماء - لحناً طويلاً ثاقباً كان يغنيه صوت بشري غريب.

«ما هذا؟» نهضت على مرفقها.

«إنه المؤذن. إنه يدعو للصلاة. ستسمعينه مرة أخرى...» همس، وهو يقبل جبينها الرطب، «والآن نامي، يا صغيرتي، نامي...»

وغفت.

وانساحت ببطء عبر نفق عسلي حار، في أمواج الصوت الذي كان يتردد من الأعلى - هناك في مكان ما، وسط غابة النخيل...

كانت مستلقية على ظهرها في الماء الساخن وتعرف: من مكان ما في الأسفل، يجب أن ينبثق تيار من نبع بارد، ولذلك عليها أن تنتظر، وأن تتحمل.

تأرجح سطح الماء، وشكل دوامة، ويسحبها إلى الأسفل. حاولت ألا تتنفس بعنف: مع كل حركة متهورة، كانت تغوص أعمق. في النهاية، لم يتبق على السطح إلا عيناها وشفتيها وأنفها.

تفتح شعرها حول رأسها مثل زهرة كبيرة، وتدغدغ أذنيها، التي كانت بالفعل تحت الماء. وكانت لا تزال تنتظر، عندما يدفعها تيار النبع، الذي كانت تشعر به بظهرها في مكان ما في عمق ما تحتها، إلى السطح وتسمع الأصوات مرة أخرى، وتتمكن من القفز من هذا الماء. من زاوية عينها، لاحظت الشاطئ، الذي يشبه حافة مسطحة لوعاء طيني كبير. نظرت عن كثب - نعم، كان وعاءً ضخماً من الماء، وعلى طول حوافه كلها لاحظت بخوف مخططات غير واضحة لجذوع رجال...

ممسكين بالحواف، كانوا يهزون الوعاء!

الماء يتأرجح، يغمر وجهها.

تريد أن تطلب منهم ألا يهزوها، لكنها تغرق في الماء الذي له طعم الفورمالديهايد. على الرغم من الحرارة، أصبحت أطرافها تحت الطبقة الساخنة جليدية...

بدأت تسعل وتختنق، والماء يأكل عينيها.

والظلال تضحك وتغني أغنية المؤذن.

في يأس، تفرك يدها بجانبها، تبحث عن المساعدة - ولكن بجانبها وفوقها، وتحتها - لا يوجد سوى الماء، الفراغ...

أصوات الظلال تبدو مهددة، وثاقبة، وحنجرية، مثل صرخات البجع.

وفجأة تدرك أنها - عارية تماماً، وأن الماء فقط هو الذي يغطيها.

تتقلب على بطنها وتغرق...

تضغط قدميها على القاع الزلق، تدفع نفسها منه بكل قوتها وتندفع بسرعة إلى السطح. تبتلع الهواء. لكنه لا يدخل رئتيها!

«آه!» تنتفض أليسا على الحصيرة الصلبة.

تلتفت حولها.

الشمس الحارة الحادة تعميها.

تسقط أليسا على ظهرها، تغمض عينيها، وتلاحظ بدهشة أن هناك أناساً في الغرفة: عدة ظلال داكنة على خلفية الشمس الساطعة.

هل يستمر الحلم؟

تمد أليسا يدها، وتتحسس بجانبها فقط ملاءة مجعدة. وتستيقظ تماماً. تسمع فوقها غلغلة حنجرية وتنتفض في رعب - من هنا؟

تعتاد عيناها على الضوء.

يقف فوقها أربعة رجال. اثنان - في زي باهت، أبيض تقريباً وقذر، يشبه الزي العسكري. واثنان - في قمصان طويلة، تصل إلى الكاحل، ورؤوسهما ملفوفة بأوشحة مربعة.

إنهم يقولون شيئاً - كلهم معاً. أخيراً، ينحني أحدهم فوقها. يمعن النظر، وينطق كلمة قصيرة - «لا بيس».

تسحب أليسا الملاءة على نفسها، وتدير رأسها: ما بدا لها بالأمس في الغسق «بنغلو» فندق، اتضح أنه غرفة مهترئة بجدران جيرية، تطل من شقوقها عيون السحالي. سريرها - الحصيرة - قذرة، متسخة، مغطاة ببطانية صفراء.

ينطق الرجل بالزي العسكري مرة أخرى كلمة قصيرة، ويصدر صوتاً بلسانه.

تدير أليسا رأسها، تبحث عن ملابسها، وتكرر شيئاً واحداً:

«لا أفهم...»

الرجال يضحكون. يرفعونها عن الحصيرة، وبالكاد تتمكن من

الإمساك بالملاءة، وتغطي نفسها بها، وتصرخ. إنها تعرف أن هناك خطأ ما، وأن الشخص الذي سيحل كل شيء سيعود الآن.

«سنشتكي للسفارة!» تهدد أليسا.

يلتفت أحد الرجال إلى الآخر - الذي يرتدي ملابس مدنية.

وهذا الأخير، وهو يحرف الكلمات بشكل فظيع، ويمزجها ببعض الهراء، يضحك، ويفوح منه رائحة فمه:

«تسيغل-تسيغل-آي-ليو-ليو، ناتاشيا! كاغ ديل يا؟ نا شاروا! بوغاتشوفا! زا-خادي - با-سما-تري! آدِن دولار!»

ويكررون جميعاً في جوقة، وهم يصدرون صوتاً بلسانهم:

«لا بيس! لا بيس!»

تنظر أليسا بغضب إلى الباب: الآن، الآن سينتهي كل شيء. تشرح بفخر أنها سائحة، ومواطنة في بلد آخر، وأنه ليس لديهم الحق في مثل هذا الاقتحام، وأنهم سيتحملون المسؤولية أمام إدارة الفندق، وأن زوجها سيعود الآن، وعندئذ...

يفرك العسكري الثاني إصبعه بإصبعه، يومئ للمترجم، وهذا الأخير يقول، مشدداً على المقطع الأخير من الكلمة:

«جواز-سفر!!!»

تندفع أليسا إلى الزاوية، حيث كانت حقيبة سفرها وحقيبتها

بالأمس.

المكان فارغ.

لا شيء من أغراضها!

حتى صندلها اختفى.

أليسا، على الرغم من الحرارة الرهيبة، يغشاها البرد. وهي تغطي نفسها بالملاءة، تركض في جميع زوايا المسكن، وهي مندهشة عرضاً كيف لم تلاحظ بالأمس كم كان هذا المكان «حفرة». الرجال يضحكون، تبدو وكأنها فأرة مطاردة! تندفع أليسا نحو الباب، لكن العسكري يسد الطريق.

في النهاية، وهي تغطي نفسها بالملاءة بإحكام، تجلس الفتاة على الأرض بعجز.

بعد ذلك، عندما تجلس بهدوء، لا تتحرك، وبالكاد تتنفس، وتحدق بعينيها فقط في الباب - «تعال، تعال، تعال!» - ينفتح الباب...

إنه شخص آخر.

يبدو أكثر تحضراً، يرتدي بدلة كتان بيضاء.

«مرحباً! بريفيات!» يرحب.

تتنهد أليسا بارتياح.

«من أنتم؟ ماذا فعلتم بزوجي؟» تسأل بجرأة. «سنشتكي!»

وتسمع شيئاً غير مفهوم على الإطلاق. نوع من الهذيان الغريب الذي ينطق به الرجل الذي يرتدي بدلة الكتان. عن أنها يجب أن تدفع نفقات السفر، وأنه ليس لديها أي وثيقة تثبت «جنسيتها» أو حقها في الاتصال بالسفارة.

تضحك أليسا.

تختنق من الضحك.

«زوجي سيعود الآن! سنستدعي الشرطة! نحن سياح، مواطنون في بلد آخر!» تهدد.

«من يمكنه أن يشهد على ذلك؟» يسأل الرجل في البدلة.

تصمت أليسا بتوتر. من؟ وفجأة تخترقها فكرة: مدير الفندق! بالطبع! الشخص الذي أعطى المفاتيح للبنغلو.

«نادوا مدير الفندق!» تصر أليسا.

«فندق؟» يسأل الرجل في البدلة.

«الفندق!» تقول أليسا. «لقد وصلنا في وقت متأخر. غفوت. خطيبي سجل دخوله بنفسه وأخذ المفاتيح. على الأرجح، جواز سفره أيضاً هناك!»

يبتسم الرجل بسخرية.

«هل تعتقدين أن هذا - فندق؟»

تنظر أليسا حولها مرة أخرى في حيرة إلى الغرفة المهترئة.

يضحك الرجال.

الآن يجب أن ينتهي هذا الكابوس - ما عليك سوى التحمل والتهدئة قليلاً. ربما هذه هي الغرابة، مثل تلك السحالي في الجدار، إنها نوع من لعبة محلية مع السياح. لعبة بحث! الآن سيصبح الأمر مضحكاً، ومسلياً، وهادئاً.

«لا بيس! لا بيس!» يهمس الرجال في الأوشحة المربعة.

تظهر أسنانهم المتعفنة من خلال ابتساماتهم.

ينظر الرجل في البدلة إلى ساعته - ليس لديه وقت. وهو يختار كلماته بلا مبالاة، يشرح أنه ليس لديه وقت للمحادثات الطويلة ويضيف:

«لياامال، لا بيس!»

ويشرح: «يجب أن تعملي، أيتها لا بيس البيضاء الساحرة».

أليسا لا تفهم. تطالب مرة أخرى باستدعاء زوجها، المدير، أو على الأقل الشرطة.

تصرخ، تقاوم، تعض، وتندفع نحو الباب.

يومئ الرجل في البدلة لأحد الآخرين.

يقترب ويضرب أليسا في بطنها.

تئن، وبدلاً من الألم، تشعر بالدهشة - مجرد دهشة، ولكن الألم يأتي لاحقاً، عندما تتلقى لكمة من الأسفل في وجهها.

جداول حمراء من الأنف تسيل على صدرها، على الملاءة.

الرجال يسحبون الملاءة.

تغيب أليسا عن الوعي...

***

«الآن أعرف أن هذه ليست مجرد كلمات - ‹الاستيقاظ والنوم وأنت سعيد›. أفكر فيك طوال اليوم،» قالت مارتا، وهي تجهز المائدة.

اليوم، للمرة الأولى، لم يذهبا لتناول العشاء في المطعم. هي من أقنعته بذلك. خلال هذه الأيام، ملّت بشدة من طعام المطاعم. أو بالأحرى، ملّت من المراسم، ودراسة القائمة، والانتظار، والوجوه الغريبة حولها، وخشخشة الشوك، وقرقعة الكؤوس، وضجيج المحادثات الغريبة.

كانت تريد شيئاً «حياً» - بطاطا عادية مع الخيار، ورنجة، وخبز أسود، وخضروات متنوعة. عندما قالت هذا، تفاجأ ديمتري - هل يمكن حقاً تناول الطعام في المنزل؟ لمست أنفه بلطف - يا لك من أحمق!

الآن كانت الروائح تأتي من المطبخ لدرجة أنه لم يستطع كبح انبهاره. اتضح أنه خلال سنوات حياته الوحيدة، لم يتناول «المنزلي» أبداً، ولم يكن يتخيل حتى كم يمكن أن يكون حساء البورش العادي لذيذاً. هذا أثر في مارتا حتى الدموع.

كانت تعمل في المطبخ ووجدت نفسها تفكر أنها هي أيضاً لم تطبخ شيئاً منذ فترة طويلة، باستثناء السندويشات السريعة.

تناولا العشاء، وشربا النبيذ - نوع خاص، أحضره من رحلة عمل أخرى، وكان يلصق شفتيهما، ويجعلهما سوداوين وحلوتين.

شعرت مارتا ببعض الحرج من شقتها الصغيرة ذات الأثاث القديم، ومن أن ذوقها ربما لم يكن جيداً جداً. لقد أرادت أن تشرح له كل شيء - أن تلتصق بكتفه وتخبره كيف عاشت ولماذا استجابت لندائه بهذه السرعة. السبب الثاني هو أن ديمتري كان الوحيد تقريباً الذي يمكنه الاستماع إلى الأول بانتباه وتعاطف...

«تركنا والدي عندما كان عمري اثني عشر عامًا،» كانت تتحدث، وهي مندهشة من مدى انتباهه وودّه وهو يستمع. «كنت أذهب إلى المدرسة وأخفي هذا الحدث بعناية عن زملائي في الفصل، كان يبدو لي أنه لا يوجد شيء أكثر خزيًا من ذلك. وأن هذا هو وصمة عاري لبقية حياتي. بدأت أتدنى في الدراسة، لأنني كنت أعتقد طوال الوقت أنني السبب في طلاق والدي. أختي كانت بالغة بالفعل وتدرس في مدينة أخرى. لم يستطع أحد مساعدتي. كل ما كان بوسعي فعله هو

المعاناة بصمت والتظاهر بالهدوء التام. حتى صرخت المعلمة أمامي الفصل بأكمله: ‹كون والديك تطلقا لا يمنحك الحق في عدم حل واجباتك المدرسية!›. تعلم، في ذلك الوقت، شعرت وكأنني سقطت في دوامة نارية - كأن ألسنة اللهب التهمتني في لحظة واحترقت على الفور. على الرغم من أنني واصلت الوقوف أمام الفصل... مع ابتسامة مجمدة على شفتي.»

«أستطيع أن أتخيل كم كان ذلك صعبًا. أنتِ حساسة للغاية، ورقيقة للغاية...» همس.

«نعم. لكنني لا أريد أن أتحدث عن هذا. حتى الآن، كان يبدو لي أنني ما زلت أعيش بتلك الابتسامة المجمدة على شفتي. حتى لا يخمن أحد في العالم ما يحدث في الداخل حقًا. لكنني لم أكن أعرف حتى الآن أن هذه الابتسامة - ليست طبيعية، إنها مصطنعة، مزيفة. والآن، يبدو أن عضلات وجهي قد استرخت وأنا أرتاح - معك. أعرف - نحن مختلفان، أنت من عالم آخر - أكثر كمالًا، أكثر حكمة، عالم يقرأ فيه الناس الكتب. لكنني سأتعلم كيف أعيش فيه. سأتعلم كل شيء...»

«يا لك من غبية، نحن متشابهان!» ابتسم بلطف. «سترين هذا عندما أستطيع أخيرًا دعوتك إلى منزلي. سأريك ألبومًا به صور قديمة، ورسوماتي كطفل، ومذكراتي، وستفهمين كل شيء. طفولتي أيضًا لم تكن خالية من الغيوم. ولهذا السبب، أفهم تمامًا ما تتحدثين عنه من ابتسامة. يبدو أنها كانت على وجهي أيضًا. والآن - لقد اختفت. أصبح كل شيء بسيطًا وطبيعيًا. وهذا بفضلك أيضًا.»

«أريد أن أرى كل هذا!» ابتسمت. «تلك الصور، والمذكرات، والرسومات! أنا متأكدة أنها رائعة ومؤثرة!»

«حسناً. ولكن وعديني أن تدخلي بيتي كزوجة لي.»

شعرت مارتا بكرة من السعادة تتحرك داخلها بدغدغة، لكنها تمالكت نفسها وقررت أن تمازحه:

«أوه، إذن سيكون عليك الانتظار!»

ابتسم هو أيضًا، وربت على كتفها.

«يمكنني الانتظار بضعة أيام أخرى حتى ينتهي التجديد!»

«هل تقوم بالتجديد؟»

«نعم. في السابق، لم يكن كل هذا يهمني. لكن الآن قررت القيام به. هل تخمنين - لماذا؟»

لم تجب، بل ضحكت، واندفعت نحوه، وأسقطته على الأريكة، وهي تحاول أن تتغلب عليه.

وهم يتبادلون القبلات، انزلقوا على الأرض، وسكبوا النبيذ الأسود على السجادة. في غمرة حماس طفولي، لم يسمعوا رنين الهاتف على الفور.

وهي تلهث وتضحك، وصلت مارتا إلى السماعة: «مرحبًا!» - وعلى

الفور تقريبًا ضغطت على زر الإنهاء.

عبست ملامح ديمتري.

«هذا ليس ما قد تكون فكرت فيه...» قالت بسرعة.

«لا تقولي شيئًا،» طلب. «من المؤكد أن لديك حياتك الخاصة...»

رأت مارتا كيف تلاشى المرح على الفور، وكيف أصبح متوتراً - وشعر قلبها بالحنان: لم يستطع إخفاء عواطفه، مثل الطفل. طفل كبير وأعزل...

لتزيل شكوكه، أخبرته أن من اتصل هو «شخص كريه» هي نفسها، للأسف، قد أوجدته في حياتها، لأنها كانت تشعر بالملل ببساطة في إجازتها. لأنها في ذلك الوقت لم تكن تتخيل حتى اللقاء الذي ينتظرها، كانت تريد فقط بعض المرح في الوقت المجمد من إجازتها التي كانت تبدو لها آنذاك بلا معنى.

ولكن الآن كل شيء له معنى وقيمة!

استمع بانتباه، وأخبرته ببطء عن الفتاة من قرية ليسوفا وعن صديقها، الذي تركته من أجل شخص آخر. والآن هذا الشاب لا يتركها وشأنها!

الشيء الوحيد الذي لم تجرؤ على الاعتراف به هو - الهاتف. كيف تقول إنها سرقته؟ نعم، نعم، بالضبط - سرقته، لأنه كان بإمكانها إبلاغ البائعة على الفور بما وجدته.

«الآن هذا سيرجي يتصل ويقدم لي تقارير عن نتائج بحثه السخيف،» أنهت مارتا كلامها. «على الرغم من أنني أعتقد أنه يسخر مني ببساطة. وربما هي من تسخر منه.»

«لا أعتقد أن هذه مزحة...» قال بجدية. «الناس يختفون. وبشكل متكرر. لا يتحدثون عن هذا كثيرًا. إلا عندما يحدث شيء قاسٍ بشكل غير عادي.»

ابتعد عنها قليلاً لينظر إلى وجهها.

«تعلمين، هذا اللقاء يزعجني. وحقيقة أنه لا يتركك وشأنك.»

«بصراحة،» قالت مارتا. «هذا يزعجني أيضًا. خاصةً...»

ترددت ولم تجرؤ على المتابعة حتى لا تزعجه.

«ماذا؟»

«خاصةً أنني أعتقد أنه هو من أزعجها بغيرته. وهو نفسه من فعل بها شيئاً. ولو لم أتدخل - لما عرف أحد شيئاً. لقد أفسدت خططه. والآن يحاول أن يجد مخرجاً.»

للمرة الأولى، صاغت مارتا شكوكها بوضوح لدرجة أن الصورة بأكملها تجمعت في رأسها، كقطع أحجية متناثرة.

«يجب أن نبلغ الشرطة!» قالت بقرار.

هز ديمتري رأسه بحزن.

«وماذا ستقولين هناك؟ ليس لديك أي دليل. الحقيقة الوحيدة هي أن الفتاة قد اختفت على ما يبدو. لكنها يمكن أن تكون في أي مكان ومع أي شخص. ربما التقت بالفعل بشخص آخر.»

«ماذا أفعل؟» سألت في حيرة. «لن يتركني وشأني...»

عبس ديمتري.

«سيتعين علي أن أتعامل معه كرجل. هل تعرفين أين يمكن العثور عليه؟»

تذكرت مارتا اسم الشركة التي يعمل بها سيرجي. لم يكن لديها لا رقم هاتفه ولا عنوانه. أرادت بشدة أن تخبر حبيبها عن حادثة التهديدات الهاتفية، لكنها قررت مرة أخرى - أنه لا يستحق ذلك. ديمتري حساس جداً. ربتت على كتفه وشعرت تحت يدها بما أحبته كثيراً - عضلاته ذات الرأسين المرنة. ابتسمت مارتا وقبلت كتف حبيبها. بالطبع، سيبعد عنها المتاعب.

***

في الصباح، كانت مارتا تستقل مترو الأنفاق وكان قلبها يصفر لحناً، بدا لها أن كل من كان يجلس بجانبها يسمعه.

وهو يغادر للعمل في الصباح، ترك لها ديمتري مالاً لـ... أدلة السفر.

تفاجأت مارتا. لكنه أمرها بصرامة مصطنعة بالذهاب إلى أفضل مكتبة، واختيار كتب تعليمية، ودراسة كل واحدة منها بعناية حتى المساء، حتى يعرف أين تريد قضاء بقية إجازتها.

لم تقاوم مارتا طويلاً. على الرغم من أنها حذرته من أنها تعشق أدلة السفر وستشتريها بسرور لغرض المعرفة الخالصة، ولكن فيما يتعلق بالسفر - كان عليها التفكير.

أولاً، لم يتبق من إجازتها سوى «بضعة أيام»، وثانياً، لا يمكنها قبول مثل هذه الهدية باهظة الثمن.

عانقها، ودس وجهه في شعرها حتى لا ترى عينيه، وهمس: «هذه ليست هدية. الهدايا - ستأتي لاحقاً! أنا أحبك.»

الآن كانت تستقل المترو، ممتلئة بهذا الهمس المتقطع، وتكرره في رأسها مائة مرة، وفي داخلها كانت تشتعل آلاف الأضواء المتلألئة.

كيف كان بإمكانها أن تعيش قبل كل هذا؟

منذ الطفولة، كانت على دراية بالمبادئ البسيطة وعاشت بها، كما لو كانت تقلب كتاباً مدرسياً مملاً، دون أن تعرف أنه - كان الكتاب المدرسي لحياتها.

في هذا الكتاب، كان مكتوباً أن المطر - سيئ للمشي، وأن الشمس - جيدة، وأنه في المساء والصباح يجب أن تغسل وجهك وتنظف أسنانك - حينئذ سيكون الوالدان راضيين، وأنه إذا أكلت جيداً، يمكنك أن

تكبر، وأن الحلوى ضارة بالأسنان والأفضل تناول الفاكهة، وأن الطفولة «ذهبية»، وأن الشباب يجب أن يكرس للتعليم.

لقد فعلت كل هذا بجد، لكنها لم تصبح أكثر سعادة. واعتبرت أن الحياة «ناجحة» عندما تسير «مثل الجميع».

الآن كانت تنظر إلى هؤلاء «الجميع» ودموعها تخنقها من الحب الذي شعرت به تجاه كل من كان يقف ويجلس بجانبها. إلى جانب هذا الحب غير المتوقع، غمرها حزن. كانت هذه المشاعر قوية لدرجة أن مارتا خافت من أنها أصبحت عاطفية جداً، لأنه في أي لحظة، يمكن لأولئك الذين تشفق عليهم أن يدفعوها، أو يسيئوا إليها، أو يرتكبوا أي عمل غير لائق، كما يفعل المسافرون العابرون عادة في المواصلات المزدحمة، وهم يهتمون بأنفسهم فقط. لكن حتى من هذه الفكرة لم يختفِ شعور الحب.

كانت تنظر إلى الناس بحنان غير عادي. ها هي سيدة، كانت في السابق تثير لديها ابتسامة ساخرة فقط - ترتدي قميصاً بلا لون وتنورة مربعة بلا شكل. سلتها مليئة بالمنتجات - خبز، فواكه، حليب. كل شيء مختلط. أربطة صندلها مهترئة، وكعباها متآكلان - من المؤكد أنها تمشي كثيراً. إلى أين؟ ولماذا؟ على وجهها - تجاعيد مبكرة، ونظرتها - منعزلة، كما لو أنها تحدد حول نفسها فراغاً منقذاً.

ستعود إلى المنزل، وتضبط المنبه على الساعة السادسة لتطبخ حساء البورش لمدة أسبوع، وفي المساء ستشغل مسلسلاً، وتعيش

حياة «صابونية» مصطنعة، والتي - وحدها! - ستبدو لها حقيقية.

بجانبها - مخلوقات شابة تهمس عن «ماكس» ما - إنهم مليئون بالآمال والأوهام. حياتهم أمامهم، تومض أمام أعينهم مثل جزرة أمام حمار يسير في دائرة. حتى الرجل السكران في هذا اليوم بدا لمارتا لطيفاً، وأعزلاً، ومؤثراً. كان يتمتم بشيء بصمت، ويتجشأ، ويغطي فمه بطريقة مثقفة بطرف ربطة عنقه القذرة. تخيلت مارتا كيف سينام اليوم على أريكته التي انخفضت على مر السنين، كما هو - بقميصه، وجواربه، وربطة عنقه المخططة باللون الأزرق. وفي حلمه سيشتهي السعادة، وفي الصباح - بيرة باردة، وفي المساء - النسيان.

الشفقة والحب، فكرت مارتا - هاتان هما القوتان اللتان يجب أن تجعلا العالم أفضل!

الشفقة والحب - وستختفي الحروب، وسوء التفاهم، والإهانات. لو أنهم فقط عرفوا أن حياتهم ليست أبدية وأنه يجب عليهم أحياناً اتخاذ قرارات، والخروج عن المسار، وحب بعضهم البعض.

هذه الفكرة أثرت فيها لدرجة أنها استدارت نحو النافذة، ومسحت دموعها، وبدأت تتأمل النهر الأزرق الذي كان القطار يعبره. كان النهر وضفافه جميلان بشكل لا يصدق وأثارا أيضاً دموعاً من التأثر.

«أنا غبية! مجنونة عاشقة!» قالت مارتا لنفسها وبدأت في تدوير جدول الضرب في ذهنها. على الأقل، الأرقام لم تثير لديها أي مشاعر، وشعرت مارتا بالتحسن.

في المكتبة، مباشرة عند المدخل، لفت انتباه مارتا رف كامل من أدلة السفر المشرقة. واحد أكثر جاذبية من الآخر - «باريس»، «فيينا»، «أوسلو»، «برلين»، «براغ»، «أمستردام»، «هلسنكي»...

ولكن الأسعار! فتحت مارتا حزمة النقود التي تركها ديمتري، وأدركت أن المبلغ يكفي لكل شيء. ولم تستطع مقاومة الإغراء - أخذت أكبر عدد ممكن من الكتب.

المدن التي كانت تبدو لها حلماً لا يمكن تحقيقه، أصبحت أقرب، واكتسبت ملامح وواقعية.

وصلت إلى المنزل، وصبّت لنفسها نصف كوب من كامباري - المشروب الذي علمها إياه، وخففته بالتونيك، وجلست بين الوسائد، ووضعت أمامها الكتيبات المشرقة. بدأت تتصفح الصفحات اللامعة، وهي تسافر بإصبعها على طول ضفاف نهر السين، وقنوات أمستردام، ومضايق النرويج، وبلدات التشيك المزينة.

شعرت برغبة في البكاء والضحك في آن واحد.

تذكرت كيف منذ فترة طويلة، في حياة أخرى، لم تكن تتوقع السفر، كانت تتخيل صورة: هي تقف على نقطة مرتفعة في مدينة غير مألوفة - مدينة مهيبة وقديمة، مليئة بالأضواء، والموسيقى، وروائح البنفسج الليلي، وحشود من الناس الجميلين. تقف فوق كل هذا، كما لو كانت فوق وعاء من الزهور، وتتكئ على حاجز الجسر (أو السياج النحاسي

للبرج، أو الحائط الذي يحيط بالجبل) وتنظر إلى الأسفل، إلى المدينة التي تقع تحت قدميها، والشخص الذي يقف بجانبها يضع يده على كتفها، ويضغطها عليه بقوة ويقول:

«هل نطير؟»

لاحقًا، بعد مشاهدتها فيلم «تيتانيك»، تخيلت أنها تقف على سطح السفينة، وتمد ذراعيها تحت أغنية سيلين ديون - وتحلق فوق البحر، وفوق العالم، وفوق نفسها - تلك التي كانت تقف بنفس الطريقة، مادةً ذراعيها... تحت الحبال التي تعلق عليها الغسيل، بجانب الموقد أو الحوض الذي تتجمع فيه المياه القذرة. والشخص الذي يقف بجانبها - هناك، في الخيال، على ذلك الجبل أو السطح - يمسك بها بقوة ولطف. ويهديها العالم.

ولأجل هذه اللحظة، كانت مارتا مستعدة للتخلي عن خمس سنوات أو أكثر من حياتها! ولكن هل كان بإمكانها أن تعرف حينها أن الأحلام تتحقق دون مثل هذه التضحيات؟

عندما صدر صوت المفتاح في الباب، كانت مارتا مستلقية، ووجهها مغمور في الكتيبات، وابتسامة مجمدة حلوة على شفتيها، ولم تكن في عجلة من أمرها للنهوض - كانت تعرف أنه هو من جاء، وأنه ليس عليها أن تقفز على الفور، وتركض إلى المطبخ، وتسخن العشاء، وتنشغل حول المائدة وتقدم الأطباق.

كم هو غريب: عندما كانت لا تزال مع أندريه (بالمناسبة، لاحظت

مارتا، أنها لم تتذكره مرة واحدة في الأسابيع الأخيرة!)، كانت تتصرف بنفس الطريقة: كانت تتدافع، تساعده في خلع سترته، تقدم له النعال، وتسرع إلى المطبخ وتقلق بشأن مزاجه، إذا كان مستاءً من شيء ما.

أما ديمتري فكان يأتي دائماً بمزاج جيد، وكان هو نفسه يبدأ في وضع أطباق مختلفة على المائدة، ويشفق عليها، ويسألها إذا كانت متعبة من اليوم. وهذا وهي في إجازة!

اليوم كان الأمر كذلك أيضاً.

جلس بجانبها على السرير، قبلها على رأسها، وسألها:

«حسنًا، ماذا اخترتِ، أيتها الأميرة؟»

أخذت كومة الكتب بأكملها بين يديها، ورمتها فوق السرير، وانتشلت كتاباً عشوائياً من الكومة الملونة.

«تابيولا؟ اختيار رائع!» ضحك، وهو ينظر إلى الكتيب.

«فنلندا،» صححت مارتا.

وتحدث بانبهار.

«تابيو - هو إله وثني شمالي للماء، والحجر، والأشجار. وتابيولا - هو أحد الأسماء الشعرية لفنلندا! أنا أحب هذا الاسم أكثر، ففيه موسيقى: تا-بي-و-لا!»

وتفاجأت مارتا مرة أخرى بمدى معرفته وكيف أنه من الممتع

الاستماع إليه.

«وهو يعني أيضاً في الترجمة - ‹الأصلي، الأصيل، السري›. ما يحدث بيننا. ولذلك هذا اختيار رائع وغير عشوائي. لقد تخيلت بالفعل المسار الذي سيعجبك. أولاً سنصل إلى هلسنكي، هناك سننتقل إلى القطار الكهربائي المتجه إلى توركو. ومن هناك - إلى العبارة... أوه! هل سبق لكِ أن سافرتِ بعبارة من أحد عشر طابقاً؟ لا؟ إنها مدينة كاملة على الماء! سنبحر في رحلة بحرية لمدة يومين إلى ستوكهولم والعودة - سترين كم المناظر الطبيعية هناك جميلة. وكم من وسائل الترفيه! يبدو وكأنك سافرتِ حول العالم في يومين! وبشكل عام، فنلندا - بلد المختارين. ونحن معك هم المختارون. لأننا وجدنا بعضنا البعض...»

«من أين تعرف كل هذا؟» تفاجأت مارتا مرة أخرى.

ربت على رأسها:

«أنا مسافر. وأحب الجغرافيا والتاريخ منذ الطفولة،» ابتسم بحزن قليلاً. «عندما لا يمكنك تحمل السفر حول العالم - اجلس عند العتبة، وسوف يأتي العالم إليك بنفسه. حكمة شرقية! وهكذا كنت أجلس. مع الكتب. والآن يمكنني رؤية كل شيء بأم عيني.»

«أنا أيضاً جلست عند العتبة،» تنهدت مارتا. «ولكنني رأيت شيئاً مختلفاً تماماً...»

«الآن سترين ما أراه أنا،» قال بثقة.

«هل حقاً تريد أن نذهب؟» سألت.

«جداً!» قال واستلقى بجانبها، دون أن يخلع بدلته، دون أن يخشى أن تتجعد.

«بجدية؟» ابتسمت.

«وبجدية تامة، حتى أنني أريد تسريع مغادرتنا.»

جلس ونظر إليها بانتباه.

«هل حدث شيء؟»

«في الواقع، لا شيء خاص، ولكن... هناك قلق،» أومأ.

انتفضت مارتا أيضاً، وجلست بجانبه، قلقة من التغيير في مزاجه.

«ماذا؟»

«لا تقلقي. لقد حاولت اليوم أن أبحث عن معجبك المزعج،» قال.

«من؟» لم تفهم.

«الشخص الذي يزعجك بالاتصالات.»

«سيرجي؟»

«نعم.»

«لماذا تهتم بهذا؟ إنه سخيف،» صرخت، خائفة من أنه يشعر بالغيرة.

«لا تقلقي، أنا فقط أحب أن أضع كل النقاط على الحروف. وفي هذه الحالة، لا يعجبني أن يجرؤ شخص ما على إزعاج المرأة التي أحبها.»

«هل تحدثت معه؟»

«لا. لقد حصلت على هذا فقط.»

أخرج ورقة من جيبه.

«اتضح أنه استقال من عمله قبل بضعة أيام! بصعوبة انتزعت هذا العنوان من مديره العام. ألا يبدو لكِ هذا مريباً؟»

أومأت مارتا، ونظرت إلى الورقة: «كاشتانوفا، ٧، شقة ٦٨».

«أعتقد أن شكوكك في محلها،» واصل ديمتري. «بطريقة ما، أنتِ دستِ على ذيله. في أحسن الأحوال، هو مجرد شخص مصاب بانفصام الشخصية. ومن الصعب التخلص منهم.»

«وفي أسوأ الأحوال؟» سألت.

«في أسوأ الأحوال - هو بالفعل متورط في اختفاء خطيبته. وأنتِ، بشعورك الحاد بالعدالة، أزعجتِ هدوءه. هذا أمر خطير. لذلك، سنغادر في أقرب وقت ممكن. غداً سأهتم بالتذاكر وحجز الفنادق.»

عندما رأى مارتا تنظر إليه بعيون خائفة، ابتسم مرة أخرى، وربت بلطف على خدها.

«انسي الأمر. هذا شأني.»

منذ عامين

كانت القرية تقع على ارتفاع عالٍ في الجبال، على بعد ثمانية كيلومترات من المناجم، حيث كان يعمل العمال المحليون والموسميون من جميع أنحاء البلاد على فترتين.

في المساء، كانوا ينزلون إلى القرية، وحتى الصباح تقريباً، كانوا يجلسون في المقاهي على الحصير أو ببساطة على الأرضية القاشانية الملونة، يدخنون الشيشة، ويرتشفون الشاي أو القهوة من الأوعية الزجاجية الطويلة، ويتشاجرون بكسل من حين لآخر، ثم يغرقون مرة أخرى في دخان الشيشة.

أحياناً يغادر أحدهم، ويجلس مكانه آخر، يضع في فمه طرف الأنبوب الدهني المبلل باللعاب. كانوا ينامون، وهم متكئون، هناك. أو يتوزعون على البيوت، وهو في الأساس نفس الشيء مثل المبيت في الشارع - فمعظم البيوت لم يكن لها أبواب، وكانت الماعز الموجودة في كل مكان تنظر من خلال الفتحات، وتستلقي بجانب أصحابها.

كانوا ينامون دون خلع ملابسهم، فقط يلفون رؤوسهم بالأوشحة للحماية من الذباب المزعج الذي كان يحوم حول الهياكل العظمية المتهالكة للماعز المعلقة حول المقاهي.

هناك، على بعد خطوات قليلة فقط خلف الجدار الأبيض المتهالك، كانوا يقضون حاجتهم.

كانت رائحة التبغ والقهوة والكباب تختلط بالرائحة الخانقة لبقايا الحيوانات المتحللة تحت الشمس الحارة. وكانت الجدران الرطبة تتنفس أبخرة ضارة.

على الرغم من كل هذه الظروف غير الصحية، لم يمرض الناس في القرية كثيراً. باستثناء أنهم كانوا يموتون فوراً من لدغات الحشرات الخطيرة أو الفيروسات التي يجلبها العمال معهم.

زولا و«سلعتها»

مقابل أحد هذه المقاهي كان هناك مبنى تديره العجوز زولا. كانت تستيقظ قبل أول أذان بساعة وتعد الكسكس، وتضع في القدر الطيني قطعاً كبيرة من اللحم، والبطاطس، والحبوب، وتضيف الكثير من التوابل التي كان من المفترض أن تخفي طعم لحم الماعز غير الطازج و«تحرق» من المعدة جميع الجراثيم المحتملة.

الأستاذ - «السيد» - أمرها بصرامة بإطعام «لا بيس» جيداً، حتى تحافظ على مظهرها «السلعي» وقوتها لأطول فترة ممكنة، حيث كان عدد العمال الموسميين كبيراً. في رأي زولا، لم يكن لدى «لا بيس» أي «مظهر سلعي» على الإطلاق - كانت جلداً وعظاماً.

فكانت زولا، بعد أن تحمل طبق الكسكس إلى الطابق العلوي، تجلس قبالتها وتراقب بعناية للتأكد من أن الفتاة التي تشرف عليها تأكل كل شيء حتى آخر حبة.

لقد عانت في الشهرين الأولين فقط، عندما لم تستطع الفتاة على الإطلاق ابتلاع الخليط اللاذع، ورفضت الأكل، وكانت تشرب فقط الشاي بالعسل، وتلصق فمها الأسود المتشقق بالوعاء.

ولكن بعد ذلك، اعتادت تدريجياً، وبدأت تنتشل البطاطس فقط من الطبق. وبعد أن بدأ الأستاذ يعطيها الحقن أو يجلب لها المساحيق، أصبح الأمر أسهل بكثير - أصبحت «لا بيس» مثل الصوف الذي يمكن نسجه بالأيدي العارية. كانت تأكل كل شيء. حتى اللحم الفاسد.

بالنسبة لزولا، كانت الفتاة شيئاً أشبه بحيوان مجهول يجب الاعتناء به، وتنظيف قفصه من وقت لآخر، والتأكد من أنها لا ترتجف من أي مرض. لم تكن تهتم بالباقي - لا يوجد مكان للخروج هنا، والهروب - مستحيل ولا يوجد له معنى - فكل ما يحيط بها جبال. اجلسي فقط، اشربي الشاي وقومي بعملك بجد، وعندها سيعطيك الأستاذ حقنة، ستزهر على وجه «لا بيس» بعدها ابتسامة.

ولم تكن زولا مهتمة بما يختبئ وراء تلك الابتسامة - إنها حياة شخص آخر. لدى زولا حياتها الخاصة - سبعة أطفال. وفخر خاص - ابنها الأكبر، الذي يعمل سائق سيارة أجرة في العاصمة، وهذا بالنسبة لسكان القرية الآخرين شيء لا يمكن الوصول إليه. الحمد لله ولصاحب العمل، فزولا لديها هذا العمل منذ فترة طويلة - الاعتناء بـ «البضاعة». الشيء السيئ الوحيد هو عندما يموتون. عندها يغضب الأستاذ، ويهدد زولا بأنها لم تعتنِ بهم، ويطالبها بالدفع.

لذلك كانت زولا دائماً تخلط جذور الكينا المطحونة في الشاي. عندها يمكنها أن تعيش في سلام لمدة ثلاث سنوات تقريباً. وهذه السنوات كافية تماماً ليكون الأستاذ راضياً عن الربح الذي، حسب قوله، يعوض النفقات بعشرة أضعاف.

بالنسبة لزولا، «لا بيس»، على الرغم من تسميتها بهذه الكلمة - «الساحرة» - كانت من عالم آخر. كافرة، غريبة، صامتة. مثل القطة. على الرغم من أن القطة لها روحها الخاصة. يمكن للمرء أن يداعب قطة. لكن هذه الفتاة - تعض وتزأر.

على الأقل، كان هذا هو الحال في الأيام القليلة الأولى، عندما كانت تجلس في طوق، قبل أن يبدأوا في إعطائها تلك الحقن. لكن منذ ذلك الحين، لم تعد زولا تجرؤ على مد يدها إليها.

في الأمسيات، وهي جالسة في الطابق السفلي، كانت زولا تضع علامات بعناية في دفتر ملاحظاتها: تسجل الزوار، وتجمع الدنانير التي تحصل عليها بعناية في صندوق، وتفرح عندما تصل نسبتها إلى خمس علامات: على الرغم من أن زولا لا تستطيع العد، إلا أنها حريصة على المال. خمس علامات في الأسبوع تعني أن هناك في دفتر «الإيرادات» لهذا الأسبوع - خمسين زائراً. في غضون عام، وبفضل نسبة عملها، ستجمع مبلغاً كافياً لزفاف ابنها الأوسط. في العام الماضي، زوجت الأكبر بالطريقة نفسها - ولم تخجل من النظر إلى الناس: استمر الزفاف لمدة أسبوعين. هذا العام - «إن شاء الله!» - سيستمر لفترة أطول. «لا بيس» مطلوبة بشدة: ذات شعر فاتح، طويلة الساقين، مطيعة. في

المرة الأخيرة كان الأمر أسوأ - كانت الفتاة عدوانية، خلع الأستاذ عينها وتخلص بسرعة من «السلعة ذات الجودة المنخفضة». ولكن مع هذه الفتاة، المشاكل أقل.

هكذا تفكر زولا، وهي ترمي قطع اللحم في القدر.

بعد أن يخفت صوت المؤذن، تصعد إلى الطابق الثاني - حان وقت إطعام «لا بيس». تدخل إلى شبه الظلام، وتنظر إلى الجسد الساكن الذي يسبح في العرق، ترفسه بقدمها، وتكاد تحرق قدمها بالكتف العاري - فالجسد يحترق، كالمقلاة الساخنة!

تتصلب زولا من الرعب. ثم تنحني، وتصغي إلى الأنفاس - إنها خشنة ومتقطعة وساخنة أيضاً، كالبخار المتصاعد من القدر.

ترفع زولا الملاءة القذرة عن قدميها - إنهما متورمتان، والجلد يكاد ينفجر، يلمع، ويشبه الرق. تلمس زولا الجلد - وتتكون شقوق في الرق، يظهر فيها على الفور سائل أصفر.

لا يمكن أن يكون! كيف غفلت عن ذلك، كيف سمحت به!

كل هذا بسبب جشعها، تلوم زولا نفسها. لقد قيل لها: ممنوع دخول أبو هنا. الجميع - مسموح، ولكن أبو - لا! لكن هذا المجنون جمع بالفعل دنانيره، بل ودس في يد زولا «عمولته»! كان من الصعب مقاومة الإغراء. والآن - هذا ما حدث...

ماذا تفعل؟ ماذا تقول للأستاذ؟ لم يبدأ الأسبوع بعد - وهذا المأزق!

تجلس زولا، وتصغي.

شفتي «لا بيس» السوداوان نصف مفتوحتين - تخرج منهما أصوات خشنة، وكلمات، ومعها يسيل لعاب وردي من فمها. تسكب زولا الشاي في هذه الفجوة التي لا شكل لها، على الرغم من أنها تفهم تماماً - أن هذا لا طائل منه. لقد فات الأوان...

تحرك «لا بيس» شفتيها الجافتين، وترفع حاجبيها في توتر بلا وعي - تحاول أن تبتلع. المشهد مرعب وغير سار. تدير زولا نظرها. تختنق «لا بيس»، وتهزها نوبة سعال.

تبدأ زولا في تلاوة صلاة طويلة.

تفتح «لا بيس» عينيها. تشعر زولا بالنشاط. ربما تحسنت؟ ربما ستمر الأزمة - ففي النهاية لم يمت أبو؟

تتلو زولا الصلاة بصوت أعلى.

نظرة «لا بيس» تفقد عدم وعيها - قوة الله العظيمة! تنظر الفتاة إليها، وكأنها تمتصها بعينيها، وتحرك شفتيها. لكن هذا لا يستمر إلا للحظة، وخلالها تنطق «لا بيس» بكلمة واحدة - وأخيراً الكلمة الوحيدة التي فهمتها زولا.

في جميع اللغات، تُنطق تقريباً بنفس الطريقة.

«ماما...»، تزفر «لا بيس».

وبعد ذلك، يسيل الدم الأسود من حلقها...

***

تذكرت مارتا من أي مغامرة بدأ هذا الشهر.

ليس حتى من مغامرة - بل بالأحرى من رغبة في المغامرة، من شعور مسبق. من حقيبة يد بيضاء وفستان صيفي أبيض. من تلك اللحظة، عندما وقفت عند التقاطع، وفجأة فكرت: «اليوم هو يومي!»

ولم تخطئ.

دار القدر بوجهه نحوها والآن يمكنها أن تقول - كل شيء هنا ملكي: الشمس، الهواء المشبع بالروائح والأصوات، المدينة، الزهور، الأشجار. العالم بأسره!

ولكن في أعماقها، تحت طبقات كل هذا الثراء، كان لا يزال هناك شعور غير مريح بأنها تركت فتاة مجهولة المصير، وشطبت من حياتها ما لا يجلب السعادة.

الناس، بغض النظر عما يقال، أنانيون للغاية! عندما لا يكون لديهم ما يفعلونه - يكونون دائماً على استعداد للمساعدة، والتعاطف، والتأوه على مصائب الآخرين، ولكن بمجرد أن يدوروا في دائرة المرح الخاصة بمشاعرهم، تتلاشى مشاكل الآخرين على الفور، وتُمسح من الذاكرة، كأنها لم تكن موجودة. إذن، هل يعني هذا أن التعساء فقط يمكنهم مساعدة التعساء؟!

هذه الفكرة أزعجت مارتا بشدة. تذكرت كيف ذهبت إلى تلك القرية لسبب ما، وبحثت عن والدة الفتاة، ومن المؤكد أنها جلبت الارتباك والقلق إلى قلبها.

وماذا الآن؟ الآن هي سعيدة، ناجحة، هادئة، لديها ما تفعله - على سبيل المثال، الاستعداد لرحلة، وشراء ملابس السباحة، وكريمات الوقاية من الشمس، وصنادل جديدة. الباقي، كما يقولون، «لا يهم»: نعم، مغامرة في مكان فارغ من «عدم وجود شيء تفعله»، مثل دروس القيادة التي نسيتها أيضاً. ونسيت أيضاً ابن أخيها في الحديقة. لم تكن مربية. كفى.

نظرت مارتا إلى الورقة التي تركت على الطاولة. «شارع كاشتانوفا...» - العنوان الذي حصل عليه ديمتري، وشعرت بالضيق مرة أخرى. لماذا أدخلته في هذه القصة الغريبة! من الواضح أنه قلق عليها، وربما يغار. وماذا لو أخبر سيرجي حبيبها بكل شيء - عن الهاتف، وعن التهديدات؟!

لا، يجب أن تتصرف. جاءت فكرة إلى مارتا أنها يجب أن تذهب ببساطة إلى هذا العنوان، قبل أن يسبقها ديمتري ويوقع بنفسه في مشكلة. فسيرجي كان لا يزال يبدو أقوى بكثير!

كان يتبقى بضع ساعات قبل مجيء ديمتري. استعدت مارتا، ودون أن تفكر فيما إذا كان ما تفعله صحيحاً، ذهبت إلى العنوان المذكور على الورقة.

في الطريق، قررت أنها ستفهم في المكان ما إذا كانت هذه المغامرة مناسبة. على الأقل، لديها بضع ساعات للتجول حول المبنى لتهدئة ضميرها.

وبعد ذلك - كيف تسير الأمور.

كان المبنى في شارع كاشتانوفا محاطاً بالمقاهي والمتاجر التي تبيع البيرة المشكوك في أمرها والمشروبات الكحولية القوية - وبالتالي كان الجمهور مناسباً.

لكن من المقهى، كان المبنى والساحة مرئيين بشكل جيد، بالإضافة إلى ذلك، بالجلوس على الطاولة، يمكن للمرء أن يتجنب لفت انتباه السكان.

فعلت مارتا ذلك، على الرغم من أنها اضطرت لشراء رقائق بطاطس، التي قدموها على طبق صغير، مشكوك فيها مثل البيرة السائلة الصفراء الغائمة.

جلست، ووضعت نظارتها الشمسية السوداء، وفتحت صحيفة - تماماً كما يظهرون في الأفلام.

بعد أن جلست لمدة نصف ساعة، شعرت مارتا بالملل، واعتبرت تصرفها سخيفاً. كان بإمكانها ببساطة أن تصعد إلى الطابق المطلوب، وتدق على الباب. ولكن كلما جلست أكثر، كلما وجدت أن القصة بأكملها أقل منطقية. الذهاب إلى شقة رجل غريب كان أمراً غير سار. بالإضافة

إلى ذلك، كما حذر ديمتري - خطير. وماذا لو كان بالفعل مصاباً بانفصام الشخصية أو معتلاً نفسياً؟ وماذا يجب أن تستفسر منه؟ هل سيقول أكثر مما قال؟

كان اليوم الحار يتلاشى ببطء، وفي الظل كانت هناك نسمة باردة. كانت الصحيفة قد قُرئت وأُعيد قراءتها، وبدأ رواد المقهى يلاحظونها.

ماذا تنتظر هنا؟

دخل سكان المبنى وخرجوا: في البداية، كان معظمهم من المراهقين الذين يقضون العطلة في المنزل، والأمهات الشابات مع عربات الأطفال، وبعد فترة قصيرة، بدأ الرجال والنساء العائدون من العمل يذهبون إلى منازلهم، وبدأت الجدات المذهولات من مشاهدة المسلسلات التلفزيونية طوال اليوم يخرجن إلى هواء المساء البارد. توقفت السيارات بالقرب من المدخل. ازدادت حياة الساحة حيوية. ومارتا فقط جلست وكأنها تحجرت، وتلوم نفسها على عنادها.

توقفت سيارة أجرة أمام المبنى.

لم تتفاجأ مارتا على الإطلاق عندما نزل من السيارة الشخص الذي تعرفت عليه مؤخراً.

كانت قد سئمت من المراقبة الغبية لدرجة أن وصول سيرجي إلى منزله لم يثر لديها أي مشاعر. حسناً، لقد وصل - لقد وصل. ماذا تفعل هنا؟ ما الذي يجب عليها فعله؟ هل تقترب منه، وكأن شيئاً لم يحدث،

وتعتذر عن وقاحتها، وتطلب منه ألا يلتقي بديمتري؟ وكيف ستشرح ذلك؟ لقد تخيلت بالفعل ابتسامته الساخرة وعينيه المغمضتين بمكر - زواياهما متجهة للأسفل. سخيف ومذل!

أخفضت مارتا رأسها أكثر حتى لا يلقي نظرة في اتجاهها، ونظرت بعينيها المائلتين.

خرجت فتاة ببطء من السيارة خلف سيرجي.

وبشكل أكثر دقة، انحنى سيرجي فوق الباب وأخرجها حرفياً من السيارة - بكلتا يديه. ثم قادها نحو المدخل، ممسكاً بكتفيها.

كانت الفتاة تمشي بخطوات غير ثابتة. وقبل أن تختفي في الباب، نظرت حولها بخوف. رفعت مارتا نظارتها الميكانيكية.

كانت قادرة على أن تقسم ليس فقط بيديها، بل برأسها أيضاً: إنها زويا!

عادت إلى المنزل وهي مرتاحة إلى حد ما.

ولكن في الوقت نفسه كانت غاضبة جداً من نفسها: الفتاة المختفية كانت حية وبصحة جيدة، وكل تحقيقاتها الهواة كانت مجرد لعبة غبية، إضاعة للوقت. وكانت تفكر في سيرجي بكراهية: لماذا خدعها؟ هل قرر أيضاً أن يستمتع؟ أن يسخر منها؟ مزحات لا بأس بها، خاصةً إذا أخذنا في الاعتبار التهديدات الهاتفية...

ولكن حقاً - لماذا كل هذا؟ ما الذي يكمن وراء هذه السخرية؟

كانت مارتا تمشي ببطء نحو منزلها، والأفكار الجديدة تبطئ خطواتها تدريجياً. في النهاية، جلست على مقعد.

شيء واحد كان واضحاً: هذه الفتاة، زويا، لم تكن تمزح عندما هربت من هذا المنحرف؛ وواضح أيضاً: إنهما معاً مرة أخرى. ولكن كيف يمكن الجمع بين الأول والثاني؟

جلست مارتا، وكأنها لقطات من فيلم، تمرر في ذهنها اللحظة التي خرج فيها الزوجان من السيارة. خرج سيرجي أولاً. وهنا تذكرت مارتا كيف نظر حوله، وبعد ذلك فقط نظر إلى داخل السيارة، وقال شيئاً. لم تخرج الفتاة على الفور.

على الأرجح، بدا خروجها من السيارة هكذا:

أخرجها سيرجي من هناك. سحبها بكلتا يديه، مثل سمكة من الماء.

ثم أمسك بكتفيها بقوة.

كادت مارتا أن تصرخ: نعم، نعم، لقد كان يمسك بها، وكأنها ستسقط أو...

أو تحاول الهروب.

على عتبة الباب، نظرت الفتاة إلى الوراء.

شدت مارتا ذاكرتها لتستعيد تلك النظرة بدقة. وكادت أن تقفز من مكانها مرة أخرى: نعم، نعم، كان في عينيها رعب، وتوسل، واستجداء.

وكانت الفتاة نفسها تبدو مرهقة.

ضغطت مارتا يديها على ركبتيها وكادت أن تئن من الاكتشاف المروع: كان هذا «عودة الهاربة»! لقد أجبرت على العودة! كان يمسك بكتفيها وكانت تتبعه بطاعة.

شعرت مارتا بالحزن. انتهت المغامرة بشكل بسيط وعادي، وعاد كل شيء إلى مكانه، ولم يعد هناك ما يمكن الحديث عنه. الناس هم الناس، ويعيشون كما يعيشون، ولا ينبغي للمرء أن يقلق بشأن كل صرخة خلف الجدار، لأنه لا يرى دائماً وجه من صرخ، بدأت مارتا تقنع نفسها. الصرخة التي تُسمع بالصدفة لا تشير دائماً إلى مشاكل في عائلة تعيش وفقاً لقوانينها الخاصة - التي تكون في بعض الأحيان تافهة وغير مثيرة للاهتمام. ولا يوجد علاج لذلك.

تذكرت أن والدتها، التي كانت تعاني من شخصية والدها القاسية، كانت تقف إلى جانبه كالجبل، عندما كان الجيران يستدعون رجال الشرطة، وبعد ذلك لم تكن تلقي التحية على الجيران لفترة طويلة، معتبرة أنهم تدخلوا فيما لا يعنيهم.

يمكن للمرء أن يتعاطف مع تلك «الصرخات خلف الجدار» ويواصل العيش، على أمل أن يساعده من هم أقرب إليه. وألا يعرف شيئاً. الأسوأ هو عندما تكتسب تلك الصرخة المجازية شكلاً محدداً تماماً - كما في تلك الصورة التي رأتها مارتا في ألبوم والدة زويا المدرسي: القوام، والعينين، ولون الشعر، وتعبير الوجه. عندها، يفقد المرء

هدوءه.

وبالتفكير بهذه الطريقة، توصلت مارتا إلى استنتاج مفاده أنه يجب عليها التحدث مع الفتاة، إما عن طريق التسلل أو الذهاب إلى المبنى عندما لا يكون سيرجي في المنزل. هذا هو أولاً.

وثانياً، فضح سيرجي - والقيام بذلك بطريقة تضمن معاقبته في حالة أي عنف أو انتقام. أي، يجب إثبات، ويفضل بوجود شهود، أن التهديدات على هاتف الفتاة المحمول جاءت منه. ولكن كيف تثبت ذلك؟

كادت مارتا أن تضحك بصوت عالٍ، «يا لي من حمقاء جاهلة!» والهاتف؟!!

يجب عليها إعادة بطاقة الشريحة، واستدعاء سيرجي للقاء، ويفضل أن يكون ذلك في مكانها، ويفضل أن يكون ذلك بحضور ديمتري - ثم تتصل بالرقم الذي تم حفظه على البطاقة! الأمر بسيط.

لقد تم اتخاذ القرار.

نهضت مارتا من المقعد بقرار وعادت إلى مدخل منزلها. كان يتبقى ساعة ونصف قبل وصول حبيبها، وكانت تريد أن تستريح، وتغير ملابسها، وتعد شيئاً لذيذاً.

***

في الشقة، كان الهاتف يرن بعنف. دون أن تغلق الباب خلفها، ركضت

مارتا إلى الغرفة وتمكنت من التقاط السماعة.

«أين أنتِ؟» سمعت صوت ديمتري القلق. «أنا أتصل منذ ساعة! هل أنتِ بخير؟»

«نعم، نعم، حبيبي،» سارعت مارتا لتهدئته. «نسيت أن آخذ هاتفي المحمول.»

«الحمد لله!» تنهد بارتياح وضحك في السماعة. «الهاتف المحمول شيء ضروري. اعتادي عليه.»

«أنت تعلم أنني لا أحب التكنولوجيا!»

«لا تجادلي، يا صغيرة، ستفهمين بنفسك كم هو مريح. بالإضافة إلى ذلك، أنا أجن عندما لا أعرف أين أنتِ، وماذا يحدث معكِ! من المؤكد أنني أحمق... أنا أحبك، أحبك، أحبك. سأكون هناك قريباً! سأحضر سرطان البحر. هل تحبين سرطان البحر؟ والنبيذ الأبيض.»

«والبرتقال!» ضحكت.

ضحك هو رداً عليها. في الأمس، أخبرته كيف أحضرت والدتها البرتقال إلى المنزل لأول مرة. كانت تبلغ من العمر ثلاث سنوات في ذلك الوقت، وكانت تراها فقط في الصور - في أيدي قرود مرسومة أو في خراطيم فيلة. كان البرتقال مخصصاً لشجرة عيد الميلاد، ووضعته الأم عالياً على الخزانة «حتى تنضج». لكنها لم تستطع الانتظار، فالفضول كان أقوى من العقاب: صعدت على كرسي، وأخذت الفاكهة

الذهبية، وأغلقت على نفسها في الحمام و... أكلتها، مثل التفاحة، عاضة إياها مع القشرة. كان العصير يسيل على يديها حتى مرفقيها، وكانت والدتها تطرق على الباب، وهي، مثل حيوان صغير، كانت تلعق أصابعها و... «وتعلمين، في ذلك الوقت شعرت بسعادة غامرة! مثل... مثل حواء التي أكلت التفاحة المحرمة من جنة عدن وشعرت ما هو الحب...»

«لا برتقال!» قال في السماعة. «إنها حلوى بروليتارية. سرطان البحر يناسبه الأفوكادو!»

أرادت أن تجيب، لكنه قطع الاتصال.

سرطان البحر. النبيذ الأبيض. الأفوكادو...

كان كل شيء غير عادي جداً، وأنيق جداً. لا يوجد - «أولاً، ثانياً، ثالثاً، و... كومبوت»!

لقد علمها بشكل عام أن تتناول طبقاً واحداً فقط في المنزل - ولكن طبقاً لذيذاً وسهل الهضم والإعداد.

كان هذا اكتشافاً. كانت مارتا تبتسم الآن، وهي تفكر بنفس الطريقة التي يفكر بها. وتفاجأت - حقاً، لماذا يجب أن تقف بجانب الموقد، كما لو كانت «بجانب فرن صهر»، إذا كان «قائمتك» تتكون من «طبق أول»، و«طبق جانبي» و«مشروب» مع تغييرات طفيفة، وهذه «الثلاثية» الكلاسيكية، التي يتم تناولها بالتتابع ولكن في نفس الوقت تقريباً،

تحولك إلى «مصنع متنقل لمعالجة الطعام». ما هو الهدف؟ أن تأكل ما تستمتع به. ما يبدو جميلاً. ما لا يسبب نعاساً غبياً أو حرقة. لماذا يأكل الناس كثيراً؟ ولماذا بعد الحساء أو البورش، يجب أن تقدم البطاطس المقلية مع شرائح اللحم وتضع على المائدة سلطات، والتي تذهب لاحقاً «إلى سلة المهملات».

أدخلها ديمتري إلى عالم الطبخ الرفيع، ولم يتوقع منها إعداد مجموعة كلاسيكية للعشاء. إذا كان هناك بطاطس مع اللحم - فهذا يكفي تماماً للشعور بالشبع، دون خلط النكهات، ودون إرهاق المعدة. وقد أعجبها ذلك كثيراً. إذن، لن تضطر أبداً لإضاعة الوقت في المطبخ!

ستقرأ، وتشاهد أفلاماً جيدة. وربما تبدأ في الرسم - هواية كانت قد نسيتها منذ فترة طويلة...

***

يدخل الشفق الوردي عبر الستائر الوردية، التي اشترتها مارتا مؤخراً.

الغرفة مرة أخرى مليئة ببتلات الورد. لقد تغير فيها الكثير. حتى من أبعد الزوايا تبددت رائحة اليأس، وأضيفت المزهريات التي تحتوي الآن دائماً على الزهور. بمجرد أن تبدأ في الذبول، تظهر مكانها زهور أكثر حيوية: ديمتري لا يحتمل رؤية بتلات ذابلة. يجمعها بعناية في كيس بلاستيكي ويأخذها على الفور إلى سلة المهملات.

يحضر الزهور في باقات.

وتعيش مارتا دائماً في تبعية حلوة لرائحة الورود، الزنابق، والأقحوان الرائعة.

إنها مستلقية، محاطة بالزهور حتى اليوم، عشية المغادرة، وتأسف لأن كل هذا الجمال سيتعين التخلص منه في الصباح.

لكن الليلة - ليلتهما. الأخيرة، أو كما يقال الآن - «النهائية»، قبل الرحلة. قبل هذه الرحلة الهامة، التي من المؤكد أنها ستوضح ما إذا كانا مناسبين لبعضهما البعض، عندما يترك عملهما، وحياتهما اليومية، ومشاكلهما، وكما يقولون الآن - «فترة السكاكر والزهور» خلف الحدود. هذا يقلق مارتا قليلاً: هل ستكون جديرة بخطيبها، وهل لن تخيب أمله. على الرغم من أن الصباح سيجلب لكليهما مشاغل «عائلية» عادية - شرب القهوة في الصباح، والتحقق من التذاكر، والتعبئة النهائية للحقائب. حياة بسيطة وعادية. حياة غير عادية! مرغوبة جداً، لدرجة أن قلب مارتا يصبح دافئاً من توقعها. خاصة الآن، عندما تسمع صوت الماء يتدفق في الحمام.

لقد اعتادت بالفعل أن ديمتري يحب الاستحمام لساعات، وهذا أيضاً يثير مشاعرها.

يخرج من الحمام، كأنه طفل رضيع - بالنسبة لها، هو دائماً يفوح برائحة الفراولة والحليب. عندما أخبرته بذلك مرة، ضحك ديمتري، وأشار إلى أن الناس يجدون بعضهم البعض حقاً من خلال الروائح - على المستوى الحسي الحيواني. تماماً كما وجدها هو، لأنها في تلك

اللحظة، عندما اقترب، كانت تفوح أيضاً برائحة التوت والعسل.

بينما يتدفق الماء، لدى مارتا وقت.

تنهض من السرير، وتبحث في الدرج، وتجد السماعة الأرجوانية واللوحة البلاستيكية الصغيرة التي كادت أن ترميها من النافذة في ذلك اليوم الأول البعيد من إجازتها الغريبة.

كم هو بعيد الآن، ذلك اليوم. وتلك المحادثة - بالتأكيد ليست «نهائية»، بل الأخيرة! - مع أندريه. وتلك الدموع السخيفة. دموع النساء. ولكن، حقاً، على ماذا كانت تأسف؟ همست مارتا بصوت عال - «يا لها من غبية!»

وهي تخرج طرف لسانها من التركيز، تقوم مارتا بإدخال بطاقة الذاكرة بعناية في الهاتف الأرجواني، وتخرج من حقيبتها الشاحن الذي اشترته من أقرب كشك، وتوصله بالمقبس تحت السرير، وتضغط على الزر الذهبي. يصدر الجهاز الأنيق صوتاً أنيقاً - يعود إلى الحياة. تدخل مارتا أربع وحدات. كل شيء كما نصحتها تتيانا، التي استشارتها قبل ساعة.

«الدليل» - جاهز!

الآن حان دور إضافة قصة أخرى، الأكثر إزعاجاً، إلى القصة التي يعرفها ديمتري بالفعل - قصة هذه السماعة المسروقة.

تضع مارتا الشيء اللطيف على الأرض بجانب المقبس: «كل، كل، يا

صغيري!»

وتسمع رنين جهاز الهاتف القديم على الطاولة.

***

«مارتا؟»

لم يكن بالإمكان أن يكون أفضل من ذلك! من المؤكد أن هناك توارد خواطر في العالم. أو ربما لاحظها للتو أمام منزله، والآن في المساء تحدث معها بنفسه. وكأنه شعر بأن الأمر أصبح جدياً. أجابت بأكبر قدر ممكن من الود.

«نعم، سيرجي، أنا.»

«شكراً لكِ لأنكِ لم تغلقي الخط،» قال بسخريته المعتادة. «يبدو أنكِ أخيراً وافقتِ على التحدث؟»

«بالتأكيد!»

«عظيم. لدي أخبار مذهلة!»

«نعم، أنا موافقة على التحدث،» قاطعته مارتا. «ولكن ليس عبر الهاتف.»

«لم أكن لأتوقع شيئاً أفضل!» قال سيرجي بمرح. «ألن يكون متأخراً جداً أن نلتقي الآن؟»

«سيكون كذلك،» أجابت بهدوء وصرامة، وهي تكبح فرحتها بصعوبة: كل شيء يسير تقريباً كما أرادت. لكن عليها أن تحافظ على هدوئها، وألا تظهر اهتماماً خاصاً، ولا قلقاً. أن تأخذ وقفة، كما يقول الممثلون.

«لكن الأمر مهم!» يائساً المتصل. «لا يتعلق بي فقط! بل بكِ أيضاً.»

«بالطبع،» فكرت مارتا - «وبكِ أيضاً، وبتلك المرأة التعيسة، وبك أنت نفسك.»

«إذن، ما الذي تقترحه؟» قادت المحادثة ببراعة. «لن أذهب إلى المدينة. لقد فات الأوان.»

«حسناً... يمكنني أن آتي إليكِ...» أجاب سيرجي بحذر. «هل ستسمحين لي بالدخول؟»

أخذت مارتا وقفة مرة أخرى.

«حسناً،» أجابت، متظاهرة باللامبالاة، لكنها سعيدة بهذا التطور في الأحداث. «سجل العنوان.»

ولم تستطع منع نفسها من السؤال:

«هل ستكون بمفردك؟»

«بمفردي؟ بالطبع بمفردي...» تمتم وأضاف بأدب: «وأنتِ؟ هل سأفسد خططك المسائية؟»

«يا إلهي!» أجابت بأكبر قدر ممكن من الود، وهي تشعر بأنها ممثلة حقيقية. «ليس لدي أي خطط. تعال.»

أغلقت الخط وقفزت من السرير - يجب أن ترتدي ملابسها وتكون مستعدة لكل شيء. ربما تتصل بالشرطة. لكن مارتا استبعدت هذه الفكرة على الفور - لن يهتم أحد بقصة عائلية غريبة.

بالإضافة إلى ذلك، يجب أن تتشاور مع ديمتري، الذي لا يزال يغني في الحمام. سيخرج قريباً، وستخبره بكل شيء - هذا هو أفضل طريقة للتخلص من كل هذا الهراء: مرة وإلى الأبد!

تخيلت مارتا كم سيتفاجأ حبيبها عندما يراها جاهزة تماماً «للمعركة» - ليست بقميص النوم، بل بالجينز.

غطت مارتا السرير المجهز باللحاف واستلقت فوقه. نظرت إلى الأرض - كان الهاتف الصغير يشحن بشكل جيد وسريع. أحسنت، يا صغيري!

بضع دقائق ستكون كافية! وليس هناك حاجة لأكثر من ذلك.

«إنها ليست وحدها الآن، ولذلك لا تشعر بالخوف،» فكرت مارتا، وهي تمرر أصابعها على السطح الأملس للسماعة الأنيقة. «لم تغنِ منذ فترة طويلة...»

وفجأة، خطرت لها فكرة جديدة: ماذا لو ضغطت على زر «الرد»؟ الآن؟ ماذا سيحدث؟ هل ستحصل على إجابة؟ «بالمناسبة،» فكرت

مارتا، «يجب أن أحصل عليها!» لأنه إذا لم يجب أحد على الطرف الآخر - فإن هذا سيعني فشلاً كاملاً «للعملية» التي خططت لها اليوم. ووصول سيرجي سيفقد معناه. بل على العكس - سيغضب ديمتري، وسيضعها في موقف غريب وغامض. صرخت مارتا. «بالطبع!» لماذا لم تفكر في هذا من قبل؟!

أخذت مارتا السماعة، التي لا تزال «متصلة»، لكن من الواضح أنها تعمل بالفعل.

للحظة، حبس أنفاس مارتا: إنها لا تريد الاتصال على الإطلاق، وإذا كانت صادقة تماماً، فإنها تشعر بالرعب من مجرد ذكر التهديدات. لكنها ليست وحدها الآن، تؤكد مارتا لنفسها، وتضغط على زر الاتصال.

«هيا، هيا، هيا...» تقول في نفسها، وهي تستمع إلى نغمة الرنين، وتشعر أن جسدها يرتجف من الإثارة. تضع مارتا يدها على فمها - ستستمع فقط. ستستمع فقط ولن تصدر أي صوت. أخيراً، تختفي نغمة الرنين.

تتحول الإشارة إلى ضوضاء الشارع الرتيبة، على الأرجح. على خلفية هذا الصوت الرتيب، تسمع همساً خافتاً، لكنه واضح بما فيه الكفاية: «فتاة مطيعة... كنت أنتظر مكالمتك... الآن استمعي جيداً: اخرجي إلى مكاننا. ولا تفكري في المزاح معي...»

تصدر أصوات صفير الانقطاع.

تشعر مارتا ببرودة في قدميها - صقيع لاذع يرتفع أعلى وأعلى، ويغطي جسدها بالثلج، الذي يصبح على الفور خدرًا، ويتصلب كما لو كان في حالة تشنج.

حتى عندما سمعت هذا الهمس لأول مرة، لم يكن الأمر بهذا الرعب.

في ذلك الوقت لم تستطع تحديد هويته، أو ربطه بشخص معين، بدا لها أن الصوت موجود فقط في السماعة، مثل أصوات المشغلين المسجلة على شريط - «المشترك خارج نطاق التغطية...»

لكن هذا المشترك كان يتحدث معها بنفس الهمس المرعب والمخترق!

وكان هذا هو سيرجي. لا شك في ذلك. ربما كان يصعد بالمصعد بالفعل - من هنا، خمّنت مارتا، جاءت تلك الخلفية الصوتية الرتيبة. لكنه الآن كان يخاطبها هي! هي بالتحديد! من غيرها - فقد قام بالفعل بترويض زويا! «إذن،» فكرت مارتا، «إنه يستدرجها خارج الشقة. ليترصدها على الدرج.» وماذا بعد ذلك؟ هل ستتمكن حتى من الصراخ، وهل سيسمعها ديمتري، الذي لا يزال يستحم بلا مبالاة تحت الدش؟

دسّت مارتا السماعة باشمئزاز في جيب الجينز. كانت الآن تحلم بشيء واحد فقط - أن يخرج ديمتري من الحمام بسرعة، ويعانقها، ويوقف رعشتها بحركة واحدة، تلك الرعشة التي لم تستطع إيقافها بأي شكل.

تسللت مارتا على أطراف أصابعها إلى المدخل وألصقت أذنها بالباب.

وفي هذه الوضعية، وجدها ديمتري المندهش. خرج إلى المدخل منتعشاً، وكان هو أيضاً مرتدياً ملابسه، وكأنهما يستعدان للنزهة.

«صغيرتي...» بدأ يتكلم، وهو ينظر إليها بأسف.

غطي شعره المبلل ببعض الخصلات الطفولية الماكرة. مارتا، دون أن ترفع أذنها عن الباب، وضعت إصبعها على شفتيها: «ششش...»، لأنها في تلك اللحظة سمعت بوضوح حركة هادئة على الدرج.

توقف عن الحركة وسأل بشفتيه فقط: «ماذا حدث؟»

«إنه هنا...» همست مارتا، «خلف الباب...»

تخيلت يد سيرجي في تلك اللحظة تتجه نحو جرس الباب.

لكن قبل أن يرن، يجب أن تتصرف!

تسبقه! تفاجئه!

دعه يهمس مرة أخرى في السماعة بصوته البغيض وغير الإنساني. يجب أن يسمع ديمتري ذلك بعينيه وأذنيه - وعندها سيفتحان الباب على مصراعيه. وسوف تنتهي «لحظة الظلام»، وسوف ينتقلان إلى الجانب الآخر - إلى الأيام المشمسة في رحلتهما القادمة. لم يعد هناك وقت لسرد القصة الكاملة عن الهاتف.

لاحقاً.

كل شيء لاحقاً!

وضعت مارتا إصبعها على شفتيها ومدت يدها بحزم إلى جيبها.

***

يحدث كل شيء في نفس الوقت!

مارتا، وهي تضع إصبعها على شفتيها، تمد يدها إلى جيب الجينز...

سيرجي يمد يده إلى جرس الباب...

مارتا تخرج السماعة الأرجوانية...

ديمتري ينظر إليها بدهشة...

مارتا تقوم بإيماءة مطمئنة - «الآن ستسمع...»

سيرجي يضغط على زر الجرس...

مارتا تضغط على زر الاتصال...

على جانبي الباب، يسود صمت لا يطاق.

ينظر ديمتري بقلق إلى مارتا.

تتمكن مارتا من الابتسام له... وتسمع لحناً مألوفاً يرن في جيبه.

لحناً مقلقاً، لا ينتمي إلى هذا العالم...

لحناً جنائزياً. «أداجيو ألبينوني!»

وبعد ذلك يحل الظلام.

ظلام تام...

بعد سبعة أيام

لا تعلم مارتا كم مضى من الوقت؛ يوم، شهر، سنة، سنتان، أم أبدية؟ كل ما تتذكره هو صرختها وصدمة في الباب، ومن بعدها... هذا الظلام اللامتناهي.

ربما لأن جفنيها مغلقان بإحكام؟ لكن مارتا تخاف أن تفتح عينيها، لا تريد ذلك. لا تريد أن ترى أي شيء. لا تريد أن ترى النور. إنه يؤلم. رأسها يؤلمها وكأنه محصور في قبضة. والتنفس صعب. حولها حركة، خشخشة، همسات، وخطوات هادئة. لا تريد مارتا أن تعرف أين هي، وماذا حدث لها، ولماذا هذا الضغط على صدغيها. الأهم هو ألا تفتح عينيها.

أن ترقد فحسب.

ألا تفكر.

أن ترى الظلام وحسب.

ألا ترى شيئًا...

أن تسبح في العتمة ولا تسمح لعقلها باستقبال أي شيء سوى الظلام. حتى لو كانت مدفونة حية، حتى لو كان هذا نومًا عميقًا، أو موتًا سريريًا، أو غيبوبة، أو شللًا؛ لا يهم. لا تريد أن تعرف، أو تشعر، أو ترى أي شيء.

يكفيها ذلك المشهد الذي انطبع على قزحية عينها في اللحظة الأخيرة: وجه من كانت تبتسم له. وهذا الوجه يرتعش ويتغير، كأنه انعكاس في الماء قُذفت فيه حصاة. ففي لحظة سابقة كانت شفتاه مبتسمتين، وإذا بهما يتحولان إلى هاوية سوداء، وعيناه تكادان تقفزان من محجريهما، ممتلئتين بالغضب، تسحبانها نحوهما كدوامة.

كل هذا يحدث على إيقاع الموسيقى التي تصدر من جيبه، على أنغام «أداجيو ألبينوني» المليء بالقلق والجمال.

يستمر هذا للحظة. بعدها يحل الظلام.

«هل استعادت وعيها؟» تسمع مارتا أصواتًا فوقها.

«أعتقد ذلك... لكن من الأفضل عدم إزعاجها الآن.»

«ماذا بها؟»

«ارتجاج في المخ. لكن الأمور على ما يرام. لو أن الضربة كانت على الصدغ...»

«هل تعرضت للضرب؟»

«لا. لم تُضرب. ارتفع مستوى السكر في الدم فجأة، وهذا يحدث بسبب الإجهاد الشديد، وفقدت وعيها. وعندما سقطت، ضربت رأسها بشيء صلب.»

«هل هي مصابة بالسكري؟»

«لا أعتقد. هذا ليس ضروريًا في مثل هذه الحالات. فقط عليها أن تراقب نظامها الغذائي لبعض الوقت. وأنت... هل أنت زوجها؟»

«أو-ه... هل تظن أنها تسمعنا؟»

«لا بد أنها تسمعنا الآن.»

«ولكن لماذا عيناها مغلقتان طوال الوقت تقريبًا؟ هل هذا طبيعي؟ أليست في غيبوبة؟»

«يا شاب، من الطبيب هنا، أنت أم أنا؟ ستكون بخير. يمكنك الذهاب. خذ قسطًا من الراحة. لديك هالات سوداء تحت عينيك.»

«لا، سأبقى.»

«كما تشاء...»

تسمع مارتا خطوات تبتعد. ويبقى بجانبها أنفاس شخص ما.

لو فتحت عينيها، سيبتلعها ويحرقها.

مارتا تشعر بالراحة وهي تسبح في الظلام. إنه لا متناهٍ، بلا حدود.

«مارتا... مارتا...» همس يتردد فوقها. «مارتا، هل تسمعينني؟»

تضغط مارتا على طرف الغطاء في كفها، وتحرك أصابعها وكأنها تبحث عن زر لإيقاف هذا الهمس. تضع يد شخص ما على يدها، لتوقف هذه الحركة التشنجية.

«مارتا...»

ترتجف جفناها. يمر ضوء مؤلم عبر رموشها؛ خطوط برتقالية، ونقاط زرقاء، وزخارف خضراء متعرجة. من خلالها، ترى مارتا ظلًا أسود ينحني فوقها.

أقرب، وأقرب. يظهر وجه: ثلاث هاويات سوداء - العينان والفم...

تريد مارتا أن تصرخ، أن تقاوم، أن تدفعه بعيدًا. لكن ليس لديها قوة. هي فقط تئن. يتأرجح الوجه، مثلما حدث في اللحظة الأخيرة قبل الظلام. ولكن النور قد أتى الآن، ولا مفر منه.

يميل الوجه أقرب - لا، هذا ليس نفس الوجه، تفكر مارتا. ليس هو. إنه وجه آخر. زوايا عينيه مائلة للأسفل. عيون غريبة. «عيون مصرية». تنظر بلطف وقلق.

«مارتا...»

أخيرًا يتوقف الوجه عن التذبذب، فبصرها يستعيد تركيزه ببطء، وعيناها تعتادان على الضوء.

«أنا سيرجي.»

مارتا تتعرف عليه.

«كل شيء سيكون على ما يرام»، يقول.

تفتح مارتا شفتيها، لكنهما ملتصقتان، وكأنهما مدهونتان بالعسل.

والكلمات تضيع، تخرج منهما مثل الهواء من كرة أطفال مثقوبة:

«أين... أنا؟... ما... الذي حدث؟...»

«أنتِ في المستشفى»، يسارع سيرجي لإخبارها قبل أن تغرق في النسيان مرة أخرى. «فقدتِ الوعي، وسقطتِ، وضربتِ رأسكِ.»

«وهو... ماذا... حدث... له؟»

«لم ألحق به.»

يلقي سيرجي نظرة خاطفة على الباب، ليرى إن كان الطبيب أو الممرضة، اللذان طلبا منه عدم إزعاج المريضة، قادمين، ثم يتردد.

«أخبِرني...» تأمره مارتا.

«قفز من النافذة. لم يعد موجودًا. لا تخافي.»

تحول مارتا نظرها: هل كانت خائفة حقًا؟

«من... هو؟ لماذا؟» تسأل.

«مجند، تاجر»، يجيب سيرجي بصوت خافت وحازم.

«مَن؟» تتنهد مارتا.

«تاجر بالبشر»، يجيب ببرود، لكنه عندما يرى القلق في عينيها يضيف: «عليكِ أن ترتاحي. سأخبركِ بكل شيء لاحقًا. أنتِ بأمان.»

«وزويا؟...» لا تتوقف عن السؤال.

«هي بخير. لقد وجدتها! في محطة القطار. كانت ضعيفة وخائفة جدًا. نامت يومين دون أن تستيقظ! أردتُ أن أخبركِ، لكنكِ... أممم...»

يشعر بالحرج، لا يريد أن يذكرها بالحادثة المؤلمة، فيقول بهدوء:

«كل شيء كان مثلما حدث معكِ. أخبرتني زويا بكل شيء. وعلمتُ صدفةً، قبل السفر بيوم واحد، أنه كان يخطط لتركها في الخارج. سمعتُ محادثة هاتفية. سمعتُ وهربتُ. اختبأتُ، وخافت أن تذهب إلى والدتها، لأن لديهم شبكة قوية وعملاء، يجدونكِ حتى تحت الأرض.»

«والفستان؟ والهاتف؟ والمحل؟» تسأل مارتا بشكل متقطع.

لكن سيرجي يفهم تمامًا ما تتحدث عنه. ويتردد فيما إذا كان يجب أن يخبرها بالخطر الذي نجت منه.

«لقد أعطت الفستان، وكان الهاتف في جيبه. كما توقعنا، كانت مضطربة وطلبت استعادة جزء على الأقل من ثمن الفستان. وكادت بصعوبة أن تهرب من المحل في ذلك الوقت. كانت صاحبته تقدم المساعدة بإلحاح شديد.»

«يا لها من امرأة لطيفة...» تتذكر مارتا.

«تلك المرأة اللطيفة كانت متورطة أيضًا.»

تغمض مارتا عينيها جزئيًا وتهز رأسها - لا يمكن أن يكون.

يمسح سيرجي دمعة تسيل على خدها برفق.

«انسَني. لقد تم القبض عليها.»

يصعب على مارتا استيعاب ما تسمعه، وأفكارها تختلط. من المحلول الوريدي إلى وعاء الدم في معصمها، تتدفق الحياة ببطء، ومعها يأتي النوم والهدوء.

«الآن ستتزوجان...» تقول مارتا، وكأنها تؤكد أو تسأل، وهي تشعر بتعب لا يطاق.

— هذا مستبعد. أنا معجب بشخص آخر... يبتسم ثم ينهض من على الكرسي.

— حسنًا، الآن يمكنكِ النوم. كل شيء انتهى. وسآتي غدًا. أنا متعب للغاية.

— هل كنتَ هنا طوال الوقت؟

يبتسم من عند الباب، ويُلوّح بيده.

— الوقت كله ما زال أمامنا. ماذا أحضر لكِ؟

— بر-ت-قا-ل... تقولها وتغرق في نوم عميق.

الخاتمـــــــة

بعد عامـــــين

تساقط الثلج اليوم...

يظل يتساقط. ثلج أبيض هادئ، كثير جدًا.

من شدة هدوئه، يتحدث الجميع همسًا، حتى الكلاب لا يُسمع لها صوت، فقد سكنت هي الأخرى. من النافذة، يظهر بوضوح كيف تلمع المنطقة بأكملها بضوء أزرق تحت المصابيح، وتضيء نوافذ الثكنات كأنها شموع مضيئة في فوانيس ليلة رأس السنة.

يبدو الأمر وكأن المرء قد دخل في قصة خيالية عن الأقزام.

عودة المساء من قاعة الطعام تشبه حقًا مسيرة سكان المملكة تحت الأرض؛ فالثلج يصرّ تحت مئات الأقدام بشكل إيقاعي، وضوء المصابيح يكشف عن المناديل الرمادية والسترات المبطنة: أقزام يعودون في طابور صامت إلى كهوفهم.

أنا أنتظر اللحظة التي يستقر فيها الجميع، ويهدأ الصخب، وعندئذٍ سأنظر من النافذة.

إنها صغيرة وضيقة، تقع تحت السقف مباشرة، ولا يظهر منها سوى السماء. وهذا أمر جيد. أتأمل ذلك الوميض الأبيض الكثيف، وأعلم أن الساحة أمام الثكنة ستكون في الصباح ناعمة وغير ملموسة، كسطح

كوب من الحليب.

وكأنها لم تداس، ولم يُبصق عليها، ولم تُلقَ عليها أعقاب السجائر. إنها قدرة الثلج العجيبة على ابتلاع القذارة، وكأنها لم تكن موجودة أصلًا!

الطبيعة وحدها قادرة على ذلك. البشر لا يستطيعون.

التفكير في الشتاء أفضل منه في الخريف أو الصيف. والليالي أطول. مع أن الاستيقاظ في الظلام الدامس أصعب بكثير. بالإضافة إلى الذهاب تحت الصنبور بمائه المثلج، وارتداء كل ما تقع عليه اليد، ثم الوقوف في الطابور بحذاء ممزق. يا للقشعريرة.

الشيء الوحيد الذي بقي لي للمتعة هو التفكير. فالتفكير هنا جيد، خاصة في الليل.

هذا أكثر إثارة للاهتمام من قراءة كتاب. خاصة وأن الكتب هنا كلها قديمة، قرأتها مئات المرات ضمن المنهج الدراسي، بالإضافة إلى أنها ممزقة لتحويلها إلى لفائف سجائر أو ممزقة ببساطة، ورائحتها كريهة. أحيانًا تزحف الحشرات بين الصفحات.

علاوة على ذلك، عندما تقرأ شيئًا من أيام شبابك، فإنك تغرق في حنين لا حاجة له هنا، وتتذكر الظروف التي قرأت فيها هذا الكتاب أو ذاك، وما حدث بعد أن وضعته جانبًا.

في البداية، كنت ألعب مع نفسي: أمسك بمسرحيات لتشيخوف أو

فينيتشينكو - وهي أيضًا ممزقة إلى نصفين تقريبًا، وأجهد ذاكرتي لأتذكر متى قرأتها آخر مرة؟ في المدرسة؟ في المسرح؟ في تلك الشقة التي كنت آتي إليها لأخذ صبي صغير في نزهة إلى البركة؟...

وهنا يبدأ كل شيء! كل شيء يبدأ من جديد، وكأنك تصعد على دوامة الخيل...

...لم يكن في تلك الشقة الكثير من الكتب، وإذا كان هناك عشرة على الرف، فهي مسرحيات وسير ذاتية لممثلات عظيمات أو سيناريوهات. وأتذكر أنها كانت بالية تمامًا كما هي هنا في السجن. لم تكن بالية من كثرة القراءة - فهي لم تكن تحب القراءة! - بل من استخدامها كقواعد للزجاجات أو الأكواب الساخنة من القهوة أو الشاي. في البداية، بدا هذا مؤثرًا.

في ذلك الوقت، كان كل شيء فيها يبدو لي لطيفًا وساذجًا ومؤثرًا. كانت مثل تمثال كريستالي انكسر مقبضه أو ساقه. لكن هذا لم يكن يراه أحد غيري، من خلال منظور ثانويتي.

كنت دائمًا ألعب دورًا مساندًا لها. كما يقولون، كنت في أدوار ثانوية.

لا يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك: كان يُلاحظ وجودها دائمًا أولًا.

حتى عندما كنت أدخل الباب قبلها.

حدث هذا أول مرة في امتحانات القبول بالمسرح. تم استدعائي أولًا، ثم تبعني استدعاؤها على الفور.

كنت الأولى لبضع دقائق، حتى ظهرت هي.

بعد ذلك، تكرر الأمر مرات لا حصر لها: كنت دائمًا أتقدم، ثم ينساني الناس عندما يرونها.

كانت تدخل ورائي وتدمر كل شيء. سواء كان ذلك بقصد أو بغير قصد، لم يعد ذلك يهم. لكن هذا هو ما حدث منذ البداية.

منذ تلك البداية التي دخلت فيها القاعة، وقدمت مشهدي التمثيلي، وقرأت مقتطفًا من عرض فردي، وغنيت ورقصت الفاندانغو. كان «أساتذة» فن التمثيل يتبادلون النظرات الودودة، ويضعون علامات «زائد» في ملاحظاتهم، ويومئون برؤوسهم موافقين، حتى أنني سمعت همسًا يقول: «رائعة. يا لها من موهبة!». ثم دخلت هي وفعلت كل هذا بشكل أسوأ (هكذا أخبرني مشرفنا فيما بعد عندما كنا ندرس)، أسوأ بكثير، لكن حبها الجامح لنفسها انتقل بطريقة ما إلى الأساتذة. وهزوا رؤوسهم هم أيضًا ووضعوا علامتي «زائد» بجانب اسمها...

على سبيل المزاح، أطلقت عليها اسم «زاخس الصغيرة». أصبح هذا اللقب متأصلًا فيها لسنوات عديدة لأنه كان دقيقًا، فهي كانت ماهرة في خداع أي شخص. ولكن بمرور الوقت، ولأسباب أخلاقية، قام مؤيدوها بحذف الجزء الأول من اللقب، وبدأوا ينادونها بـ»الصغيرة» فقط. وبدلًا من أن يكشف اللقب عن جوهر الشخصية الخيالية الغامضة والماكرة في قصة هوفمان - شخصية حقيرة وعديمة القيمة، قادرة على خداع أي شخص، مما يجعلها تبدو الأجمل والأكثر ذكاءً -

فإن هذا اللقب المختصر لم يضف لها سوى سحرًا.

وخسرت مرة أخرى.

لم يكن فيها أي سحر على الإطلاق! كان لديها وجه جميل - هذا كل ما في الأمر.

وجه منتظم، وكأنه رسمه فنان ساذج - لا شيء غير عادي. نقطة، نقطة، خطان معقوفان. وجه يفتقر إلى التفرد. من السهل حتى على الطفل أن يرسمه. في الواقع، هكذا ترسم الفتيات أميراتهن الخياليات: عيون دائرية كبيرة، حواجب مقوسة بشكل منتظم، شفاه كالفراشة، فتحتان تحت أنف مستقيم، وخطوط شعر عمودية تتدلى أسفل الكتفين. وهكذا تكون «الأميرة» جاهزة!

دائمًا ما كانت هذه الوجوه تشعرني بالغثيان. عادةً ما تثير الغثيان لدى الرجال الذين لديهم أكثر من عقل. وهذا صحيح أيضًا، فلم يكن من بين رجالها أي رجل يستحق الاحترام.

بعد دخولي المعهد، اكتشفت بدهشة أن «الصغيرة» لديها طفل منذ سنوات الدراسة! ولهذا السبب، فقدت الاتصال بوالديها - وهما شخصان بسيطان من منطقة نائية. وبدهشة لا تقل عن الأولى، ذهبت إلى شقتها - شقة تملكها، رغم أنها كانت على أطراف المدينة. عندما لاحظت دهشتي، علقت هي بلا مبالاة: «هذه هدية من عجوز لعين. تعويض عن هذا البلاء. ووعد بتدبير الأمر وإدخاله إلى دار رعاية...» وأشارت إلى الطفل الذي كان يزحف على الأرضية القذرة، واضعًا في

فمه كل ما يجده.

في ذلك الوقت، لم يكن أي منا، خاصة القادمين إلى العاصمة من مدن أخرى، يحلم بامتلاك شقة خاصة. ربما كان ذلك «العجوز اللعين» قد أصبح من الماضي منذ فترة طويلة، لأننا لم نتحدث عنه مرة أخرى. كان عمر الصبي حينها حوالي تسعة أشهر، وكانت هي، مثلي، قد بلغت للتو ثمانية عشر عامًا.

... الثلج يتساقط ويتساقط.

غريب، من أين يأتي كل هذا الثلج؟

سمعت في مكان ما أن لكل رقاقة ثلج شكلًا فريدًا. كل واحدة! هل هذا صحيح؟

هل هذا القماش الأبيض الكثيف الذي يتمايل ويتساقط خلف الزجاج المتسخ منسوج من مليارات الأنماط المختلفة؟ من الصعب تصديق ذلك. جميعها تبدو لي متشابهة، بوجه واحد، إلا إذا ظهر شيء أكبر من رقاقة ثلج، كعنقود تجمَع بفعل ضغط الماء أو الريح.

هذا الدوران الأبيض خلف النافذة يذكرني بنموذج الوجود البشري. وإذا صدقنا أن كل نقطة بيضاء صغيرة فريدة، فإن الأمر يبدو محزنًا للغاية. أولًا، دوران مُلهم وإحساس بالذاتية الفردية، ثم رقصة سريعة من السقوط، التي يظنها الأغبياء أنها طيران. وبعد ذلك، هبوط مجنون نحو الأرض القذرة، لتصبح غطاءً كثيفًا لا يمكن فيه تمييز نمط واحد

عن ملايين الأنماط الأخرى على مفرش المائدة الأبيض والناعم.

فقدان الفردية. وبعد ذلك، ينتهي بك الأمر تحت الأقدام التي تطحنك لتجعلك ماءً وقذارة...

... «الصغيرة» لم تفكر في مثل هذه الأشياء أبدًا. كانت بسيطة بشكل عام، تمامًا مثل وجهها الجميل والناعم.

عندما تخرجنا من المعهد المسرحي، كان عمر الطفل خمس سنوات. لكنه كان لا يزال يتزلج تحت الطاولة بحثًا عن فتات الطعام أو يعض أرجلنا، ويتكلم بكلمات من مقطع واحد، وينادي نفسه «ميكا». قبل ذلك كان في دار للرعاية، وعندما أصبح قادرًا على البقاء بمفرده في المنزل، أخذته إلى البيت، لأنها كانت تطمح إلى سمعة لا تشوبها شائبة.

لم تستعجل «الصغيرة» في إرساله إلى المدرسة، لأن هذا كان سيتطلب منها الاستيقاظ باكرًا. كانت ببساطة تغلق على الصغير في الشقة، أو بالأحرى، في غرفة واحدة، حيث كان يقضي فيها وحده يومًا كاملًا في بعض الأحيان، إذا كان لدى «الصغيرة» تصوير أو موعد.

في السنة الثالثة، بدأت الدعوات تصلنا ببطء للمشاركة في تجارب الأداء السينمائي، على الرغم من أن المدرسين منعونا من التمثيل. الجميع مُنعوا، إلا هي!

كانت «الصغيرة» قادرة على الظهور في مكانين أو ثلاثة في وقت واحد تقريبًا. كانت تلحق بالدروس في الصباح، وتشتكي للمدرسين

أنها لا تجد من يعتني بابنها، ثم تهرب فورًا إلى شؤونها التي لا تنتهي، والتي كانت تنتهي عادةً في حفلات صاخبة في شقة أحد المخرجين، ونادرًا ما كانت تحصل على دعوة إلى موقع التصوير. كانت تمثل في الغالب في الإعلانات التجارية التي بدأت تظهر على شاشات التلفزيون.

لكن في إحدى المرات، حالفها الحظ! رغم أن كل شيء حدث وفقًا للسيناريو المعروف لنا كلانا: لقد دُعيث أنا لدور في مسلسل طويل. أما «الصغيرة» فأتت إلى موقع التصوير وكأنها بالصدفة، لتُحضر لي دفتر ملاحظات بهواتفي، كنت قد نسيته عندما قضيت الليلة عندها.

ما زلت على يقين حتى الآن أن ذلك الدفتر كان مجرد ذريعة لتظهر أمام الكاميرات، لأنها كانت تعرف جيدًا: حيثما أكون، يجب أن تكون هي. ولم تخطئ! لقد مهدت لها الطريق إلى الشهرة مرة أخرى. وبعد يومين، أبلغت بأنني لم أحصل على الدور.

في مساء اليوم نفسه، أخبرتني «الصغيرة» بصوت واثق، دون تردد للحظة واحدة، أنها دُعيت هي للتمثيل. ولم تقل كلمة مواساة واحدة. كان من المفترض أن يحدث هذا. وهكذا حدث.

أعلم يقينًا: لو أنني حصلت على الدور، لكانت حياتي قد سارت في اتجاه مختلف!

بعد تلك الحادثة، شعرت باليأس الشديد، واستسلمت وأصبحت عن وعي ظلًا لـ«الصغيرة».

مع أن هذا الدور الذي لعبته لم يجلب لها ما كانت تتمنى. لقد فشلت في تمثيلها. تعرض الفيلم لانتقادات، ونسي الناس «الصغيرة». ومنذ ذلك الوقت، اختفت آفاقها، تمامًا مثلما حدث لي.

وقد جمعنا الفشل، فكنا نقضي ساعات طويلة جالستين في شقتها. نتبادل الكلمات بكسل، نشرب، وننام أحيانًا في سرير واحد. لم أكن أعرف لماذا كنت أحتاج إلى مثل هذه الحياة. لقد سحرني وجهها، وخنقني الأسف على ما لم يتحقق، وشعرت بشعور غريب بالتبعية لجمالها وصوتها، وحتى لطفلها. أحيانًا كنت أذهب فقط لأخذ الصغير في نزهة أو على الأقل أنظف المكان - فقد كانت «الصغيرة» تعيش في فوضى لا تُصدَق.

لم تكن تتركني. وأنا لم أستطع أن أتحلى بالشجاعة لإنهاء هذه الصداقة التي كانت أقرب إلى المازوخية. كان يخيل لي أن عليّ أن أمَهد لها عددًا لا يحصى من الدروب، أو على الأقل دربًا واحدًا آخر، تسير عليه وحدها أخيرًا، من دوني. وتختفي من حياتي إلى الأبد. كنت أعلم أنني بمجرد أن أتحرر منها، سيتغير كل شيء. لن أكون الثانية. سأصبح الأولى، كما كان يجب أن أكون. سأزهر كشجرة أزيل منها الهدال، وتمتلئ بالعصارة. لكن المكر كان يكمن في أنني لم أستطع أن أجبر نفسي على عدم المجيء، وعلى محوها من حياتي مرة واحدة وإلى الأبد. بالإضافة إلى ذلك، كنت أشفق على الصغير، وأصبحت «مدمنة» على الجلسات المسائية مع كأس وثرثرة لا نهاية لها عن فشلنا.

الآن، أعتقد أنني كنت أستمتع بسماع هذا النحيب من أجمل فتاة في مجموعتنا. كنت أتغذى عليه، تمامًا كما كانت هي تتغذى على إخلاصي. لقد بقيت العنصر الثابت الوحيد في حياتها العبثية.

فقدت ثقتها بنفسها، وأصبح عشاقها المؤقتون يتبادلونها من يد إلى يد ككرة. ولم أستطع مقاومة إغراء الاستمتاع بهذا الفشل. كنت أحتاج هذا كالهواء، لأننا أخيرًا وجدنا أنفسنا في المكان نفسه - ولم يكن هذا المكان الأول لي ولا لها.

... أتذكر لفترة طويلة شيئًا لا يستحق الاهتمام. لم يعد يستحق ذلك، مثل المقدمة في كتاب تقرأها بسرعة لتنتقل إلى الأهم.

ربما لأن الليل قد بدأ للتو، ويمكنني أن أرتشف الذكريات ببطء. أتذكر كل شيء بدون أي عاطفة حتى اللحظة التي ظهرت فيها الحلقة الأهم في هذه القصة، والتي فكت سلسلة ارتباطي بـ«الصغيرة». تلك اللحظة أبتلعها كالكحول غير المخفف - ما زالت تحرقني. رغم أن كل شيء بدا عاديًا. أي أنه لم يبدُ أي شيء غير عادي على الإطلاق. لا شيء...

... إذن، لا يوجد شيء غريب في أن صديقة والدة الصبي تأخذه في نزهة إلى البركة. تضع جريدة تحتها، وتمد ساقيها، وتستمتع بالهدوء، وبين الحين والآخر تنادي على الصغير - لترى إن كان قد تاه...

يركض الصغير على طول الشاطئ كالمجنون. يتلصص تحت كل شجيرة، ويصطاد كل الكائنات الحية. إنه يشبه جروًا أُطلق من قفصه.

يسارع ليركض، وينظر، ويمتص الانطباعات حتى النزهة القادمة. أحيانًا يتصلب في مكانه لفترة طويلة، يجلس بتركيز في العشب، مائلًا رأسه فوق فريسته - الفراشات واليعاسيب والحشرات.

ثم يغلقها في الوعاء.

يعود وهو يسير بتركيز، يخبئ الوعاء المليء بالحشرات المختلفة تحت قميصه.

«لا تخبري أمي،» يتوسل.

أسعدتني مشاركته هذا السر. أتخيل ما سيحدث إذا زحفت كائناته في جميع أنحاء المنزل!

«لماذا تريدها؟» أسأل.

«لأبحاثي...» يجيب بجدية.

في يوم ما، رأيت «أبحاثه» بعيني...

تسللت إليه عندما كان جالسًا على الشاطئ، ومن فوق كتفه رأيته وهو يزيل أجزاء من أجسام الحشرات بطريقة منهجية.

شعرت بالغثيان. ضربت يديه، وشرحت له «أن هذا الفعل سيء». وبعدها لم أعد أتدخل في ألعابه. لم يتخل عن تجاربه على أي حال، بل بدأ يختبئ مني. كان طفلًا لا يمكن السيطرة عليه، على الرغم من أنه كان يبدو كالملاك.

أحيانًا، عندما يتعب من صيده، يجلس بجانبي، يلتصق بي، ويحاوطني بذراعيه الصغيرتين حتى يكاد يخنقني.

«هل ستحبينني عندما تموت أمي؟» سألني ذات مرة.

طمأنته، وشرحت له أن والدته لن تموت، فهي ما زالت شابة. وفجأة
Telegram:@mbooks90
فكرت أن «الصغيرة» لا تلتهم حياتي وحدي، بل حياة هذا المسكين أيضًا. يا ليت لم تُنجبه!

«هي لا تحبني...» قال بجدية.

انقبض قلبي، لكنني أكدت له أنه مخطئ.

«لا،» قال بحزم. «هي لا تحبني. أمي تريد أن تطير! لكنها لا تستطيع...»

«لماذا تعتقد ذلك؟» سألته.

«هي تقول دائمًا إنني أمنعها من التحليق.»

«التحليق صعب،» وافقت.

تبادلنا بضع كلمات أخرى لا أريد تذكرها...

وفي اليوم التالي ماتت: انزلقت من مكانها المفضل على حافة النافذة. وُجد الكحول في دمها، وهو أمر ليس غريبًا.

وهكذا انتهت تبعيتي لـ«الصغيرة».

لكنني حزنت عليها لفترة طويلة - بقيت «الصغيرة» في دمي وأفكاري وذكرياتي لمدة سنتين أو ثلاث سنوات. وعندما تغير دمي تمامًا، بدأت كل الأمور تسير على أفضل نحو.

دُعيت للعمل في قناة تلفزيونية لتقديم برنامج، ثم في قناة أخرى أغنى. لم أصبح ممثلة أبدًا، فقد تغلبت على هذه الرغبة. تغيرت الأوقات، وكذلك ثروتي، وأصبح بإمكاني تحمل تكاليف دورات الإدارة الباهظة، وتعلمت كيفية إدارة الناس وتنفيذ الأفكار. والأهم من ذلك، أخيرًا لم يعد أحد يسير على خطاي، أو يعترض طريقي، أو يخطف مني معجبيني، معجبيني أنا فقط!

اندفعت كالمجنونة لتعويض الوقت الضائع، لم أخف من تغيير الوظائف وكنت دائمًا أصعد بنفسي، دون أن أشعر بخطوات غير صبورة خلفي - «هيا، أنا خلفك!».

أخذت ابنها بالطبع، وكأنني انتزعت من «الصغيرة» أشهى قطعة، تذكرني بها دائمًا.

تعلق بي الصغير، رغم أنه لم ينادني أبدًا «أمي».

كان دائمًا يناديني «ليوليا».

كان طفلًا غريبًا. على الرغم من صمته وتأخره في بعض الأحيان في الأفعال والكلمات، فقد كان حساسًا جدًا ومرهفًا وحنونًا، ولم يكن يتركني من أحضانه، بل كان يجلس على ركبتي لساعات طويلة بينما

أقرأ أو أتحدث في الهاتف. ربما، فكرتُ، أنه ورث كونه «الهدال» من والدته. لكنه لم يكن يمتص طاقتي - بل على العكس، كان يمنحني إياها، يغذيني، ويجعل حياتي كاملة.

بسببه لم أتزوج. ولم أندم على ذلك أبدًا. كان لي رجال في حياتي، لكنني كنت أشعر أن كل شيء مهم ينتظرني في المستقبل.

وكأنه يعوض الوقت الضائع، كان يدرس بجد، ويهتم بنظافته، ودقيقًا، ومركزًا، ويقرأ كثيرًا، ولم يكن يصادق أقرانه. منذ الصف السادس، كان يقضي وقته في دراسة أطلس التشريح، ويحلم بدخول كلية الطب.

أحيانًا كان يربكني بنظرته الثاقبة من عينيه السوداوين. لكنني كنت أعرف أنه بهذه النظرة، كان يمتص كل حركة أقوم بها، وكل رغبة، وكل فكرة سرية.

عندما كنت أعود إلى المنزل، كانت تنتظرني وجبة العشاء، وأرضية نظيفة، وأطباق لامعة، وواجباته المدرسية منتهية دائمًا.

أصبحتُ قدوته، فقد تعلم أن يفهمني من نظرة واحدة. كان يحضر لي النعال، والشاي، والمنشفة - كل ما أحتاجه في تلك اللحظة. لن أقول إن هذا كان أمرًا غير سار.

كنت فخورة بذكائه، وثقافته، ومهارته الخاصة في التعامل مع الناس - كانوا يُعجبون به على الفور، ويمدحونه، ويعتبرونه استثنائيًا، لا

يشبه أولادهم المشاغبين الذين يسببون لوالديهم الكثير من المتاعب. في يوم ما، فكرتُ أن هذه المهارة ورثها من «الصغيرة»، وأنه تجاوزها فيما بعد.

كنت متأكدة من أن مستقبلًا مجيدًا ينتظره. كنت أفكر في هذا المستقبل عندما كان في المدرسة الثانوية، لأنه كان يكبر بسرعة.

أحيانًا كان يبدو لي أنه لم يكن طفلًا أبدًا، وأنه أكبر سنًا مما هو عليه. بل حتى أكبر مني.

فرق السبعة عشر عامًا لم يكن عائقًا كبيرًا لنا: فبنيته الجسدية وجديته جعلته يبدو في الخامسة والعشرين، بينما لم يكن عمري يبدو على وجهي أبدًا!

لم يكن في حياتي رجل أفضل منه. بالنسبة لي، كان نقيًا، نقيًا تمامًا، كطفل حديث الولادة. كصفحة بيضاء يمكنني أن أكتب عليها ما أشاء - رواية، دراما، قصيدة بذيئة...

الأمر المهم أيضًا أنه لم يحب أحدًا سواي! منذ تلك الأيام البعيدة، عندما كان يلتصق بي هناك، على ضفة البركة. منذ ذلك الحين، كان يتعلم لا شعوريًا أن يتنفس بي وحدي، أن يلتصق بي، أن يبحث عن الأمان والحماية.

كل النساء الأخريات لم يكن يعنيَن له شيئًا. نعم، كان يحبني حبًا لم يحب به أحدًا غيري.

إذن، يا «صغيرة»، لقد أصبحتُ الأولى - ولم يتبعني أحد، لم يتقدم أحد عليّ، لقد هزمتك...

...أنا سعيدة لأنني تعلمت أن أنام قليلًا.

رغم أنني لم أعد مهددة هنا. في الأشهر الأولى، كان عليّ أن أبقى متيقظة - عين نائمة والأخرى ساهرة، خشية أن تتسلل إليّ إحدى السجينات المجنونات ليلًا بشوكة حادة تحت ذراعها. لكنني فيما بعد وجدت لغة مشتركة معهن. كنت دائمًا أجد لغة مشتركة مع أي شخص، فما بال هؤلاء اللصوص المتواضعات. كل واحدة منهن تحلم بالحرية، دون أن تعرف ما ينتظرها في الخارج. أما أنا، فأعرف: إغراءات! ورغبات لم تتحقق. وخيبات أمل. لكن قبل كل شيء - إغراءات. التي ستقودها إلى هنا مرة أخرى. أو إلى اللاشيء.

...في ذلك اليوم، عندما وجدت الملابس النسائية المتحللة تحت حوض الاستحمام في شقته، شعرت بصدمة ورعب. لكنني لم أتفاجأ كثيرًا. كنت أتوقع شيئًا كهذا...

كانت تلك الحادثة بمثابة تطهير، أدركت بعده أنني لن أتركه أبدًا. في ذلك اليوم، فهمت أنه محكوم عليه بالفشل. وأن لي نصيبًا من الذنب في هذا.

كان يجب أن أوجهه إلى نوع من النشاط يناسب ميوله، لكنه يكون آمنًا، ويمنحه الرضا الذي لا يمكنه العيش بدونه. وكان يجب أن يكون هذا النشاط مرتبطًا بالنساء. بالخطر، باللعبة، وبالمال بالطبع، وإلا لما

كانت اللعبة تستحق كل هذا العناء!

والأهم من ذلك كله: كان يجب أن يبدو كل شيء أنيقًا، جماليًا، ونظيفًا.

بدأ الأمر عندما أخبرني أنه تعرف على فتاة أخرى. كان يرتجف. قال إنها قادمة من إحدى المقاطعات، ليس لديها أقارب، وهي جميلة وغبية كحشرة: تريد المتعة والمغامرات، وتأمل في زواج ناجح. كان يرتجف من الاشمئزاز، وكأنه يصف ضفدعًا.

في ذلك الوقت، كان لدي متجر ملابس صغير، يشبه غرفة تبديل الملابس في المسرح - كل شيء متوفر بنسخة واحدة فقط! اقترحت عليه فكرة قرأتها في إحدى الصحف: تجارة البشر، خاصة النساء، تجلب أرباحًا هائلة. ويجب أن تكون النساء من «الدرجة الثانية» - نوع من السلع البديلة المتواضعة. «صغيرات»...

هنّ يعرضن أنفسهن للمغامرات بإرادتهن، لأنهن يسعين لحياة جميلة. وهو، طفلي، سيظهر مهاراته كصياد - ولكن بطريقة نظيفة وراقية.

جربنا «التجربة» الأولى: لقاء رومانسي، «شهر عسل»...

نجحت التجربة بسهولة تامة. لم أتوقع أبدًا أن يكون الأمر بهذه السهولة، تمامًا كما في قوانين الحياة: فراشة تطير بنفسها نحو النار. وكلف ذلك مبلغًا باهظًا.

ثم بدأ العمل الحقيقي، الذي لم يكن بهذه السهولة - فقد كان

«السوق» منظمًا ومحتلًا من قِبل آخرين. كان علينا البحث عن شركاء، وإنشاء «ممرات» موثوقة في الخارج. في النهاية، أصبحنا أفضل الموردين، لأننا كنا نعمل بأسلوب راقٍ. كان يجب أن تكون اللعبة جذابة، والسلعة «نخبوية»: جميلات فقط، وشابات فقط.

...ومستعدات للإغواء. وهناك شيء آخر لا يمكنني أن أغفله - يجب أن يكن كلهنّ شبيهات بـ«الصغيرة»!

كان ينتظر بشغف اليوم الذي أدعو فيه الفتاة التالية إلى المتجر. كان يجلس خلف الزجاج المزدوج في غرفة القياس، يلتقط صورها للعملاء بينما تدور الفتاة أمام المرآة، ويصدر حكمه.

أنا أيضًا أصبحت مفتونة بهذه اللعبة: إذا دخل إلى المتجر بعد قياس الملابس (كان يدخل من البلف الأسود، عبر المخزن، ويظهر في المحل كزبون عادي)، كنت أفهم أن «السلعة» اجتازت الاختبار ويمكننا المتابعة. كان سعيدًا، ومتحمسًا لهذا الصيد. والمدهش أن هذا العمل كان يدر ربحًا، ومتعة أيضًا. كنت دائمًا أسافر خلفه إلى أكثر البلدان غرابة وأنتظر اللحظة التي سيعود فيها إليّ في الفندق الفاخر بعد إنجاز مهمة ناجحة. وعندها نشرب الشمبانيا. ثم نواصل السفر، ونسافر، لندرس العالم لا من الكتب، بل باللمس والتذوق، ونزور المتاحف والمسارح والنوادي والآثار من العصور الوسطى.

كان كل شيء يسير على ما يرام. لولا تلك الحادثة...

لقد فقد يقظته! كان يتحدث مع شركائنا في الخارج عبر الهاتف،

بينما كانت المرشحة التالية في الغرفة المجاورة، وتدعي أنها نائمة. ثم اختفت ببساطة. وهذا حدث بعد أن دفع لها مبلغ كبير! أدى «خطأ» واحد إلى أخطاء أخرى. الحادثة جرت حادثة.

توسلت إليه ألا يخاطر وأن يختبئ لمدة عام أو عامين، لكنني أدركت فيما بعد أن هذا مستحيل. أن اللعبة قد ابتلعته بالكامل، وأنه أصبح فنانًا ماهرًا، وإذا توقف كل شيء، سيبدأ طفلي الصغير في فعل شيء مروع مرة أخرى. إبعاده عن هذه اللعبة كان سيكون مثلما لو أنني في طفولته أخذت منه الوعاء الذي كان يخفيه تحت قميصه...

... ثلج، ثلج خلف النافذة. وميض الفراشات الجليدية. أقف، وأقترب بهدوء من الحائط، أرفع رأسي نحو الزجاج المتسخ لأرى نمط رقاقة ثلج واحدة على الأقل. لكنها كلها متشابهة! ضوضاء بيضاء...

ستفنى جميعها. هذا هو قدرها. كم هو جيد عندما تذوب على راحة يد دافئة وحنونة. على راحة يد قوية وواثقة، تفرح بأنها عرفت ذلك الدفء اللحظي - دفئه، دفء طفلي...

خلال التحقيق، سألوني عما إذا كنت أتذكر كل من مررن بغرفة القياس. ذكروا أسماء وكنى. هززت رأسي. لماذا أتذكرهن؟ كان عددهن بالعشرات. أنا متأكدة من شيء واحد - بالنسبة لي، كن جميعهن «صغيرات». حشرات. فاشلات، لا يستطعن تدبير أمورهن بأنفسهن. كن يطرن نحو الواجهة، مثل الفراشات نحو النار، مثل الثلج نحو راحة اليد. لقد تعمدت وضع زجاج داكن، لأرى ما بداخلهن بشكل أفضل.

رأيت وجوههن - كان عليها جميعًا نفس التعبير ونفس الرغبة: ارتداء قطعة قماش فاخرة. كن كلهن دمى في شرنقة رغباتهن. ومشاهدة الحرير الملون أو المخمل النبيل خلف الزجاج كان يعطيهن وهم الأجنحة والطيران إلى عالم آخر، أفضل وأكثر إثارة للاهتمام، عالم لم يتمكن من خلقه لأنفسهن، وكن يأملن أن يخلقه لهن شخص آخر...

كان يثير اهتمامي الحديث معهن قبل أن يظهر لهن هو — حلم حياتهن، الأمير الساحر، أو بالأحرى، وحشي الصغير المسحور.

سألني المحققون عما إذا كنت أتعاطف معهن، أو ندمت على ما فعلت؟ ندمت؟ وهل يمكن للمرء أن يندم على نقاء الثلج الذي يتحول إلى كتلة قذرة وتعيق السير السهل؟ يمكن.

ولكن فقط في أول دقيقتين، قبل أن تدرك أن هذا هو قدره. لكن لا الثلج ولا الفراشة يختاران مصيرهما. أما هؤلاء «الصغيرات» فقد اخترنه بأنفسهن! لأنهن، على عكس الحشرات، كان لديهن خيار. وفي النهاية، آلاف النساء يقمن بهذا الاختيار بوعي تام ومن دون تلك المقدمة التي كنا نقدمها لمرشحاتنا. لأنهن يبحثن بأنفسهن عن الإعلانات، وينجذبن إلى عروض العمل في الخارج، ويدركن جيدًا أن عرض العمل «كراقصة» أو «مضيفة» في نادٍ أجنبي لا يعني سوى شيء واحد...

أما نحن فكنا نمنحهن قصة خيالية - ربما الوحيدة في حياتهن بأكملها، تلك التي سيتذكرنها لاحقًا. زهور. مواعيد غرامية. فساتين

راقية. مطاعم. رحلات سياحية بتذكرة ذهاب فقط... مقدمة مذهلة كانت على وشك أن تتحول إلى سيمفونية.

الشيء الوحيد الذي لم يخطر ببالهم أن يسألوني عنه (وبصراحة، كيف لهم أن يعرفوا بهذا الجانب من حياتنا!)، هو ما إذا كنت أشعر بالغيرة عليه من كل تلك الجميلات اللواتي كان يخرج معهن من المتجر. وهنا أيضًا، يمكنني أن أجيب بثقة: لا.

في المرة الأولى التي كان فيها يختبئ خلف المرآة، يتفحص الشقراء الفاتنة ويلتقط لها الصور، سألته مازحة (ولكن ليس من دون خوف من سماع الإجابة)، عما إذا كانت تعجبه حقًا، فهي أصغر مني وأجمل. وهذا أمر طبيعي. وهل يمكن أن تصبح هي الأولى في حياته، بعد أن مهدت لها الطريق، كما حدث ذات مرة مع والدته.

Telegram:@mbooks90

سألته وأدركت: هذا لن يحدث أبدًا! لقد كانت بالنسبة له مجرد شرانق، حشرات وزواحف كان يجمعها وهو طفل في وعاء.

قالها، وظهر على وجهه نفس الاشمئزاز وفضول الباحث الذي رأيته هناك، على ضفة البركة.

عانقني وبكى. رغم أنه لم يعد في السابعة من عمره منذ زمن طويل...

الآن لم يعد موجودًا. لقد طار، تمامًا كما طارت «الصغيرة» ذات مرة.

حتى الطابق هو نفسه - السابع...

لم أتمكن من أن أقول له ما كنت أرغب في قوله منذ فترة طويلة.

كنت أريد - لكنني لم أتحل بالشجاعة. لأنني لم أكن متأكدة مما إذا كان ذلك حقيقيًا؟ أم أنني اختلقته؟

وهل حدثت حقًا - تلك المحادثة القصيرة، ذلك الهمس المتقطع وسط الغابات العشبية على ضفة البركة القديمة، تلك المؤامرة الزائلة بين طفل في السابعة من عمره وفتاة وحيدة، عندما قال وهو يلتصق بي، إن والدته تحلم بالطيران، لكن ليس لديها أجنحة. فابتسمت، وقبلته، وعقبت قائلة إن الأجنحة ستنمو أثناء الطيران. كل ما في الأمر هو أن عليها المساعدة قليلًا...

... السماء تكتسي باللون الرمادي. الثلج غطّى الساحة بأكملها.

بعد ساعة أو اثنتين سيبدأ التفتيش، والفوضى الصباحية، والغسيل والارتداء، وصرير مئات الملاعق الألومنيوم على الأطباق، وحشرجة ماكينات الخياطة. هكذا سيمضي ما تبقى من حياتي.

لكنني لا أندم إلا على شيء واحد، أنني لم أستطع أن أقول له: «أنا أعرف مَن ساعدها على الطيران.

لقد فعلنا ذلك معًا...».

انتهى